تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية

تأليف

أ.د. محمود السيد

استاذ التاريخ الاسلامي ـ كلية المعلمين

المدينة المنورة (سابقا)

١٩٩٨

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت: ٤٨٣٩٤٧٢ الاسكندرية

المقدمة:-

لعبت مصر بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي الرائع في ملتقى القارات الثلاثة أفريقيا وآسيا وأوربا منذ أن افتتحها العرب في عام ٢١هـ - (٦٤٢م) دورا سياسيا وحضاريا هاما في التاريخ الاسلامي وقد فطن العرب الى خطورة هذا الموقع واكتشفوا أهميته العظمى بالنسبة لسلامة دولتهم فاتخذوا من مصر درعا واقيا لممتلكاتهم ، كما اتخذوا منها أيضا القاعدة الرئيسية للمد العربي والانسياح غربا حتى المحيط الأطلسي .

ففي عام ٢٥هـ (٦٤٥م) نقض الروم عهدهم مع العرب وأغاروا على الاسكندرية ولكن العرب تمكنوا من قهرهم ونجحوا في ردهم على أعقابهم [(١)] وكما تعرضت الاسكندرية للغزو البحرى البيزنطى تعرضت دمياط وتنيس لغاراتهم البحرية [(٢)] في العصرين الأموى والعباسي . ولما تكررت غزوات الروم للثغور المصرية أمر الخليفة العباسي المتوكل على الله ٢٣٣ - ٢٤٧ هـ (٨٤٨ - ٨٦٤) ببناء الحصون وأنفقت الأموال الطائلة على بناء الحصون الساحلية منذ

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ص ١٧٥ ، طبعة ليدن ١٩٢٠ تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ط القاهرة ١٣٢٥ هـ جـ١ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ - د . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى حتى الفتح العثمانى ، ص ٤٢ ط ثانية دار المعارف عام ٦٩.

(٢) المقريزى ، الخطط ، ط، جـ١ ص ٢٩١ ، ٣٤٥ -د. عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية فى مصر والشام ص ٢٣١ ، ٢٣٩

ذلك الحين حتى العصر الفاطمى [١] وعندما أخذت الدولة الفاطمية تتداعى وتضمحل بعد المستنصر با لله بدأت مصر تواجه الخطر الصليبى . [٢]

ويعد الدور الذى لعبه العرب فى مصر فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية من أهم أدوارهم فى تاريخ مصر الاسلامية ، ومع ذلك فلم يلق من عناية الباحثين ما هو جدير به من بحوث ودراسات .

فلقد تعرضت مصر فى هذه الفترة من تاريخها لأشد الغزوات خطرا فى التاريخ من قبل الصليبيين والمغول .

وكان دور العرب واضحا فى الدفاع عن مصر والذب عن ثغورها ومقاومة المعتدين وردهم عنها . هذا الدور البارز الذى لعبه العرب فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر الاسلامية كان مدار بحثى لهذه الرسالة .

واذا تقصينا بداية الوجود العربى فى مصر منذ الفتح لألفينا أن هجرة القبائل العربية ارتبطت بالسنين الأولى التى تلت فتح العرب لمصر فى عصر الخلفاء الراشدين قدمت قبيلة بلى من الشام عام

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ص ٣٤٦ - سيدة الكاشف ، مصر فى الاسلام من الفتح العربى الى تمام الدولة الطولونية ، ص ٨٤ ، ط القاهرة ١٩٤٧

(٢) المقريزى ، الخطط ،جـ١ ، ص ٦ ، ٣ - د.محمد حمدى المناوى ، مصر فى ظل الاسلام من الفتح العربى الى الفتح الفاطمى ط القاهرة سنة ١٩٧٠

٢٢هـ (٦٤٤) ثم نزلت جنوب مصر [1] وفى العصر الأموى وفد الأزد من العراق بأمر من زياد ابن أبيه والى البصرة (٤٥/٥٣ هـ) ونزلوا الفسطاط [2].

وفى عام ١٠٩ هـ قدمت قبائل قيس عيلان من الحجاز [3]. وفى عهد الخليفة المتوكل العباسى وفد الى مصر أولاد الكنز من ربيعة ونزلوا بأسوان [4].

وأصبح للعرب منذ أن افتتحوا مصر واستقروا بها سلطة الحكم وقيادة الجيوش .

وكانت القبائل العربية هى العنصر الرئيسى فى الجيش ، فقد قيدت أسماء أفرادها المقاتلة فى الديوان .

ومنذ بدأت هجرة قبائل العرب من شبه الجزيرة العربية فى بداية القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) حتى أخذ العرب ينتشرون فى

---

(١) المقريزى ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل ، تحقيق د. عبد المجيد عابدين ، ط القاهرة سنة ١٩٦١ ص ٢٦ ، د/عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، ط القاهرة سنة ١٩٤٦ ، ص ١٠٦

(٢) المقريزى ، البيان والاعراب ص ٦٨ - د. عبد الله خورشيد البرى ، القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ط القاهرة سنة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٢

(٣) الكندى ، الولاة والقضاة ط بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٧٦ - المقريزى ، البيان والاعراب ص ٦٥ - د. عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية - تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة الأموية ، ط الاسكندرية سنة ١٩٧٤ ، ص ٣٨٢

(٤) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٤٤.

أنحاء مصر ويشتغلون بالزراعة مثل قبائل قيس [١] وبالتجارة مثل قبائل جذام [٢] وبالتجارة والتعدين مثل قبيلتى بلى وجهينة [٣] ولم يكن لقبائل العرب الذين يشتغلون بالزراعة والتجارة ومالى ذلك من حق قيد أسمائهم فى سجل ديوان الجيش [٤] .

وفى عهد الخليفة المعتصم العباسى رفعت أسماء العرب من الديوان وأسقط حقهم فى العطاء عام ٢١٨ هـ (٨٢٣) فساعد ذلك على زيادة انتشار العرب فى ريف مصر واحتراف الزراعة وغيرها طلبا للرزق [٥] ويسجل ذلك بداية الاندماج بين العنصر العربى وأهل البلاد الأصليين وظهور المجتمع الجديد . [٦]

ثم بدأت حركة الهجرة العربية الى مصر تقل فى عصر الطولونيين لتحيزهم لغير العنصر العربى [٧] ولكنها عادت فنشطت من جديد

---

(١) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٦٧

(٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ط بيروت سنة ١٩٥٦ ، ص ١٨٣

(٣) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ط ليدن عام ١٨٩١ ص ٣٣٣

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ط القاهرة عام ١٩٠٠ ، ص ٤٦٤

(٥) د.سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ٧٤ - د. عبد الله البرى ، القبائل العربية ص ٥٦

(٦) د. شكرى فيصل ، المجتمعات الاسلامية ط القاهرة عام ١٩٥٢ وص ١٥٨ - د. عبد الله البرى ، القبائل العربية ، ص٥٥

(٧) د. عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، ط القاهرة عام ١٩٤٦ ، ص ١٠٦

عندما استقر الفاطميون في مصر [1] :

ومن بين القبائل التى نزلت بمصر فى العصر الفاطمى بنو هلال وسليم وكانوا أهل بادية بالحجاز ثم نزل بنو سليم قرب المدينة ونزل بنو هلال عند الطائف وكانت لهم رحلات الى بلاد العراق والشام وكانوا يقطعون الطريق على السابلة والحجاج ، فلما ظهر القرامطة دخلوا فى جيوشهم وصاروا جندا لهم فى البحرين وعمان ، ثم انتزع القرامطة بلاد الشام من العباسيين وظاهرهم بنو هلال وسليم.

ولما قامت الدولة الفاطمية فى مصر استطاع المعز لدين الله انتزاع الشام من القرامطة وردهم على أعقابهم الى البحرين ونقل أشياعهم من بنى هلال وسليم الى مصر وأنزلهم بالعدوة الشرقية من النيل ولكنهم تسببوا فى الأضرار بالبلاد [2] .

وظلوا فى منازلهم حتى عهد الخليفة المستنصر عندما شق المعز بن باديس عصا الطاعة على الفاطميين منتهزا فرصة الأزمات السياسية

---

(١) نفس المصدر .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ط بولاق عام ١٣٨٤هـ ، جـ٦ ، ص ١٣ - أحمد بن خالد الناصرى السلاوى ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ، جـ ١ ص ١٦٥ ط القاهرة عام ١٨٨٣ - المقريزى ، البيان والاعراب ، ص١٢٨ ، د.عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ط عام ١٩٦٦ ، جـ٢ ، ص٦٦٦ .

والاقتصادية التي تعرضت لها الخلافة الفاطمية في مصر ، بالاضافة الى أن المعز بن باديس كان يميل الى مذاهب أهل السنة [1]

ولذا قطع علاقته بالفاطميين في مصر .[2] فلما ولى الحسن بن على اليازورى الوزارة للمستنصر و لم يكن على وفاق مع المعز بن باديس ، لأن ابن باديس لم يكن يخاطبه بما كان يخاطب به الذين قبله من الوزراء فاستبدل عبارة (عبده) في مخاطبته لليازورى بعبارة (صنيعته) وصار يخاطبه بها استخفافا واحتقارا له لمجرد أنه بن فلاح ولد بفلسطين و لم يكن من أهل الوزارة وأبناء الأمراء . وعندئذ شرع اليازورى يوقع بينه وبين الخليفة وأغرى العرب به [3] .

كانت القبائل العربية من بنى هلال وسليم في عهد المستنصر في حروب مستمرة بينهما فأشار الوزير اليازورى على الخليفة المستنصر باصطناعهم واغرائهم بالهجرة الى بلاد المغرب وبذلك يتخلص من

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص١٣ - د. مختار العبادى ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط اسكندرية ، ص ٨٣ .

(٢) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط بيروت ، ص ٢٧٧ - العبر ، جـ ٦ ، ص١٤ السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، ص ٦٧ .

(٣) السلاوى الناصرى ، الاستقصا ، ص١٦٧ - د. عبد الحميد يونس ، الهلالية في تاريخ والأدب الشعبي ، ط القاهرة . عام ١٩٥٦ ، ص ٦٦ .

اضرارهم بالبلاد [١] وينتقم فى نفس الوقت من العصاة المارقين من الصنهاجيين [٢]

واقتنع الخليفة المستنصر بالله بوجاهة هذا الرأى وانتدب لهذا الأمر مكين الدولة بن ملهم لعقد صلح بين قبائل العرب من هلال وسليم وغيرهم وعرض عليهم الهجرة الى أفريقية وأجزل لهم العطاء ووعدهم بالعون والمساعدة وأن يكون مايفتحونه من البلاد اقطاعا لهم [٣].

ثم بعث اليازورى الى ابن باديس يتهدده ويتوعده وسير القبائل الهلالية فاجتازت النيل وعبرت الصحراء . وفى أرض أفريقية تقابل عرب المشرق من بنى هلال وسليم مع قبائل زناتة وصنهاجه . يذكر ابن خلدون انه عند التحام الفريقين للقتال انحاز العرب الذين كانوا مع جيش ابن باديس الى اخوانهم العرب الهلاليين للعصبية القديمة وانهزمت صنهاجه فبرز لهم ابن باديس فى طائفة من عبيده ولم يلبث ان فر من المعركة والتجأ الى المنصورية [٤] .

---

(١) وانظر اليازورى فى محاولة التغلب على المشاكل الاقتصادية التى بجمت فى مصر فى ذلك الوقت . Lane poole . the story of Cairo P.p 146, 147 . London , 1924

(٢) السلاوى الاستقصا ن حـ١ ، ص١٦٧ - دز عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ص٦٦٦ .

(٣) ان خلدون ، العبر ، حـ٦ ، ص ١٤ - السلاوى الاستقصا ، حـ١ ، ص ١٦٨ - د. عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص٦٦٦

(٤) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، ص ٢٩٢

وقد حاول بن باديس أن يرتبط بعلاقات ودية مع العرب فأباح لهم دخول القيروان للميرة ولكن الحالة لم تلبث أن ساءت من جديد وحدثت اشتباكات بين الهلاليين والصنهاجيين حتى استحالت الحياة في القيروان . وانتهى الأمر بأن ارتبطت الأسرة الحاكمة المعزية - بعد أن تقلص سلطانها وضعف برابطة المصاهرة مع بعض رؤساء قبيلة بنى رياح أقوى قبائل بنى هلال [1] .

وفى العصر الفاطمى الثانى بدأ الوزراء الفاطميون يستعينون بقبائل العرب فى حل المشاكل السياسية فى البلاد بالقوة ومن أمثلة هؤلاء الوزراء الذين استعانوا بقبائل العرب لنصرتهم على منافسيهم الوزير الفاطمى شاور بن مجير بن نزار السعدى . نسبة الى قبيلة سعد من جذام من القحطانية . [2] وكان الصالح طلائع ابن رزيك قد أسند ولاية قوص الى شاور . وكانت من أكبر الأعمال بعد الوزارة ونجح شاور فى بسط نفوذه على الصعيد بحسن سياسته للرعية . وهناك ارتفع شأنه . ويعبر ابن الأثير عن ذلك بقوله : فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم [3] استعان شاور بقبائل العرب من الجعافرة وبنى طلحة والقرشيين للظفر بمنصب الوزارة فلما تم له

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، حـ٦ ، ص ١٥

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ط القاهرة ١٩١٤ حـ ٣ ، ص ٣٤٠ - القلقشندى ، نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، ص ٢٨٧ ، ط القاهرة عام ١٩٥٩ م .

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ط القاهرة عام ١٣٠٢ هـ

ذلك أجزل لهم العطاء (فزاد أهل الرواتب والجرايات عشرة أمثالها)[1] وكشفت سياسة شاور فى الاستعانة بقبائل العرب لتنفيذ أغراض سياسية عن مدى الدور الذى يمكن أن يلعبه العرب فى شئون الحكم فى البلاد .

الا أن هذه القبائل العربية التى عاونت الوزير العربى شاور فى الوصول الى الحكم هى نفسها التى وقفت منه موقف المعارضة الى الحد الذى جعلهم يحملون السلاح عندما أدركوا خطأ السياسة التى سار عليها واساءته السيرة فى الرعية [2] .

ومن مظاهر ذلك موقف القبائل العربية من الصراع بين شاور وأسد الدين شيركوه فى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد ٥٥٥-٥٦٧ (١١٦٠-١١٧١) . أما شاور فقد استعان بالصليبين لتنفيذ خططه السياسية بمصر ، فبعث أسد الدين اليه رسالة ضمنها رغبة أسد الدين فى التعاون المطلق وبغير قيود مع شاور ضد الصليبين والعمل الاسلامى يدا واحدة للقضاء على الصليبين ، ورفض شاور الرسالة . وكان تعليق أسد الدين على ذلك الرفض قوله لعنه الله - يعنى شاور - لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج) [3] .

---

(١) ابن خلدون ، العبر حـ٤ ، ص ٧٦ .

(٢) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، حـ٥ ، ص ٣٤٦ ط القاهرة سنة ١٩٢٩

(٣) أبو شامه الروضتين فى أخبار الدولتين ن حـ١ ص ١٦٨ ، ط القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ

كذلك عارضت القبائل العربية شاور وأيدت أسد الدين وعاونته عن طريق انضمامها الى جيشه فى صراعه ضد شاور والصليبيين . وفى ذلك يقول أبو شامه (وسار أسد الدين الى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوما) واستمال قوما يقال لهم الاشراف الجعفريين والطليحيين والقريشيين) [1] وعندما اتجه أسد الدين من قوص الى الاسكندرية بعد مابلغه قيام شاور والصليبيين بمحاصرتها (تبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد وبلغ ذلك شاور فرحل هو والفرنج واضطر الى الصلح) [2]

وكان من بين القبائل العربية التى انضمت الى عسكر أسد الدين طائفة من لخم وجزام ومدلج [3] استبسلت فى القتال مع الجيش النورى الى أن تم النصر للمسلمين [4]

وهكذا انتصر العرب فى مصر شمالها وجنوبها لأسد الدين وابن

---

(١) نفس المصدر

(٢) نفسه

(٣) المقريزى ، الخطط حـ١ ص ٢٧٨ - البيان والإعراب ص ١٠٣ ، ١٠٥- ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، حـ٥ ، ص ٣٤٩ - القلقشندى ، قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان رقم ٣٨١ ميكروفيلم .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، حـ٥ ص ٤٣٩ ، ٣٥٠

أخيه صلاح الدين [1] وأيدوهما بالسلاح والرجال . وأعانوهما في الوقوف في مواجهة شاور والصليبيين . ثم عهد الخليفة العاضد الى شيركوه بمنصب الوزارة وسر أهل مصر بذلك [2] . وخلفه عليها بعد وفاته ابن أخيه صلاح الدين الذى لقب بالملك الناصر . وفى عهد وزارته سقطت الدولة الفاطمية وأعيدت الخطبة للعباسيين[3].وفى بداية عهده فى هذا المنصب تعرض ثغر دمياط لغارة بحرية قام بها أسطول صليبى قوامه ألف ومائتى سفينة ، وقبل أن يصل خبر الغزوة الى صلاح الدين كان أهل دمياط ومنهم عرب بنى كنانة [4] . يستبسلون فى مقاومة الغزاه وصدهم عن دخول البلاد . ولم يتردد صلاح الدين فى تعزيز دمياط بالرجال والسلاح كما بعث يستنصر بنور الدين فى الشام وترتب على ذلك أن خفف

---

(١) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، حـ١ ، ص ١٦٨ ، وأنظر فى ترجمة صلاح الدين فى رحلته الى مصر صحبة أسد الدين شيركه The Oldezahourg"zoe". crusades.P.P.378-379 New York 1966 .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، حـ١ ، ص ٣٥١ - د.جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٣٩٠ ، ٤٠١.

(٣) مرعى بن يوسف نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط رقم ١٤١٦ ج ، ص ٤٤ ، م. الاسكندرية .

(٤) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ١١ وبنو كنانة وهم من البكريين ومعهم طائفة من العمريين قدموا الى مصر فى عهد الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز وذكر القلقشندى أنهم وحلوا من بنى رزيك ما أربى على الأمل وحلوا محل التكرمة على مباينة الرأى ومخالفة المعتقد (قلائد الجمان ، ميكروفيلم رقم ٢٨١) - أحمد لطفى السيد ، قبائل العرب فى مصر ص ٦٣ .

الفرنج خناقهم على دمياط واضطروا الى رفع الحصار عنهـا والعودة من حيث أتوا .[1]

وهكذا تخلصت دمياط من خطر محقق بفضل شجاعة أهلها ومـن آزرهم من عرب بنـى كنانـة . وظـل العـرب عونـا لصـلاح الديـن وخلفائه من سلاطين بنى أيوب وشجا فى حلـق الاعـداء . وكـانوا فـى حقيقـة الأمـر يمثلـون طلائـع الجيـش ويتولـون القيـام بالأعمـال الفدائية التى تسبق عادة المعارك الحربية والتحام الجيوش المقاتلة .

ومن أمثلة ذلك ماقيل عن دور العرب فى معارك مصـر الكـبرى مارواه المقريزى عندما تعرض لوصف الأعمال الفدائية فى دمياط فى عهـد الملـك الكـامل الأيوبـى ، اذ يقـول : (والعربـان[2] تتخطـف الفرنج فى كل ليلة بحيث امتنعوا عن الرقـاد خوفـا مـن غـاراتهم[3] ومن الجدير بـالذكر أن العـرب سـايروا الدولـة الأيوبيـة و لم يخرجـوا عليهـا . كمـا أنهـم لم ينقلبـوا علـى سـلاطينها أو يثـوروا عليهـم . وكانت سلاطين الدولـة الأيوبيـة مـن جـانبهم يبعثـون برسـائلهم الى ولاة الأقاليم يدعونهم فيها الى اتباع سياسة رشيدة عادلـة ازاء جميـع

---

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، حـ١١ ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ - أبو شامة الروضتيه فى أخبـار الدولتين ، حـ١ ، ص ١٨٠ - المقريزى ، الخطط حـ١ ، ص ٣٤٦ ، ٣٥٥ - د. الشيال مجمـل تاريخ دمياط ، ص ١٧٢ .

(٢) يرد فى صفحات التاريخ الاسلامى لفظ العربان للدلالة على العرب الذين نزلوا فى مصر ، ولانعنى العربان الأعراب البدو سكان البادية وانما القبائل العربية التى استقرت فى الأرض المصرية .

(٣) المقريزى ، الخطط حـ ١ ، ص ٣٤٦

المواطنين بلا استثناء . فى حين افتقد العرب فى عصر المماليك هـذا النوع من العدالة . والظاهر أن السبب فى ذلك يرجع الى أنه عندما أدرك العرب عزم الأمراء المماليك على الاستيلاء على الحكـم فـى مصر أعلنوا معارضتهم لهذا المبدأ ورفضوا قبوله وطـالبوا بـأن يكـون حكم العرب للعرب .

وهكذا بدأ الصراع بين العرب والمماليك منذ قيام المماليك بحكـم مصر . ومن الجدير بالملاحظة أنه الى جانب استمرار العـرب القيـام بثوراتهم ضد الحكم المملوكى فى مصر كانت هناك ظاهرتان هامتان هما :

أ- أن الهجرة العربية الى مصر توقفت وأخـذت على الضـد مـن ذلك تتوجه منها الى الخارج .

ب- حدوث اندماج واضح بين العرب والمصريين نتيجة للصراع العربى المملوكى ومع ذلك فقد شـاركت القبـائل العربيـة فـى مصـر الجيش المملوكى فى جميع المعارك الحربية مشاركة فعالة . ومن أمثلة ذلك معركة عين جالوت عـام ٦٥٨ (١٢٦٠) التـى استدعى اليهـا القبائل العربية من عامة أنحاء مصر [١] للانضمام الى صفوف الجيـش المملوكى بقصد الذب عن البلاد وكان أكثر من قدم من العرب مـن اقليمـى الشـرقية والغربيـة [٢] لقربهـا مـن أرض المعـارك وفـى عـين

---

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ق ١ ص ٤٢٩

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ١ ص ٧٩

جالوت التحم الجيش المملوكي وقد انضمت اليه فرق من قبائل العرب مع جحافل المغول وفيها دارت الدائرة على المغول وانهزموا هزيمة نكراء . ومع ذلك فان الحدود الشمالية لبلاد الشام لم تسلم من اعتداءات المغول المتكررة . حتى اذا كان عام ٦٧٢ (١٢٧٣) خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر الى عسقلان ومن هناك أصدر أمره باستدعاء الفرسان المصريين والعرب والتأهب لملاقاة المغول فى شمال الشام (١) ثم أصدر أمرا ثانيا بعبور جماعات مسلحة من الجيش المملوكى ومن قبائل العرب الحدود الشمالية للشام ومهاجمة البلاد المتاخمة بهدف تعقب المعتدين ومنعهم من معاودة الهجوم على الشام . وهكذا انتقل العرب من موقف الدفاع الى الهجوم . كذلك كان للعرب دور رئيسى فى الحملات الحربية ضد قبائل البجه فى جنوب مصر . ففى احدى هذه الحملات الحربية فى الجنوب فى عام ٦٧٦ (١٢٨٩) بلغ عدد المشتركين أربعين ألفا من عرب الوجهين القبلى والبحرى (٢) .

وهكذا تبين لنا أهمية الدور الذى لعبه العرب فى تارخ مصر السياسى والاجتماعى والحربى فى مصر فى العصريين الايوبى والمملوكى .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٦١٠

(٢) المقريزى السلوك ، حـ١ ق ٣ ، ص ٧٤٦

وقد رأيت أن أقسم بحثى هذا الى أربعة أبواب أفردت الباب الأول لدراسة انتشار العرب فى مصر وأهم أعمالهم . ويتضمن هذا الباب فصلين عالجت فى أولهما التقسيم الاقليمى لمصر ومناطق تجمعات القبائل العربية فى هذه الأقاليم ، فأشرت الى الأسباب السياسية التى أدت الى ظهور تلك القبائل العربية على مسرح السياسة المصرية وأهمية الدور الذى لعبته هذه القبائل فى التمهيد لقيام الدولة الأيوبية فى مصر وقد أوضحت كيف أن هذه القبائل العربية ساندت بنى أيوب نتيجة لموقفهم الصريح . من الصراع ضد صليبى الساحل كما أوضحت كيف أن هذا التعاون الأيوبى العربى ظل مستمرا مع بنى أيوب طول مدة حكمهم فى مصر فلما قامت الدولة المملوكية اتخذت القبائل العربية موقف المعارضة الشديدة ضد الحكم المملوكى ووقع القتال بين الفريقين ، وكان من نتائجه أمران:

الأول :

ظهور تغير واضح المعالم فى خريطة توزيع القبائل العربية فى مصر

الثاني :

تلفيق الاتهامات ضدهم .

وتناولت فى الفصل الثانى من هذا الباب بالدراسة موضوع اندماج العرب بأهل مصر وقارنت بين ظروف الاستقرار العربى

وبطء الحركة الاندماجية فى العصر الأيوبى ثم شدتها بعد ذلك عقب ظهور الاضطرابات فى العصر المملوكى .

أما الباب الثانى : وعنوانه القبائل العربية فى خدمة الجيش الأيوبى والمملوكى فقد خصصته لدراسة الدور الذى لعبته القبائل العربية فى مقاومة الأخطار التى كانت تهدد مصر من الشمال والشرق والجنوب ، فقد قسمت هذا الباب الى فصلين خصصت الفصل الأول منهما لدراسة دور العرب الدفاعى عن مصر زمن الأيوبيين . أما الثانى فقد خصصته لدراسة دور العرب الحربى فى الدفاع عن مصر زمن المماليك . وقد أوضحت فى هذا الباب كيف أن قوة الدفاع العربية ممثلة فى الجيش المملوكى شاركت فى جميع المعارك الحربية الكبرى التى دارت على أرض مصر والشام لصد هجمات المغول من الشرق والصليبين من الشمال . كما أوضحت دور القبائل العربية الفعال فى الدفاع عن حدود مصر الجنوبية ضد غارات البجة . ومن الجدير بالذكر أن بعض المعارك الحربية الكبرى التى لم يشارك فيها فرسان العرب فى مصر انتهت بهزيمة جيوش المماليك ، ومن أمثلة ذلك معركة الريدانية فبعد أن أمر السلطان طومان باى مشايخ العرب باستدعاء جماعة من أشجع فرسان العرب استعدادا للقتال مع الجيش المملوكى ضد العثمانيين ومن بينها قبائل عزالة ومحارب وهوارة[1] وعلى الرغم من وصول

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ص ١٠٦٨

هذه القبائل بالفعل الى الرميلة للاستعراض فان السلطان عاد وعدل عن ذلك وأمر بتسريحهم ، وكان ذلك نزولا على رأى رآه بعض مماليك السلطان (١) وسجلت فى هذا الباب الدور المؤثر لمطوعة العرب فى حماية الثغور مثل دمياط والمنصورة (ومن أمثلة ذلك عرب بنى كنانة فى ثغر دمياط الذين اشتهروا بالشجاعة (٢) كذلك سجلت فى هذا الباب دور الفرق الاستطلاعية للكشف عن عورات العدو .

ومن أمثلة ذلك أن الظاهر بيبرس كان يرسل الجنود وفرسان العرب لتتبع أخبار جيش المغول فى شمال الشام ، وتمكن بفضلهم من دحر العدو وهزيمته (٣) وكان عدد المطوعة من العرب فى بعض المعارك يفوق عدد الجنود المماليك . ففى احدى معارك السلطان الأشرف خليل عكا فى عام ١٢٩١ م كان عدد المطوعة يفوق عدد من كان فى الخدمة من عسكر المماليك (٤) أما الباب الثالث : فقد خصصته لدراسة الثورات التى قام بها العرب فى العصرين الايوبى

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٧٠

(٢) اسماعيل أبو الفدا ، تاريخ أبى الفدا ، حـ٣ ص ١٨٧ – المقريزى ، – السلوك – حـ ١ ق٢ ، ص ٣٣٣ – المقريزى ، الخطط ، حـ ١ ، ص ٣٥٤ – ابن اياس ، بدائع الزهور ،حـ١ ص ١ ، ص ٦٩ ، ٧٠

(٣) جمال الدين أبى المحاسن ، النجوم الزاهرة ، حـ٧ ، ١٥٩

(٤) نفس المصدر ، حـ٨ ، ص ٧

والمملوكى وفى الفصل الأول من هذا الباب أوضحت أن هذه الثورات ترجع الى عاملين أحدهما سياسى والآخر اقتصادى .

الأول :

أن العرب رأوا أنهم أحق بالحكم من المماليك لأن المماليك غرباء عن البلاد وأرقاء مجلوبين . بينما العرب أحرار وهم بالاضافة الى ذلك أحفاد العرب الفاتحين . وأنهم حملوا السلاح مع بنى أيوب تماما كما فعل المماليك .

الثانى :

تعرض البلاد لأزمات اقتصادية عنيفة .

وماكان العرب يعانيه من سوء معاملة الولاة وحكام الأقاليم وقيام هؤلاء بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم . وقد بينت كيف أن نتيجة هذا الصراع العربى المملوكى كانت لصالح المصريين اذ أن العرب لجأوا اما الى الهجرة خارج مصر أو الاندماج فى الشعب . وكان ذلك آخر حلقة فى سلسلة تعريب البلاد .

أما الفصل الثانى :

فقد أفردته لدراسة ثورات العرب فى مصر فى بداية العصر العثمانى ، فتحدثت عن ثورة عرب السوالم ودور العرب بين التأييد والمعارضة لنائب السلطان ونتائج ذلك .

أما الباب الرابع :

وهو باب قصير لايعدو فصلا واحدا فقد أفردته لدراسة النظام الحربى والاجتماعى عند القبائل العربية فى مصر فضمنته نظام التحاق العرب بالجيش وطرق القتال عند العرب وأنواع الأسلحة التى استخدموها فى معاركهم ضد أعدائهم ثم ذكرت دورهم الاجتماعى من حيث قيامهم بتعمير الأراضى عن طريق الزراعة والبناء ، ومعاونتهم للأهالى فى الأزمات الاقتصادية ودورهم فى تنمية الثروة الحيوانية واشتغالهم بالتجارة . كما تحدثت عن أزيائهم واختتمت دراستى بالحديث عن نشاطهم الثقافى . وقد اعتمدت فى دراستى على عدد كبير من المصادر العربية ومن الجدير بالذكر أن هناك اثنان من المؤرخين العرب دونوا للقبائل العربية هما المقريزى وابن اياس . وقد عاش كل من هذين المؤرخين فى العصر المملوكى ومارس الوظائف الحكومية [1] وأهم مؤلفات المقريزى ٨٤٦ هـ أ: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك وهو أهم المصادر لعصر دولتى الأيوبيين والمماليك [2] وقد ضمنه المقريزى تحركات القبائل العربية ودورها فى الدفاع عن البلاد . وتعرض فيه لذكر ثوراتها . فهو يذكر الأحداث التى عاشتها القبائل العربية وصراعاتها ضد سلاطين المماليك وينفرد هذا الكتاب بذكر تفاصيل لبعض

---

(١) د. محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ط القاهرة عام ١٩٥٤ ، ص٨ ، ٥٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢

الأحداث لم يرد ذكرها فى كتاب آخر غيره وخاصة عن قبائل العرب الا أنه دون الاحداث على طريقة المنهج الحولى .

ب:- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . وهذا الكتاب يعد فخر مؤلفات المقريزى ، فقد وصف فيه الفسطاط والقاهرة وتعرض لذكر القبائل العربية وأماكن تواجدها وقد أجمل فى هذا الكتاب ماشرحه تفصيلا فى كتبه المتقدمة . الا أنه على الرغم من ذلك فان هذا الكتاب يتميز بأنه يحتوى على ذكر أحداث لم يرد ذكرها فى كتب المقريزى الاخرى ومن أمثلة ذلك ذكر تفاصيل انتصار المصريين فى المنصورة على الصليبيين فى حملتهم على دمياط زمن الصالح نجم الدين ووقوع لويس التاسع ملك فرنسا فى أسر المسلمين(١) وأيضا فى ذكر نسب الأيوبيين . فان المقريزى اكتفى بذكر تفاصيل هذين الموضوعين فى كتاب الخطط ولم يشر اليهما فى كتبه المتقدمة (٢) .

جـ :- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب . وهو أهم المصادر الرئيسية لتاريخ الهجرة العربية فى العصر الأيوبى فى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٥١

(٢) نفس المصدر - د/ محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ط القاهرة عام ١٩٥٤ ، ص١١

مصر [1] وقد تناول المقريزى أيضا فى هذا الكتاب تحركات القبائل فى العصرين الأيوبى والمملوكى وأنسابها وذكر فيه أسماء هذه القبائل وبطونها ومانشأ بينها من علاقات التحالف أو النسب .

وقد بدأ المقريزى كتابه البيان والاعراب بذكر الهدف من تأليفه وهو الحفاظ على أنساب القبائل العربية التى بقيت بمصر بعد أن أباد الدهر العرب الذين شهدوا فتح مصر [2]

وأما مؤلفات ابن اياس ت ٩٣١ هـ فاهمها :-

كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور . وقد أورد فيه ابن اياس أخبار هامة تشير الى دور القبائل العربية فى الدفاع عن مصر وكذلك ثوراتهم ضد الحكام .

ويعد ابن اياس المؤرخ الوحيد تقريبا الذى كتب عن الفترة المتأخرة من عصر دولة المماليك الجراكسة . [3] كان ابن اياس يدون الحوادث شهرا بعد شهر ثم عدل عن ذلك وصار يكتبها يوما بعد يوم مما لم يتيسر لغيره من المؤرخين . ووصف فيه أحوال مصر الداخلية فكتب عن الحكام والسلاطين ووصف طغيان المماليك وماصحب ذلك من ثورات داخلية . ووصف الحياة العامة للشعب وكان له اهتمام بقبائل العرب وذكر أحوالهم وتعليل أسباب ثوراتهم

---

(١) د. عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، ص ١٠٦ ، ط القاهرة عام ١٩٤٦

(٢) المقريزى ، البيان ، ص ٢

(٣) د. محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر ، ط القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٣

أحيانا ، بما يدل على دقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق وصرامته فى الحكم على الأحداث . وقد اتسم اسلوبه بالصراحة والصدق . وبالاضافة الى كل من المقريزى وابن اياس اعتمدت على عدد من المصادر العربية أذكر من أهمها :-

١- ابن الأثير ت٦٣٠هـ :

الكامل فى التاريخ . وقد أورد به أحداث المعارك البحرية فى الثغور المصرية والشامية ودور عرب مصر فى الصراع بين شاور والصليبيين من ناحية وأسد الدين من ناحية أخرى وتنحصر أهمية هذا المصدر بالنسبة لموضوع الرسالة فى أن مؤلفه عاش فى العصر الأيوبى وشاهد أخبارها بنفسه . ويعد ابن الأثير حجة فيما دون بغير منازع [1] .

٢- القلقشندى ت٨٢١هـ :-

صبح الأعشى فى صناعة الانشا ويتضمن وصفا لأقاليم مصر وتوزيعا للقبائل العربية والرسائل والمنشورات الموجهة من السلطان الى الولاة من حكام الأقاليم فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وترجع أهمية هذا المصدر الى ماأورده من الرسائل والمنشورات التى لم يرد ذكرها فى مصادر أخرى .

---

(١) حافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٧ ، ط القاهرة ١٩٤٩

٣- أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ت ٨٧٥هـ:-

ويشمل كتابة النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة على تراجم لحياة ملوك مصر وسلاطينها والأحداث التى وقعت لهم مع العرب . وله أيضا كتاب المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى وهو تراجم لحياة بعض العلماء البارزين فى المجتمع المصرى .

والى جانب المصادر المذكورة اعتمدت على عدد من المصادر المخطوطة أهمها :-

كتاب قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندى أورد به بعض اضافات لم ترد فى كتاب نهاية الارب بشىء من التفصيل .

يلى ذلك لمحمد بن منكلى المصرى ، كتاب التدبيرات السلطانية فى الفنون الحربية :-

وقد ذكر المؤلف - وكان نقيبا للجيش فى زمن السلطان الاشرف شعبان - ماكان يقوم به السلطان صلاح الدين والسلطان الظاهر بيبرس فى ظروف الحرب من بث العيون لرصد تحركات الأعداء وحث الجند على التفانى فى سبيل الدفاع عن البلاد ومهاجمة العدو ودحره وحثه على نكران الذات . ومايجب على الجندى من الصمت والحذر من مباغتة العدو وحيل التخفى عن العيون . مع سرد لوصف نماذج من الجند المقاتلين مما يكشف عن مدى التقدم الكبير الذى كانت عليه الجيوش العربية فى ذلك الحين .

وكتاب نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين للشيخ مرعى بن يوسف بن بكر المقدسى :-

وقد ذكر فيه مؤلفه صورا من حياة حكام مصر من السلاطين ومآثرهم وماوقع منهم من أخطاء . وقد أشاد بالدور الذى قام به السلطان صلاح الدين ضد الصليبيين بعد أن استقرت له الأمور فى مصر . قال " ثم تجردت همته رحمه الله تعالى لغزو الأفرنج ويسر الله له فتح البلاد التى كانت بأيديهم ففتح الشام وبيت المقدس" . وذكر من مآثر العزيز عثمان أنه جاء اليه رجل يسعى فى قضاء الاسكندرية ودفع له أربعين ألف دينار فردها عليه و لم يقبلها ، وقال والله لاأبيع دماء المسلمين وأموالهم بملء الأرض [1]

ومما ذكره عن مساوئ السلطان قنصوه الغورى أنه كان اذا مات أحد أخذ ماله كله وترك ورثته فقراء . كما أنه اتخذ لنفسه مماليك كثيرة فظلموا الناس وأظهروا الفساد وأخروا العباد . [2] وكتاب المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة لمحمد بن على القادرى ويعالج هذا المخطوط العلاقة بين الخليفة - والسلطان الذى استولى

---

(١) الشيخ مرعى بن يوسف ، نزهه الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط رقم ١٤١٦ ج ، م ، الاسكندرية ، ص٤٤، ٤٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٦

على السلطة قهرا وذكر كيف أن ذلك يرجع كما زعم هؤلاء الحكام الى أنهم يحكمون نيابة عن الخليفة [1].

وهذا من أسباب احياء الخلافة العباسية فى مصر فى العصر المملوكى [2] ويلى ذلك فى قائمة المصادر الرئيسية مجموعة المصادر الثانوية تضمنت بعض الحقائق التاريخية الهامة التى استندت عليها فى اعداد الرسالة نخص بالذكر منها " صبح الاعشى للقلقشندى " وزبدة كشف الممالك " لابن شاهين الظاهرى "وحسن المحاضرة " للسيوطى ، وبعض كتب الطبقات كوفيات الاعيان لابن خلكان ، والطبقات الكبرى للشعرانى .

وبالاضافة الى هذه القائمة من المصادر اعتمدت على عدد كبير من المراجع الحديثة من أهمها الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ، وقبائل العرب لأحمد لطفى السيد ومعجم قبائل العرب لعمر كحالة.

---

(١) محمد بن على القادرى ، المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة م. اسكندرية مخطوط رقم ٣٨١٦ ج

(٢) ذلك أن الحكم المملوكى قوبل من أول عهده بمعارضة شديدة من المصريين والعرب فلما تولى الظاهر بيبرس عرش السلطنة سعى حاهدا الى اكتساب صفة الشرعية لنفسه بأن استقبل الخليفة العباسى الذى فر من بغداد بعد سقوطها فى يد التتار والمغول وجمع له رجال الدين والدولة عام ٦٥٩هـ (١٢٦١ م) وأثبتوا نسبه الشريف ثم بايعوه على الخلافة فى نفس العام . ثم قام الخليفة العباسى بدوره بتقليد الظاهر بيبرس خليفة السلطنة . وقد ظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر بعد ذلك - وكانت اسمية - واستمرت حتى نهاية العصر المملوكى فى مصر . (ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص١٠٩)

ولايفوتنى فى ختام مقدمتى أن أسجل كلمة شكر ووفاء وعرفان لأستاذى المشرف الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم على مابذل من جهد فى الاشراف على اعداد هذه الرسالة وماقدمه لى من عون وتوجيه كان له أعظم الأثر فى اتمام هذا البحث .

"الباب الأول"

****

(انتشار العرب فى مصر وأهم أعمالهم)

الفصـــــل الأول

(القبائل العربية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى)

١- أقاليم مصر في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية .

٢- توزيع القبائل العربية فى مصر فى عصر الدولة الأيوبية .

أ- فى الصعيــــــد   ب - فى الوجه البحرى

٣- القبائل العربية وتوزيعها فى عصر المماليك .

أ- فى الصعيــــــد   ب - فى الوجه البحرى.

****

أقاليم مصر: في عصر دولتي الأيوبيين والمماليك

كانت مصر قبل العصر الأيوبي تنقسم الى عدة أقاليم ولكل اقليم منها وال يعين من قبل السلطان وكان أكبر هذه الأقاليم وأهمها سبعة: ثلاثة منها بالوجه القبلي هي: قوص والبهنسا والاشمونين وأربعة بالوجه البحرى هي: الشرقية - والغربية - والمنوفية - والبحيرة.[1]

وقد لعبت ولاة هذه الأقاليم دورا هاما في العصر الفاطمي ففي نهاية هذا العصر اشتد التنافس على منصب الوزارة وساعد على ذلك صغر سن الخلفاء أمثال الظافر بأمر الله والفائز بنصر الله والعاضد لدين الله. وكثر الطامعون من ولاة الأقاليم البارزين أمثال: رضوان بن ولخشي وكان واليا على الغربية[2] وعلى بن السلار والى

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ٤، ص٥، ١٤، ٢٦، ٢٧، ٦٦، ٦٧، ط القاهرة ١٩٢٠.

(٢) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١، ص ٣٥٧، جـ١، ط بغداد.

البحيرة والاسكندرية[1] والصالح طلائع بن رزيك والى الاشمونين،[2] وشاور الى قوص [3] وغيرهم .

كان تاج الدولة بهرام الأرمنى وزيرا للخليفة الحافظ لدين الله وقد ولى الوزارة اثر مصرع الحسن بن الحافظ عام ٥٢٩ (١٣٤١) فعمل على الاكثار من أهل جنسه من الأرمن القادمين من تل باشر فى وظائف الدولة حتى أسخط عليه العامة والخاصة . واستنجد المصريون برضوان بن ولخشى صاحب الباب فتمكن رضوان من حشد جمع كبير من عرب الغربية واتجه بهم الى القاهرة واستولى على الوزارة فى ٥٣١ - ٥٣٣ (١١٣٦ - ١١٣٨) . [4] ثم أخذ رضوان بن ولخشى - وكان سنى المذهب - فى شغل مناصب الدولة بمعارفه واسقط المكوس مما أوغر صدر الخليفة منه وتغير له ، وانتهى الأمر بخروج رضوان من الوزارة سنة ٥٣٣ [5] وفى عهد الخليفة الظافر بأمر الله ولى الوزارة سليم بن مصال عام ٥٤٤ (١١٤٩) ولم يلبث أن ثار على بن السلار والى البحيرة ضده

---

(١) ابن تغريبردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١ ، ص ٢٩٥ ط القاهرة ١٩٣٨

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٣٥٧

(٣) ابن خلدون ، العبر جـ٤ ، ص ٧٧ ، ط القاهرة ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٤٥ ، ٢٥٤ .

(٤) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ص٣٠٦ ط القاهرة ، ابن خلدون ، جـ٤ ص ٧٢ — المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٧ ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٦١ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ن جـ٤ ، ص ٧٢ - المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ١٧١

وأرغمه على الخروج من القاهرة فدخلها ابن السلار وتقلد الوزارة وتلقب بالعادل وكان سنيا شافعي المذهب - [1] ولعل ذلك كان سببا في عدم رضاء الخليفة عنه على الرغم من أنه يبذل غاية جهده في الاخلاص له ومباشرة عمله بجد .

وظل ابن السلار يباشر أعمال وظيفته حتى قتله نصر بن عباس بن باديس [2] بايعاز من الخليفة الظافر وأسندت الوزارة الى عباس بن باديس [3] الذى كان واليا على الغربية [4] قبل ان يلى منصب الوزارة ولما ساءت سياسة عباس وانتشرت الشائعات حوله واتهم بقتل الخليفة الظافر هو وولده نصر سنة ٥٤٩ [5] بعثت نساء القصر بشعورهن الى والى الاشمونين والبهنسا طلائع بن رزيك واستنجدت به ضد عباس وولده نصر .خرج ابن رزيك من الصعيد ومعه جمع عظيم من العرب واتجه بهم الى القاهرة [6] دخلها واستولى على

---

(١) ابن خلكان نوفيات العيان وأنباء ابناء الزمان ، جـ١ ، ص ٥٢٧ ، ط القاهرة .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٧٤ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٢٩٥

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٨٨ (٥ - نفس المصدر ، ص ٢٩٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٩٥ .

(٤) ابن القطان فى نظم الجمان ، ص ٢٣٧ ، تحقيق الدكتور محمود على مكي ، الرباط .

(٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، ص ٤٤ ط القاهرة - اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢١٧ .

(٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ١ ص ٣٢٨ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٧٤ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٥٣

الوزارة . ٥٤٩ ، ٥٥٦ (١١٥٤ - ١١٦٣). ثم استبد ابن رزيك بالأمر كله لنفسه وحجر على العاضد مما أوغر صدور من بالقصر من حاشية الخليفة . وانتهى الأمر - بمقتل طلائع ابن رزيك عام ٥٥٦ (١١٦٣) بايعاز من السيدة ست القصور أخت الظافر فاستدعى العاضد رزيك بن طلائع وولاه الوزارة عوضا عن أبيه [٦] ولقبه بالعادل ثم حسنت له بطانته صرف شاور بن مجير السعدى عن ولاية قوص ، فأرسل اليه كتابا بعزله من منصبه فعز ذلك على شاور وعزم على خلع العادل . وجمع لذلك حشدا كبيرا من العرب ودخل بهم القاهرة واستولى على الوزارة . ٥٥٨ - ٥٦٤ (١١٦٣ - ١١٦٩)[١] ولم يكن شاور فى الحكم بأحسن حال من سابقيه ، اذ أساء السيرة فى الرعية وتطور الصراع بين الوزراء بغية الاحتفاظ بمنصب الوزارة الى الاستعانة بالقوى الخارجية فاضطر الخليفة العاضد فى سبيل التخلص من جور وعسف الوزير شاور الى الاستعانة بنور الدين زنكى . فبعث اليه هذا الأخير بقائد جيشه أسد الدين شيركوه الذى تمكن من عزل شاور من الوزارة . وانتهى الأمر بمقتل شاور وتولى أسد الدين الوزارة . ثم خلفه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين [٢] .

---

(١) ابن الأثير - الكامل ، حـ١١ ، ص ١٢٩ - ابن خلكان - وفيات الأعيان - حـ١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، العبر ج٤ ، ص ٧٧ - المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، حـ٣ ، ص ٢٥٧ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، حـ١ ص ١٣٠ ، ١٥٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ١١ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ط القاهرة . الشيخ مرعى بن يوسف الكرمى ، نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، رقم ١٤١٦ مخطوط بدون تاريخ م الاسكندرية .

وفي عصر الدولة الأيوبية :-

ظل التقسيم الاقليمي لمصر على حاله فلم يطرأ عليه أى تغيير . فلما قامت دولة المماليك فصلت أسوان عن ولاية قوص وأصبحت الولاية الرابعة للوجه القبلي . غير أنه ترتب على الصراع القائم بين

العرب والمماليك في الصعيد في أواخر العصر المملوكي أن تقلص العمران وضعف شأن هذه البلاد . فلم يبق الا وسوم تبذل الولاة الجهد في محوها . [1] باستثناء ولاية أسوان (محافظة أسوان حاليا) التي استحدثت في العصر المملوكي . فمدينة قوص التي كانت أكبر حواضر الصعيد أصبحت بحوه مدينة صغيرة ثم أجريت تعديلات في الولايات الصغرى بالوجهين القبلي والبحرى وأغلبها استحدثت في الروك الناصري [2] فاسند بعضها الى موظفين أقل رتبة من سابقيهم . ومن أمثلة ذلك :

أ- ولاية الجيزة التي أصبح واليها برتبة أمير عشرة .

وكان قبل ذلك أمير طبلخاناه .

---

(1) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٠٧

(2) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، حـ٩ ، ص ٣٩ ، ٤٠ بالملحق .

ب- منفلوط

" وقد عين عليها وال برتبة "أمير عشرين" وهذه الرتبة تتقارب مع رتبة أمير عشرة اذ أن كل رتبة دون الأربعين تعد فى العشرات [1] وكان واليها قبل ذلك أمير طبلخاناه .

جـ - اطفيح .

وكان واليها برتبة أمير عشرة [2] .

وضمت أخيم الى قوص وأصبحت ولاية واحدة .

أما أسيوط فقد كانت مقرا لوالى الولاة وبذلك فلم يعين لها وال وكان والى الفيوم برتبة أمير طبلخاناة ثم استقرت كشفا [3] .

وفى الوجه البحرى : عين وال برتبة أمير عشرة على كل من الولايات الصغرى الآتية :-

قليوب - وأشموم - طناح - ودمياط - وقطيا [4] .

وانتهى التقسيم الاقليمى لمصر زمن خليل الظاهرى الى (١٤) اقليما منها بالوجه القبلى سبعة أقاليم وبالوجه البحرى سبعة هى:[5].

---

(٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٢٧ .

(١) القلقشندى صبح العشى ، حـ ٤ ، ص ٤٣

(٢) نفس المصدر حـ ٤ ص ٢٦

(٣) نفس المصدر ص ٢٧

(٤) خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ص ٣٢ ، ٣٥

الوجه القبلى : الجيزة - الأطفيحية - الفيوم - البهنساوية - الأشمونين - السيوطية - القوصية .

الوجه البحرى : القليوبية - الشرقية - الدقهلية - دمياط - الغربية - المنوفية - البحيرة .

توزيع القبائل العربية في مصر في عصر الدولة الأيوبية :-

أولا: في الوجه القبلى (الصعيد)

أ - قوص - استقر في قوص في بداية عصر الدولة الأيوبية عدد من القبائل العربية هي :- ١- بلى ٢- جهينة ٣- وبنو هلال ٤- وبنو كنز الدولة

١- بلى :- هم بلى بن عمر بن الحاف بن قضاعة من القحطانية سكنوا الصعيد وكان منهم الأمراء (المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٢٩ ط القاهرة سنة ١٩٦١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ١ ، ص ٣١٦ ، القلقشندى ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، ميكروفيلم رقم ٣٨١) .

٢- جهينة :- وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن لحاف بن قضاعة من القحطانية . وكانت بلى وجهينة متجاورتين ثم حدثت بينهما الشحناء و لم يلبث أن عاد بينهما الوئام وكانت جهينة أكثر عرب الصعيد (المقريزى ، - البيان والاعراب ، ص ٣٢ ، القلقشندى في نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص ٢٢١ ، ط القاهرة ، القلقشندى ، قلائد الجمان رقم ٣٨١) .

٣- بنو هلال :- هم بنو هلال بن عامر من قيس عيلان من العدنانية (المقريزى البيان والاعراب ص ٢٨) . كان قدوم أول جماعة منهم الى مصر فى ولاية الوليد بن رفاعة فى عام ١٠٩ هـ. يذكر الكندى أن عبيد الله بن الحبحاب وفد على الشام - فسأل أن ينقل اليها أبياتا من قيس فأذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط . ففرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه وأمرهم بالزرع وتربية الخيول . وكان من بينهم " مائة أهل بيت من بنى عامر " (محمد بن يوسف الكندى ، الولاة والقضاه ، ص ٧٦ ، تحقيق رفن حست ، ط بيروت ١٩٠٨) ، بنو هلال من القبائل التى وفدت الى مصر ضمن من قدم من بنى عامر " الدكتور عبد الله خورشيد البرى القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ص ١١١ ، ط القاهرة ١٩٦٧) فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله وبأمر منه هاجرت جماعات كبيرة من بنى هلال وسليم من الشام الى مصر وأنزلهم فى الصعيد بالعدوة الشرقية من النيل وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها الى عيذاب ولكنهم أحدثوا شغبا وأضرارا بالبلاد فأغراهم الفاطميون فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، بالهجرة الى بلاد المغرب لمحاربة الصنهاجيين العصاه لاخضاعهم فهاجروا من مصر الا قليلا منهم (العبر ، جـ ٦ ، ص١٤ ، الاستقصا ، جـ١ ص١٦٧ ط القاهرة ١٨٨٣ ، البيان والاعراب ص٢٨ ، ١٢٧ ، ط القاهرة ١٩٦١ ، معجم كحالة جـ ٣

ص١٢٢١ ، ط بيروت ١٩٦٨ ، المغرب الكبير ص٦٦٦ ، ط القاهرة ٦٦) لكن بنى كنز الدولة [1] لم يلبثوا أن انسحبوا من قوص الى السودان بعد مقتل زعيمهم كنز الدولة أثناء صراعه مع صلاح الدين . وتفصيل ذلك أن صلاح الدين قام بمنح اقطاعات من أرض الصعيد الى بعض أمراء دولته فعارض كنز الدولة ذلك التقسيم ورفض الاذعان للنظام الجديد . ثم تزعم كنز الدولة حركة العصيان ضد السلطان مستندا على جماعة السودانيين فى مصر ، ولم يلبث أن اشتبك هو وحلفاؤه مع الأيوبيين فقتلوا عدة من أمراء الدولة وشرعوا فى الاتجاه الى – القاهرة مستهدفين اسقاط الدولة الأيوبية . لم يجد صلاح الدين بدا من مقاتلة كنز الدولة فسير لهذا الهدف جيشا أوقع به الهزيمة وانتهت المعارك بمقتل كنز الدولة وانسحاب بنى الكنز من الصعيد جنوبا الى السودان . [2]

أما القبائل العربية الأخرى المستقرة فى قوص ، وأعنى بها بلى وجهينة وبنى هلال وهى قبائل يمنية ، فيبدو أنها لم تنضم الى قبيلة بنى الكنز وهى قيسية من ربيعة – فى صراعها ضد الدولة الأيوبية اذ

---

(١) بنو الكنز : هم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وبنو الكنز هؤلاء كان لهم دور فى حماية الحدود الجنوبية لمصر قبل العصر الأيوبى . (البيان والاعراب – ص ٤٢) .

(١) أبو الفدا ، تاريخ أبو الفدا جـ٣ – ص ١٥٩ ، ابن خلدون ، العبر جـ٥ ، ص ٢٨٨ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص ٥٧ جـ١ ق١ ، ط القاهرة .

أن هجرة تلك القبائل العربية (بلى وجهينة وبنى هلال لم تتم الا فى عصر لاحق [1]

والظاهر أن البقية من الصراع بين العصبتين اليمنية والمغربية الذى بلغ ذروته فى العصر الأموى كانت مازال تعكر صفو الصلات بين هاتين العصبيتين ولعل ذلك كان سببا فى أن - القبائل اليمنية لم تأخذ جانبا فى الصراع بين بنى الكنز وبين الأيوبيين .

ب- الأشمونين :-

استقر بالأشمونين في الصعيد الأوسط عدد من القبائل العربية هم الجعافرة والطليحيون والقرشيون وكانت تجمع بين هذه القبائل الثلاث صلة نسب وقرابة ربطت بينها فكانت يدا واحدة . وقد أجمعت هذه القبائل الثلاث على تأييد الأسرة الأيوبية فحاربت مع بنى أيوب في مصر ضد الصليبيين [2] .

وفيما يلى توزيع للمناطق التي نزلتها هذه القبائل فى العصر الأيوبى :

١- الجعافرة :-

والجعافرة الذين سكنوا الأشمونين هم :

---

(١) أحمد لطفى السيد ، قبائل العرب فى مصر ، ص ٤٩ ، ط القاهرة .

(٢) أبو شامة ، الروضتين فى اخبار الدولتين ص ١٦٨ ، جـ١ ، ط القاهرة .

بنو جعفر بن أبى طالب وقد نزلوا المنطقة الواقعة مابين منفلوط وسمالوط [1] بنو جعفر الصادق . وهم بنو اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ويعرفون أيضا بأولاد الشريف [2] . ويذكر القلقشندى أن للمنطقة الممتدة من منفلوط الى سمالوط كانت منزلا لبنى جعفر الصادق [3] فى حين - يشير المقريزى الى أنهم سكنوا أسيوط [4] .

والظاهر أن اندماجا بين القبيلتين تم فى نهاية العصر الأيوبى بحيث أصبح بنو جعفر بن أبى طالب وبنو جعفر الصادق يعرفون جميعا باسم الجعافرة وذلك بعد أن سيطر الأمير حصن الدين ثعلب على بلاد الصعيد وأصبح أميرا للجعافرة . وقد احتفظ الجعافرة - بالزعامة على عرب مصر طوال العصر الأيوبى [5]

---

(1) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٣٩ .

(2) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

(3) القلقشندى ، نهاية الأرب ، ص ١٢٤ .

(4) المقريزى ، البيان والاعراب ص ٤٠ .

(5) البيان والاعراب ، ص ٣٨ - صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٦٨ - أحمد لطفى السيد قبائل

٢- الطليحيون :

ويتألفون من بنى طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبـى بكـر الصديق وقد سكنوا بالبرحبين وطحا بـالاشمونين [١] بنـى طلخـا بـن عمر من بنى تميم بن مرة . وقد سكنوا كذلـك بالـبرحيين وطحـا . وهم أيضا أقارب بنى طلحة بن عبد الله [٢] وأطلق عليهم جميعا اسـم بنى طلحة [٣] وكان بنو طلحة أو الطليحيون كما يسميهم أبو شـامة - يدا واحدة مع بنى الزبير احدى بطون قريش والجعافرة . [٤]

٣- القرشيون :-

حارب القرشيون مع أسرة بنى أيوب فى مصر ضد الصليبيين[٥]- والقريشيون الذين أشار اليهم أبو شامة هم : بنو زهـرة وبنـو مخـزوم وبنو أمية . وبنو بدر من الزبيريين . وكانت منازلهم بالأشمونين[٦]

---

(١) البيان والاعراب ، ص ٤٠ - القلقشندى ، نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، ص ٣٢٤

(٢) نهاية الارب فى معرفة أنسابت العرب ، ص ٣٩٢ .

(٣) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، جـ١ ، ص ٣٥٢

(٤) البيان والاعراب ، ص ٣٥

(٥) الروضتين ، جـ١ ، ص ١٦٨

(٦) البيان والاعراب ، ص ٤٠ - صبـح الاعشى ، جـ١ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٥ ، نهاية الارب س ٨٥ .

جـ- البهنسا :-

وتتألف القبائل العربية الضاربة فى البهنسا من بنى الزبير وبنى مصلح وبنى رمضان وبنى شيبة ويعرفون بجماعة نهار وهم قرشيون[1] وكانت الرئاسة فى العصر الأيوبى فى البهنسا فى بيت من لواته المتعربين هما أولاد زعازع وأولاد قريش [2].

ثانيا :- فى الوجه البحرى :

أ - الشرقية :

من الحقائق التاريخية الثابتة أن أولى القبائل العربية التى نزلت بالشرقية هى :-

– حزام اليمنية ويقال أنها مضرية ثم نسبت الىقبائل سبأ الجنوبية بعد هجرتها الى اليمن . [3] وقد نزلت جذام بادئ ذى بدء

---

(١) البيان والاعراب ، ص ٤٠ ، ٤٣ – صبح الاعشى ، جـ١ ، ص ٣٥٥

(٢) البيان والاعراب ، ص ٥٥ – صبح الاعشى جـ٤ ، ص٦٧

أسرته وهوايته : قبائل مغربية جاءت مع جيوش الفاطميين الى مصر واستوطنتها واستقرت فى المنطقة الواقعة بين مصر والاسكندرية واختلطت بقبائل العرب وخاصة القيسية وضعت نفسها اليهم (ابن خلدون العبر ، جـ٦ ، ص ٦ ، – أحمد لطفى السيد ، قبائل العرب فى مصر ص ٥٣).

(٣) زعم نسابه مصر ان جذاما مضرية وان نسبة جذام الى اليمن انما جاءت بعد هجرة جذام أرض اليمن (القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ .

بالفسطاط ثم استقرت بأرض الحوف في [1] عصر الدولـة الأيوبيـة . وفي عام ٥٦٥ (١١٦٩) أصدر صلاح الدين أمره الى عـرب جـذام بالشـرقية بالانتقـال الى البحـيرة وذلـك لعـدم رضائـه عـن اشـتغالهم بالتجارة مع الفرنج . ومـع ذلـك فـان جماعـة منهـم ظلـت تسـكن بالشرقية بدليل أن حملـة عسـكرية وجهـت الى الشـرقية . فـى عـام ٥٨٠ (١١٨٤) لاخماد فتنة وقعت بين عرب جزام [2] وبدليل وقوع اشتباك بين عرب – جزام وثعلبة فـى عـام ٩٣٦ (١٢٣٨) أدت الى تجريد حملة لاعادة الأمور الى نصابها . وهكذا تبـين لنـا أن جزامـا ظلت تسكن الجانب الغربي من منطقة الشـرقية بـالرغم مـن احـلال ثعلبة كلها بأمر من السلطان صلاح الدين . [3]

٢- ثعلبة وجرم :

بنو ثعلب بطـن مـن طـيء مـن القحطانيـة فينسـبون الى ثعلبـة بـن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء من القحطانية . [4] أمـا بنـو حـرم وينسـبون الى ثعلبـة بـن عمـرو بـن الغـوث بـن طيـئ مـن القحطانية ثم قدموا الى مصر في عصر الدولـة الايوبيـة ونزلـوا بـأمر

(١) الكندي ، كتاب الولاة والقضاة ، تحقيق رفن حست ، ص ١٥١ ، ط بيروت ١٩٠٨ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق١ ، ص ٨٧

(٣) نفس المصدر ص ٢٨٣ .

(٤) البيان والاعراب ، ص٣ ، ٥ – القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ١٩٤ ، ٢٠٩ .

صلاح الدين فى منطقة الشرقية (1) ويذكر القلقشندى أن بكل من ثعلبة مصر والشام قوم من خنلف وقيس ومراد (2) .

ب – المنوفية :–

سكنت المنوفية قبائل لواته التى ، كانت تنسب نفسها الى العرب – فذكروا أنهم من قيس عيلان . وقد اختلف المؤرخون فى اثبات صحة نسبهم الى العرب (3) . ومن الثابت أنهم بربر ثم تعربوا بسبب اختلاطهم بقبائل العرب فى مصر قبل عصر الأيوبيين وانتسبوا الى قبيلة قيس عيلان (4) .

جـ – البحيرة :–

ونزلها من قبائل العرب .

١– بنو سنبس :

وهم بطن من القحطانية (5) . فعندما قامت الدولة الأيوبية فى مصر كان قد مضى على هجرة بنى سنبس من فلسطين الى مصر واستقرارها فى اقليم البحيرة مايقرب من قرن وربع قرن من الزمان .

---

(1) البيان والاعراب ، ص ٦، ٧ ، ١١٧ ، ١١٨ – القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ١٩٥ ، ٢٢٠ .

(2) البيان والاعراب ، ص ٤٩ ، ٥٠ – القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٤١١ .

(3) البيان والاعراب ، ص ٤٩ ، القلقشندى ، نهاية الارب ، ٤١١

(4) العبر ، جـ٦ ، ص ٨

(5) البيان والاعراب ، ص ٧ – القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٢٩٦

وبقيت سنبس فى اقليم البحيرة طوال العصـر الأيوبى وتحـالفت مـع قبائل ثعلب من الجعافرة وخضعت لزعامة حصن الدين ثعلب [1] .

٢- هوارة :

وهم بربر متعربون ينتسبون الى عرب اليمـن . وقـد اختـارت - هوارة اقليم البحيرة منذ نزوحهم الى مصر قادمين مـن بـلاد المغـرب قبل قيام الدولة الأيوبية . وظلوا ينزلون باقليم البحيرة طـوال العصـر الأيوبى .[2]

٣- لواته وبنو عوف :-

نزلت باقليم البحيرة طوائف من لواتة المتعربين ومن بنى عوف.[3]

القبائل العربية وتوزيعها فى عصر المماليك

عندما اعتلى عز الدين أيبك عرش السلطنة فى مصـر٦٤٨-٦٥٥ (١٢٥٠ - ١٢٥٧) مؤسسا بذلك دولة الممـاليك البحريـة رفـض العرب الخضوع لسلطان هذه الدولة الجديدة ويشير المقريزى الى هذا الموقف العربى المعارض بقوله " وأنفت مصر من تملكه عليهم كذلك يذكـر بـن تغـرى بـردى أن أيبـك أطلـق مـدة سـلطنته مـن الأمـوال

([1]) البيان والاعراب ، ص ٩ - القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٩٧

([2]) العبر ، حـ٦ ، ص ٥ - البيان والاعراب ، ص ٥٨ ، نهاية الارب ص ٤٤

([3]) البيان والاعراب ، ص ٢٨ ، ٤٨ .

والخيول وغير ذلك مالا يحصى كثرة حتى رضى الناس بسلطان قد مسه الرق . وأما أهل مصر فلم يرضوا بالملك ".[1] و لم تلبث المعارضة العربية أن تحولت الى ثورات عارمة ضد سلاطين المماليك بدأت تنشب منذ ٦٥١ (١٢٥٣) التى ثار فيها العربان ببلاد الصعيد والوجه البحرى ويضيف المقريزى قائلا " واجتمع العرب وهم يومئذ فى كثرة من المال والخيل والرجال الى الامير حصن الدين ثعلب وأتوه من أقصى الصعيد وحلفوا له كلهم فبلغ عدة الفرسان اثنى عشر ألف فارس وتجاوزت عدة الرجال الاحصاء لكثرتهم "[2] ولكن العرب لم يلبثوا أن انهزموا عند اللقاء وأدى ذلك الى تفرقهم فى أنحاء مصر ، فتعقبهم المماليك فى كل ناحية واستولوا على جميع ممتلكاتهم فتبدد شملهم وخمدت جمرتهم من حينئذ [3].

وترتب على تفرقهم أن تغيرت خريطة توزيع القبائل العربية فى مصر بعد ذلك مباشرة وواصل العرب ثورتهم و لم يتحولوا عن موقف المعارضة للحكم المملوكى الا فى الظروف التى تعرضت فيها البلاد لخطر الغزو الخارجى .

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، حـ٧ ، ص ١٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٦

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨٧

أولا : فى الوجه القبلى

****

أ- قوص :

١- أولاد الكنز :

كان بنو كنز الدولة قد انسحبوا من أسوان بعد هزيمتهم أمام الأيوبيين ، ألا أنهم عادوا الى الظهور مرة أخرى فى العصر المملوكى . وكانوا فى هذه المرة عونا للدولة ضد أعدائها : ففى عام ٦٨٦ (١٢٨٨) قامت حملة عسكرية من مصر لتأديب سمامون ملك النوبة لخروجه على طاعة قلاوون سلطان - مصر . وجاء ذكر أولاد الكنز فى جملة القبائل العربية التى خرجت مع الحملة [1] وظل أولاد الكنز يقيمون بالصعيد الى أن نشب القتال بينهم وبين هوارة التى لجأت الى الصعيد بعد أن اضطرها السلطان برقوق الى الانسحاب من البحيرة بعد معارك عام ٧٨٢ (١٣٨٠) والاقامة فى جرجا التى كانت تتبع اقليم قوص بالصعيد الأعلى . ففى عام ٨١٥ (١٤١٢) زحفت هوارة الى اسوان وحاربت بنى الكنز وهزمتهم فاضطروا الى الانسحاب الى السودان واستقروا هناك [2] .

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، حـ٥ ، ص ٤٠١ ، المقريزى . الخطط ، حـ١ ، ص ٣٢١ ، السلوك، حـ١ ق ٣ ، ص ٧٣٦ .

(٢) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٥٨

٢- بنو هلال :

شارك بنو هلال فى الحملات الحربية ضد السودان [١] وظهروا أيضا فى معارك الصعيد الداخلية . ففى عام ٧٥٢ (١٣٥١) هاجم بنو هلال عرب عرك (بطن من جهينة) بتحريض من سلاطين المماليك الذين كانوا يعملون على اضعاف القوى العربية بالصعيد . وفى عام ٧٥٣ (١٣٥٢) عاد المماليك الى استغلال الصراع القائم بين عرب عرك الجهينية وعرب هلال القيسية عندما دعوا فرسان بنى هلالى الى قتال عرب عرك ، ثم قبضوا عليهم واستولوا على خيلهم وأسلحتهم ووثبوا عليهم قتلا ونهبا فى منفلوط وأسيوط [٢] .

ب- الأشمونين والبهنسا :-

١- عرك :-

وهم بطن من جهينة من عرب اليمن جنحوا الى الهدوء بالصعيد فى عهد السلاطين قطز وبيبرس وقلاوون ، الا أن حركاتهم - الثورية التى قاموا بها فى أعوام ٧٠١ ، ٧١٣ ، ٧٣١ فى عهد الناصر محمد بن قلاوون دفعته الى استخدام العنف ضدهم [٣] .

---

(١) السلوك ، حـ١ ق٣ ، ص ٧٣٦

(٢) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ق ٣ ، ص ٩١٨ ، حـ١ ق١ من السلوك ص ١٢٨ ، حـ٢ ق ٢ ، ص ٣٢٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور حـ١ ص ١٣٤ ، حـ٢ ، ط الشعب .

(٣) ابن خلدون العبر ، حـ٥ ، ص ٤٥٠ - المقريزى ، السلوك حـ٢ ق ٣ ص ٩١٠ ، بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ١٧١ .

وفى عام ٧٥٤ (١٣٥٣) فى عهد الصالح صلاح الدين بن قلاوون ثار محمد بن واصل الأحدب شيخ عرب عرك على المماليك واجتمع معه عرب الصعيد (١) . ولكن الثورة أسفرت فى النهاية عن هجرة كثير من القبائل العربية التى تقطن مصر العليا الى السودان (٢) ومن بين هذه القبائل بلى وجهينة وهى قبائل يمنية (٣) هاجرت فى العصر المملوكى من مصر الى السودان حيث استقرت وانتشرت وتملكت هذه البلاد بعد ذلك (٤)

أما العرب الذين آثروا البقاء فى مصر ولم يهاجروا فقد دفعت بهم الظروف الى الاندماج مع المصريين فى علاقات نسب ومصاهرة فارتفع عدد من دخل فى الاسلام من أقباط مصر نتيجة لذلك . ويشير المقريزى الى أن فى عام ٧٥٥ (١٣٥٤) تحول عدد كبير من المصريين الى الاسلام (٥) ومن نتائج تلك الثورات العربية أيضا أن قبائل العرب تداخلت انسابها وأصبحت أكثر ارتباطا بالأرض فصاروا ينسبون اليها فكان العربى ينسب منذ ذلك الحين الى الاقليم

---

(١) بدائع الزهور ، حـ٢ ص ١٧٢

(٢) البيان والاعراب ، ص ٢٩ ، ٣٢

(٣) أحمد لطفى اليه ، قبائل العرب ص ٤٨ ، ٤٩ .. Encsey,isl . I . P. 10 6 & mac. 1,P.138

(٤) السلوك ، حـ٢ ق ٣ ، حـ ٨٥٠ ، ٨٩٦ .

(٥) نفس المصدر ، حـ٢ ق ٣ ، ص ٩١١ .

الذى يعيش فيه . مثل قولهم (عرب الصعيد) و (عرب منفلوط) (عرب المراغة) [1]

٢- فزارة :-

وهم من قيس عيلان ، ويذكر المقريزى أنهم كانوا أحلافا لبنى ثعلب من الجعافرة [2] وكانت فزارة أيضا على حد قول خليل بن شاهين ممثلة فى الجيش المملوكى [3] .

جـ - الجيزة :-

١- محارب :-

وهم من بنى سليم من القيسية كانوا ينزلون فى المنطقة الممتدة مابين الاسكندرية والعقبة [4] وقد اشتركت جماعة من فرسان محارب فى جملة فرسان القبائل التى أمر السلطان طومان باى باستدعائها للانضمام الى قوة الجيش المملوكى المتجه الى الشام . ويشير ابن اياس الى اشتراك هؤلاء العرب فى قتال العثمانيين بقوله وفى يوم الأربعاء سابع ذى القعدة (٩٢١) ١٥١٥ حضر الى الأبواب

---

(١) السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٨٥٠ ، ٨٩٦

(٢) البيان والاعراب ، ص ٣٦ ، ٤٩ - أحمد لطفى السيد ، قبائل العرب ، ص ٥٤ ، عمر كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة جـ٣ ص ٩١٨ ، ط بيروت ١٩٦٨

(٣) غرس الدين خليل ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص ١٠١ ط١ ط باريس عام ١٨٩١ .

(٤) البيان والاعراب ، ص ٧١

الشريفة جماعة من طوائف العربان من عزالة ومحارب ومن عربان هوارة . وكان السلطان - الزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العرب ممن هو أشجعهم حتى يتوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر (١) . وقد ورد اسم عزالة في النص السابق مقرونا باسم محارب ، ومن المعروف أن عزالة كانت تسكن الجيزة وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج أن بني محارب كانوا ينزلون أيضا بهذه المنطقة أو قريبا منها .

٢- بنو عدى :

وهم بطن من لخم ، منهم بنو موسى وبنو محرب كانوا يسكنون الجيزة (٢) وقد ثار بنو عدى عام ٨٧٤ (١٤٦٩-١٤٧٠) في عهد السلطان قايتباى ، وعلى الرغم من أن ثورتهم ترجع الى أسباب اقتصادية فان المماليك قابلوا ثورتهم بالعنف (٣)

---

(١) بدائع الزهور ، جـ ٩ ، ص ١٠٦٨ ، زبدة كشف الممالك فى ١٠٣

(٢) البيان والاعراب ، ص ٩٠ ، القلقشندى - نهاية الارب ص ٣٥٨ ، القلقشندى ، قلائد الجمان ، ميكروفيلم ٣٨١ .

(٣) بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٤١٦ ،٤١٧ .

٣- عرب العزالة :-

وهم حي من العرب كان يقطن جيزة مصر [١] ولكن ابن اياس يذكر أنهم ثاروا في عام ٩٠٤ (١٤٩٨ -١٤٩٩) على كاشف البحيرة مما يؤكد أنهم كانوا يسكنون البحيرة ، ثم توجهوا الى القاهرة واشتبكوا مع قوة من المماليك السلطانية في منطقة المعيصرة فسقط من المماليك السلطانية خمسون قتيلا ، ثم انسحب - عزالة بعد ذلك والتجأوا الى الصعيد .[٢] ولم يلبث المماليك أن شنوا عليهم بالصعيد هجوما مباغتا واعتقلوا منهم نحو ثلاثمائة أنزلوا بهم أشد أنواع العقاب . [٣] والظاهر أنهم عادوا الى الثورة على المماليك بعد ذلك بسنوات . ففي عام ٩١٨ (١٥١٢) في عهد السلطان الأشرف قانصوه الغوري - فخرجت حملة عسكرية من المماليك الى الصعيد وعادت بعد اعدام ثمانية من عرب عزالة [٤]

ولقد كانت ثورات عزالة وانتقام المماليك الجراكسة منهم سببا في أن عرب عزالة وقفوا من المماليك موقفا يختلف عن موقف بقية القبائل العربية منهم رفضوا أن يتعاونوا مع المماليك ضد العثمانيين حاول السلطان طومان باى استمالة عرب عزالة الى جانبه الا أنهم

([١]) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ص ١٠٦٨ ، عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب جـ٢ ص ٧٧٧.

([٢]) بدائع الزهور ، جـ٦ ، ص ٦٤٨ .

([٣]) نفس المصدر ، ص ٢٤٩

([٤]) نفسه .

رفضوا الانضمام اليه بحجة غدم وثوقهم من قدرتهم على الانتصار على العثمانيين . ولكن المؤكد أن عرب عزالة لم يتمكنوا من التخلص مما علق فى نفوسهم من مشاعر البغض والكراهية للمماليك بسبب سياستهم التعسفية نحوهم وضروب الاضطهاد الذى تعرضوا له على أيديهم [1] .

٤- هوارة :-

وهم من قبائل البربر المتعربين وكانوا يسكنون الصعيد منذ أن انتقلوا اليه فى عهد المنصور على بن شعبان عام ٧٨٢ (١٣٨٠) . وقد نشطت هوارة بزراعة الأرض وصناعة السكر وكثرت أموالها ، وامتد سلطانها منذ عام ٨١٥ (١٤١٢) فشمل اقليم الصعيد كله ، - وأصبحت لهم الزعامة على سائر عرب الصعيد [2] وكانت الرئاسة فى الصعيد لا على لاولاد عمر من هوارة وفى الصعيد الأوسط لاولاد غريب وهم من هوارة أيضا . وبالرغم من أن هوارة كانت فى جملة القبائل الممثلة فى جيش مصر المملوكى [3] الا أنهم ثاروا على المماليك فى عام ٨٨٢ (١٤٧٧) بزعامة يونس بن عمر بسبب سياسة المماليك التعسفية ويعبر ابن اياس عن ذلك فيذكر أن عرب هوارة قاموا بثورة عنيفة فقتلوا فيها جماعة من جنود

---

(١) ابن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ط القاهرة ص ٧٩ .

(٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٦٨ - القلقشندى ، نهاية الارب ص ٤٤١ ، ٤٤٢.

(٣) خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٢ .

اى لهذا الخبر وعزم طى التوجه بنفسه

ين داود بن عمر على عرب هوارة
لك فقد عاودت هوارة الثورة من
. وبالرغم من تكرار ثورات عرب
الجيش المملوكى حتى عام ٩٢٢
جملة ماأورده من أخبار عن أحداث
ضر الى الأبواب الشريفة جماعة من
ب ومن عربان هوارة وكان السلطان
صحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن
محبة التجريدة مع العسكر . فلما
ها الجم الغفير من العربان ثم دخلوا
م السلطان بالميدان (٢) وظلت الامارة
اية العصر المملوكى وبداية العصر

ص ٤٨٠ .

ص ١٠٦٨

٥- بنو كلب :-

وهم بطن من العرب من قضاعة سكنوا الصعيد [1] ويبدوا أنهم كانوا من الكثرة بحيث أنه عندما وقعت الفتنة بينهم وبين بنى عدى فى عام ٩١٦ (١٥١٠) كان يخشى بسببها منهم على كل بلاد الصعيد . [2]

ثانيا : فى الوجه البحرى

****

أ- الشرقية :

١- بنو حرام :

وهم بطن من حزام من القحطانية [3] وكانوا يسكنون اقليم الشرقية ، وقد ثار بنو حرام فى ٨٧٦ (١٤٧١) فى جملة من ثار على قايتباى من عرب الشرقية وتفصيل ذلك أن قايتباى أمر فى ٨٧٧ باعتقال عدد من أشقياء العرب صدرت ضدهم أحكام بالاعدام توسيطا كان بعضهم ينتمى الى قبائل بنى حرام وبنى سعد

---

(1) القلقشندى ، نهاية الارب ص ٤٠٨ ، القلقشندى قلائد الجمان مهكرو ص ٣٨١ .

(2) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٧ ، ص ٧٩٧ .

(3) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٦٢ ، القلقشندى نهاية الارب ص ٢٣١ عمر كحالة ، معجم قبائل طـ١ ، ص ٢٥٧ .

وبنى وائل بالشرقية، ولهذا السبب هاجت ثائرة عرب الشرقية على السلطان وحكومته [1] .

٢- العائذ :-

وهم بطن من جزام من القحطانية ومن أقدم القبائل العربية فى مصر وقد سكنوا فى المنطقة الممتدة بين بلبيس والعقبة بفلسطين وكانوا يتولون حراسة القوافل فى هذه المنطقة [2] ومن زعماء العائذ فى العصر المملوكى محمد بن عيسى الذى يرجع اليه الفضل الأعظم فى اعادة السلطان شعبان الى الحكم ٧٦٤ - ٧٧٨ - (١٣٦٢ - ١٣٧٦) وكان قد أبعد بتدبير من بعض أمراء المماليك ولكن لم يتهيأ لهذه الخطة أن تنجح بسبب معارضة أحد الأمراء من أفراد حاشية السلطان . يذكر ابن اياس أن محمد بن عيسى شيخ العائذ قابل السلطان بعد مؤامرة خلعه من الحكم وقال له " آخذك وأتوجه بك من هنا (العقبة) الى غزة فتقيم بها حتى تتسامع بك العساكر وتجتمع عليك العرب وترجع الى القاهرة وتأخذ الملك بالسيف [3] وأغلب الظن أن قوة المعارضة ضد السلطان كانت السبب فى رفض أرتون شاه الأمير المملوكى قبول تلك الخطة وتنفيذها . ولكن

([1]) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٤ ص ٤٢٩ ، ٤٣٥ .

([2]) البيان والاعراب ص ١٩ ، ١١٨ ، القلقشندى ، نهاية الارب ص ٣٢٣ ، معجم ق حـ٢ ، ص ٧١٥ .

([3]) بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ٢٠١

لايستبعد أن يكون هناك سبب آخر هو بغض أمراء المماليك للعرب وخوفهم منهم اذ أن العرب كانوا يمثلون المعارضة للحكم المملوكي.

٣- بني صبيرة :-

وهم من بني حرام بن جزام [١] وقد سكنوا بركة الحجاج التي كانت تسمى ببركة الجب من ضواحي شمال القاهرة . ومنها كانت تخرج قوافل الحجاج ، وكان بنو صبيرة يتولوا حراستها في هذه المنطقة [٢] كما كانوا يقومون بحراسة منطقة سرياقوس احدى ضواحي القاهرة [٣] في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (٧٤٨ - ٧٦٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٦٠ م) .

٤- بنو سعد :-

وبنو سعد هم من بني حرام بن جزام . وقد سكنوا الشرقية يذكر المقريزي أن لجزام خمسة سعود وان الخمسة اختلطت بمصر منهم أكثر مشايخ البلاد وخفراؤها ، وان لهم مزارع [٤] . وكان لعرب الشرقية دور رئيسي في الدفاع عن البلاد بالمال وبالنفس [٥] .

---

(١) البيان والاعراب جـ١ ، معجم قبائل جـ١ ص ٢٥٧ .

(٢) المقريزي ، البيان والاعراب ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٦٢ ، ٦٣

(٣) المقريزي ، السلوك جـ٢ ق ٢ ص ٧٦٨

(٤) المقريزي ، البيان ، ص ٢٠ ، القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٨٧ ، القلقشندي قلائد الجماعة ميكرو رقم ٣٨١ ، عمر كحالة ، معجم قبائلي ، جـ٢ ، ص ٥١٣

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور جـ ، ص ٥٥٨

٥- بنو وائل :-

وهم بنو وائل بن عوف بن ثعلبة بن سلامان بن طيئ من القحطانية [١] ومن المعروف أنه وقعت بين وائل وبنى حرام معارك فى عام ٩٠٢ (١٤٩٧) ترجع فى الظاهر الى عوامل اقتصادية فان ابن اياس يذكر أن السلطان الاشرف قايتباى "صادر جماعة من أعيان التجار ومن تجار الارياف " ورمى على البلاد التى فى الشرقية شيئا يقال له الخمس بسبب خيالة تخرج مع التجريدة الى ابن عثمان " ومنها أنه كان ولى جماعة من مماليكه عوضا عن مشايخ العربان فجاروا أيضا على الفلاحين وأخذوا منهم غير العادة أضعاف . وكذلك الكشاف يقرر عليهم الاموال فيجورون على البلاد [٢] .

ومن الجدير بالذكر أن ماوقع باقليم الشرقية من قبيل المصادرات وزيادة الضرائب وماستولى عليه المماليك الذين ولاهم السلطان على البلاد بدلا من مشايخ العربان فضلا عما ذكره ابن اياس من جور الكشاف . كل ذلك كان عبئا ثقيلا لم يحتمله عرب الشرقية . وبالاضافة الى ذلك فقد كان لبعض أمراء المماليك دور فى افساد العلاقات بين قبائل العرب بعضها ببعض . وقد أدرك بنو حرام دور الامير اقبردى فى قيام الفتنة بينهم وبين بنى وائل فانتقموا منه

---

(١) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٤٤٦ ، القلقشندى ، قلائد الجمان ١٣٨١ عمر كحالة معجم قبائل العرب حـ٣ ، ص ١٢٤٤ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ ٦ ، ص ٥٩٧

وكادوا أن يقتلوه . يقول ابن اياس " وسبب ذلك أنه سلط عليهم بنى وائل وقتل منهم فى ملدة المعركة ملا يحصى " [1] . والواقع ان الفتن التى قامت بين أمراء المماليك كانت تنعكس آثارها على العرب ، وان ابن اياس يؤكد أنه لما وقعت بمصر الفتن بين الأتراك وقعت أيضا بين العربان [2] . وذلك لما كان للمماليك من نفوذ وسلطان ، هذا بالاضافة الى كثرة مؤامراتهم فيما بينهم فيلحق العرب جانب من ذلك الموقف المضطرب . كذلك واجه العرب المتاعب من جانب الكشاف حتى أنه فى عام ٩٠٧ (١٥٠١) رفض عرب الشرقية استقبال الأمير قانصوه ابن سلطان الذى عينه السلطان كاشف على الشرقية ، فاضطر الى الاقامة بها نحوا من أربعين يوما ورجع من غير طائل . [3].

ب- القليوبية :-

هذا الاقليم من الأقاليم المستحدثة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون بعد أن أراك البلاد المصرية سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥) الروك المعروف بالناصرى ، واجرى التعديلات فى نظام تقسيم الأراضى

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور جـ٦ ، ص ٦٢٤

(٢) نفس المصدر ص ٦٢١

(٣) نفسه ، جـ ٧ ، ص ٦٩٩

واعاد توزيع الاقطاعات الزراعية ، قد أدى ذلك الى فصل هذا الاقليم عن الشرقية تحت اسم " الاعمال القليوبية "[1].

١- بنو فزارة : وهم من قيس عيلان قد سكنوا القليوبية [2] .

٢- بنو بدر : وهم من بني فزارة وقد سكنوا القليوبية ويذكر القلقشندى أن " لبنى بدر الرياسة والقوة والغلبة "[3] . وبنو فزارة من القبائل التى كانت ممثلة فى الجيش المملوكى [4] .

جـ المنوفية :-

١- لواته المتعربين : وقد سكنوا المنوفية ، ورغم المعارك التى قامت بين العرب والمماليك فقد ظلت بقية من لواته تقيم بالمنوفية [5] الى أن انضموا الى عرب الغربية (سنبس) وحاربوا المماليك ، فانتصر هؤلاء عليهم وأدى ذلك الى انسحاب العرب من أقاليم الصراع وتفرقوا فى أنحاء مصر . [6]

---

(١) ابن تعرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص ٣٩ ، ٤٢

(٢) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٤٨ ، ٤٩ - القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٣٥٧ - عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، جـ٣ ، ص ٩١٨ .

(٣) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ١٧٥ - عمر كحالة - معجم قبائل ، جـ ١ ص ٦٩

(٤) خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣

(٥) المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٢٨ ، ٦١

(٦) نفس المصدر ، ص ١٠

ثم بقيت بقايا من لواته فى المنوفية بعد عام ٦٥٢ (١٣٥٢) واعتاد عرب المنوفية الانضمام الى عرب الغربية فى كل ثورة عربية تقوم ضد حكام المماليك . وكانت الزعامة تسند فى جميع الثورات التى قامت فى أقاليم الوجه البحرى عامة الى واحد من عرب قبائل لواته مثل بدر بن سلام والجويلى وغيرهم [1] ويستمر دور عرب المنوفية وتضامنهم مع بقية قبائل العرب فى البحيرة والشرقية والغربية حتى عام ٩١٨ (١٥١٢) . بدليل أن ابن اياس يذكر فى احداث عام ٩١٨ (١٥١٢) أن سبع قبائل تحالفت ضد حكام المماليك وانهم طردوا كاشف المنوفية وغيره من البلاد [2] .

د- الغربية :-

بنو سنبس :- هم بطن من القحطانية سكنوا اقليم الغربية بعد هجرتهم اليه من البحيرة فى أعقاب ثورة عام ٦٥١ . ويذكر القلقشندى أن الأمرة فى العصر المملوكى كانت فى أولاد يوسف . من الخزاعلة من سنبس [3]

---

(١) ومما هو جدير بالذكر أن قبائل لواته كان لها دور يذكر فى الصراع الذى نشب بين طوائف الجيش أيام وزارة ناصر الدولة بن حمدان فى عهد المستنصر اذ انضموا اليه مع القبائل العربية فى صراعه ضد طوائف الجيش الاخرى من السودان .

Lane poole history of Egyte P. 1/16 London 1901.

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٨ ص ٨٤٥

(٣) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٧٠ ، عمر كحالة ، معجم قبائل جـ٢ ص

هـ- البحيرة :-

١- لبيد :- وهم بطن من سليم من العدنانية - وكانت تسكن في المنطقة الممتدة مابين الاسكندرية والعقبة [١] ويذكر ابن ايـاس أن لبيد هـاجمت اقليم البحيرة مرتين الاولى عـام ٨٦٥ (١٤٦٠) [٢] والثانية عام ٨٧٤ (١٤٧٠) [٣] ومن الجدير بالذكر في هـذا الصـدد أن هاتين الثورتين وقعتا عقب ظروف اقتصادية غير طبيعية [٤] ففـى الأولى كانت الأحوال فاسدة والأمور مضطربة [٥] وفـى الثانيـة عـم الغلاء مصر والشام [٦] .

٢- جابر ومرديس :-

ذكر ابن اياس أنهما طائفتان من العرب كـانوا ينزلون فـى اقليـم البحيرة ثم وقعت الفتنة بينهما فـى عـام ٦٩٩ (١٢٩٩) ، وترتـب عليها انتشار الاضطرابات العنيفة في الاقليم وتبع ذلك بطبيعة الحـال

---

(١) المقريزى ، البيان والاعراب ص ٧١ - القلقشندى ، قلائد الجمان رقم ٣٨١ ميكروفيلم .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ص ٣٧٣

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٢٢

(٤) يذكر ابن اياس أن وباء الطاعون ظهر عام ٨٦٤ (١٤٩٥) ويصف شـدته قائلا أن " كـان طاعونا عظيما جدا مات فيه ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء وان استمر عـاملا نحـو خمسة أشهر "(بدائع الزهور ، جـ ٤ ص ٣٦٩) . كذلـك يصف الغـلاء الـذى عـم البـلاد عـام ٨٧٤ (١٤٧٠) فيقول " وعمت هذه الغلـة سـائر البـلاد حتى البـلاد الشـامية وغيرهـا "(نفـس المصـدر ص ٤١٦)

(٥) بدائع الزهور ، جـ٤ ص ٣٧١

(٦) نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٤١٦

قيام حملة مملوكية من القاهرة لقمع هذه الفتنة وأرغمت هاتين الطائفتين على الانسحاب غربا الى الجبال . ويذكر ابن خلدون عن بني جابر : أنهم من جشم [١] وجشم من جزام [٢] ولكن ابن خلدون يستدرك قائلا عن بني جابر أنهم ربما كانوا من القبائل المغربية زناته أو لواته ، ويذكر أيضا أن بأرض مصر والصعيد منهم كثير أما القلقشندى فيذكر أن بنى جابر من جزام القحطانية وأنهم كانوا ينزلون فى غزة بفلسطين [٣] . أما مرديس فبطن من جزام القحطانية . [٤]

٣- هوارة :-

ظلت هوارة تقيم في اقليم البحيرة طوال العصر المملوكى الى مايقرب من عام ٧٨٢ (١٣٨٠) في عهد المنصور على بن شعبان ٧٧٨ - ٧٨٣ (١٣٧٦ - ١٣٨١) حينما قامت ثورة بزعامة بدر بن سلام انتهت بهجرتها الى الصعيد .

ويذكر القلقشندى أن هوارة ظلت تنزل باقليم البحيرة الى أن " غلبهم على البحيرة زنارة وخلفاؤها وبقية عرب البحيرة فخرجوا

(١) ابن خلدون ، العبر ، حـ٦ ، ص ٣٠

(٢) المقريزى ، البيان ص ١٣

(٣) القلقشندى ، نهاية الارب ص ٢٠٢

(٤) القلقشندى ، قلائد الجماعة ٣٨١ ، القلقشندى ، نهاية الارب مخطوط ١٦٩ نقلا عن عمر كحالة معجم ، حـ٣ ، ص ١٠٧٥

منها الى الصعيد [1] ولكن أحوال البحيرة لم تتغير بعد هجرة هـوارة منها الى الصعيد ، بل ظلت الأوضاع على ماكانت عليه منـذ ثـورة بدر بن سلام . وذلك أن أسباب الثورات لم تكن ترجع الى سـلوك قبيلة بعينها وانما كانت ترجع الى أسباب ذات صبغة اقتصادية بحتة .

(1) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٤٤١ .

(الفصـــــــل الثانـــــى)

اندماج العرب بأهل مصر

****

١- اندماج العرب بالأهالى واشتغالهم بأعمال الزراعة وتوليهم المناصب الرئاسية .

٢- الظروف التى أدت الى الاندماج .

****

(١)

اندماج العرب بأهل مصر واشتغالهم بأعمال الزراعة وتولى المناصب الرئاسية

قدر للقبائل العربية أن تلعب دورها فى تعريب مصر مرحلة اثر مرحلة ، حتى عصر المماليك الجراكسة . واذا كانت ثورات الذميين فى مصر دفعتهم الى الدخول فى ا لاسلام – نتيجة تعرضهم لظروف اقتصادية صعبة [1] فان ثورات العرب ضد المماليك التى وقعت فى نفس الفترة حتى تحدث عنها المقريزى قد دفعت بالعرب أيضا الى الاندماج فى شعب مصر بعد أن أرهقهم الصراع ضد المماليك .

ويعلق تقى الدين المقريزى على انتشار الاسلام بين أقباط مصر ومايترتب على ذلك من ارتباط العرب بالمصريين بعلاقات النسب والمصاهرة وتعلم المصريين للغة العرب حتى كان منهم القضاة والعلماء فيقول " من حينئذ اختلطت الأنساب بأرض مصر فنكح هؤلاء الذين أظهروا الاسلام بالأرياف المسلمات واستولدوهن ثم قدم أولادهم الى القاهرة وصار منهم قضاة وشهود وعلماء [2] فكان

---

(١) وفى ذلك يقول المقريزى فى أحداث عام ٧٥٥ (١٣٥٤) .(فلما عظم البلاء على النصارى وقلت أرزاقهم رأو أن يدخلوا فى الاسلام ففشا الإسلام عامة نصارى أرض مصر (السلوك جـ٢ ق ٣ ص ٩٢٧) .

(٢) نفس المصدر .

لهذا الاندماج النهائى لتلك التجمعات العربية الهائلة الذى تم على مراحل مبتدئا بمصر شمالا وممتدا الى السودان جنوبا . كما سبق أن امتد غربا الى بلاد المغرب العربى ، هذا الاندماج كان له تأثير روحى عميق فى الكيان الاجتماعى لأهل مصر .

لقد ساعدت الظروف على زيادة التقارب والاندماج بين قبائل العرب وشعوب تلك البلاد وترتب على هذا الاندماج الذى تم بمصر بصفة خاصة فى العصر المملوكى تلهف المصريين على التعرف على دين العرب ولغتهم . وتبعا لذلك جند الكثير من العرب أنفسهم لمهمة نشر علوم الدين واللغة . وهكذا أصبحت لغة العرب تمتد من مصر غربا بطول الساحل الأفريقى للبحر الأبيض حتى المحيط الأطلسى وجنوبا الى السودان .

ويرجع سبب انتشار اللغة العربية بادئ ذى بدء الى غلبة العرب وسيطرتهم على تلك المناطق الشاسعة المترامية الأطراف . ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله " اعلم أن لغات أهل الأمصار انما تكون بلسان الأمة والجيل الغالب عليها أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الأمصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد (عصر المماليك) . عربية [1] وكان من أبناء القبائل العربية من حمل رسالة

([1]) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٧٩ .

نشر اللغة العربية وعلومها. وبفضل هؤلاء وفضل جهودهم بقيت اللغة العربية في مصر والشام والمغرب .[1]

ومن قبائل جزام ولخم وبنى كنانة ومن العلويين والجعافرة وغيرها من القبائل - العربية في مصر ظهر العلماء في فروع علوم اللغة العربية وآدابها وحملوا لواءها ، "عملوا على نشرها وتثبيتها حتى صارت لغة العرب بجهودهم رمزا لوحدة شعوب تعيش على أرض تمتد مساحتها شرقا من الخليج العربي بأرض العراق الى بلاد المغرب الأقصى عند شواطئ المحيط الأطلسي في أقصى الغرب .

وممن حمل لواء نشر اللغة العربية وعلومها في مصر الأيوبية والمملوكية أو تولى الوظائف العامة من أبنائها الذين ولدوا على أرضها وعملوا على توثيق الصلة بين العرب والمصريين :-

١ - ابراهيم بن هبة الله بن على القاضى نور الدين الاسنائى الحميرى عاش في القرن السادس الهجرى . درس علوم الفقه والنحو على نخبة من من العلماء واشتغل بالافتاء والفقه واختصر شرح بعض مؤلفات العلماء مثل ألفية ابن مالك وكتاب الوسيط للامام أبى حامد محمد الغزالى فضلا عن علوم الجبر وعلوم الطب . كما ولى القضاء بعدة أقاليم بمصر .[2]

---

(١) في ذلك يقول ابن خلدون " وربما بقيت اللغة المصرية بمصر والشام والمغرب لبقاء الدين طلبا لها فحفظت بعض الشئ (نفس المصدر ، ص ٣٨٠)

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ص ١٧٠

٢- (بهاء الدين) أبو الحسن بن على بن هبة الله سلام اللخمى المعروف بابن الحميدى ٥٥٦ - ٦٤٩ (١١٦٣-١٢٥١) تلقى علومه على الامام الشاطبى (١) واشتغل بالتدريس فقدم اليه طلاب العلم من مختلف البلاد وولى مشيخه العلماء بمصر (٢)

٣- شمس الدين بن محمد بن الحسين بن محمد الحسينى الأموى المصرى المعروف بقاضى العسكر . عاش فى القرن السابع الهجرى ودرس الفقه واشتغل به وصار اماما فقيها ثم ولى نقابة الأشراف والقضاء العسكرى .

٤- أحمد بن المنير :- هو أحمد بن محمد بن منصور الجذامى القاضى ناصر الدين المنير الاسكندرانى ٦٢٠ - ٦٨٣ (١٢٢١ - ١٢٨٤) شغل منصب القضاء وبرع فى الخطابة والكتابة وتنسب اليه تصانيف فى علوم الشريعة وفنون الأدب والشعر والخطابة . أخذ عن جماعة منهم جمال الدين ابن الحاجب (٣) وقد قال عنه شيخ

---

(١) الشاطبى : هو الفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبو عبد الله بن محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى أحد أولياء الله الصالحين المشهورين فى الثغر بالعبادة وكان يجمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع الى الله تعالى والتخلى عن الناس ، والتمسك بطريقة السلف وقد انقطع لعبادة الله فى رباط سوار بالاسكندرية بتربة استاذه أبى العباس المرسى وتوفى فى الاسكندرية فى رمضان ٦٧٢ ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته .

(٢) عبد الرحمن السيوطى ، حسن المحاضرة جـ١ ، ص ١٧٣

(٣) حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٧ انظر دور طائفة الصوفية بالاسكندرية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (د. محمد زغلول سلام , الأدب فى عصر صلاح الدين ص ١٧٩ ط الاسكندرية ١٩٥٩ .

الاسلام عز الدين بن عبد السلام " ديار مصر تفخر برجلين فى طرفيها ابن المنير بالاسكندرية [1] وابن دقيق العيد بقوص "[2] ومن مآثر بن المنير تعمير المناطق الخالية وزراعتها وانتشار أسباب عمارتها حتى تصبح بلدا عامرا يسكنه الأهالى وينتفعون بخيراته [3].

٥- زين الدين على بن محمد بن منصور الجذامى . ولى القضاء بالاسكندرية بعد أخيه أحمد بن المنير المتوفى عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤) وكان من الأئمة المجتهدين وله شرح فى صحيح البخارى [4] .

٦- ابن دقيق العيد : ٦٢٥ - ٧٠٢ (١٢٢٧ - ١٣٠٢) . هو محمد بن على بن وهب القشيرى المنفلوطى الأصل المصرى القوصى المنشأ عاش فى القرن السابع الهجرى وتلقى العلم فى القاهرة ثم رحل الى دمشق وأخذ على علمائها ثم عاد الى القاهرة زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث تولى فى ٦٩٩ هـ منصب قاضى القضاه الشافعية [5].

---

(١) محمد بن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٧٧ ، السيوطى حسن المحاضرة جـ١ ص ١٧٢ - د. عبد العزيز سالم تاريخ الاسكندرية ص ٢٨٠ .

(٢) عبد الوهاب الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، جـ٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) السيوطى حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٧ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور جـ١ ، ص ١١٨

ويقول عنه ابن الشوكانى " وخضع له أكابر الزمان وطار صيته واشتهر ذكره وأخذ عنه الطلبة وصنف التصانيف الفائقة منها "الالمام فى أحاديث الأحكام" وشرع فى شرحه فخرج منه أحاديث يسيره فى مجلدين أتى فيها كما قال الحافظ بن حجر بالعجائب الدالة على سعة دائرته فى العلوم والاستنباط" (١)

وقد بلغ ابن دقيق العيد الغاية من تقدير أهل عصره له . فقد كان العلماء يعتزون بشهادته ويذكرون من أقواله مايستدلون به من صدق الخبر (٢) وكان على حد قول شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام أحد رجلين تفخر بهما مصر أحدهما ابن المنير (٣)

٧- ابن الصيرفى :- هو شرف الدين الحسن بن على بن عيسى اللخمى المصرى توفى عام ٦٩٩(١٢٩٨) وكانت له عناية بالأحاديث النبوية (٤) .

٨- عمر بن عيسى بن نصر وينتهى نسبه الى كعب بن سعد بن تيم التميمى ٦٨ -٧٢١ (١٢٤٠ - ١٣٢١) درس الفقه والنحو والحديث على جماعة من العلماء ولاه أستاذه تقى الدين قاضى

---

(١) ابن الشوكانى ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ، حـ٢ ، ص ٢٩٩ ، ابن حجر العقلانى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ص ٩١ ط الهند ١٣٤٩ .

(٢) ابن تغرى بردى المنهل الصافى ، ص ٣٣٦

(٣) ابن شاكر الكتبى نفوات الوفيات ، حـ١ ص ٧٢ - السيوطى حسن المحاضرة ، حـ١ ص ١٢٧ .

(٤) السيوطى حسن المحاضرة ، ص ١٦٢ ، ١٦٣

القضاة النظر على رباع الأيتام . ثم تخلى عن هذا المنصب بعد وفاة أستاذه وعاد الى بلده قوص حيث توفى [1] .

٩- بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى ٦٣٩ - ٧٣٣ (١٢٤١ - ١٣٣٢)من فقهاء الشافعية اشتغل بالافتاء والتأليف فى عدة فروع من العلوم والفنون وشغل منصب قاضى القضاه بمصر [2]

١٠- على بن يوسف بن جرير اللخمى ٦٤٤ - ٧١٣ (١٢٤٦- ١٣١٣) من فقهاء الشافعية تولى وظيفة شيخ الأقراء بمصر وبالجامع الأزهر واجتمع عليه كثير من طلبة العلم [3]

١١- ابراهيم الدسوقى : (٦٧٦هـ -١٢٧٧م) .

هو ابراهيم بن أبى المجد بن قريش من الجعافرة [4] عاش فى القرن السابع الهجرى ، كان لابراهيم الدسوقى جهود كبيرة فى جمع كلمة المسلمين والدعوة الى اتباع القرآن والسنة - والابتعاد عن البدع . وكان يدعو الى التكافل والتضامن ويحث على الاهتمام بالوقت وعدم التفريط فيه باضاعته فيما لايعود بالفائدة فهو يقول "

---

(١) كمال الدين جعفر بن ثعلب ، الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلا الصعيد . ص ٢٥٠ .

(٢) حسن المحاضرة جـ١ ص ١٣٨ .

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ٢٢٦

(٤) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ١١ ، ص ٨ .

ولاتلتفت قط الى صحبة من يتكرم بضياع أوقاته أو أنفاسه فى الغفلات فان صحبته هلاك لك " ويقول أيضا " من لم يكن عنده شفقة على خلق الله لايرقى مراقى أهل الله" (١) ولم يكن الشيخ الدسوقى يغفل قط عن مجاهدة النفس والهوى والشيطان حتى مات(٢)

١٢- يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الامام شرف الدين أبو الحسين الصواف الجذامى الاسكندرانى ٦٩٠ - ٧٥٠ (١٢٩١ - ١٣٤٩) . وكان من فقهاء الشافعية ومن تلاميذه البزرالى وابن سيد الناس والسبكى . وقد أصبح هؤلاء من العلماء البارزين فى علوم العربية (٣)

١٣- (ابن عقيل) بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل ٦٩٨ - ٧٩٦ (١٢٩٨ - ١٣٦٧) . من ولد عقيل بن أبى طالب وهو من أئمة اللغة والنحو . تولى القضاء والتدريس والتفسير بمصر وله مؤلفات فيها شرح الفية ابن مالك (٤) .

---

(١) عبد الوهاب الشعرانى ، الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٧٣ - الخطط التوفيقية ، جـ١١ ، ص ٨ .

(٢) الشعرانى ، الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٨١ .

(٣) السيوطى حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢١٦

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٢٣١ .

١٤- ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن اللخمى المصرى ٧١٥ - ٧٩٠ (١٣١٥ - ١٣٨٨) . ولد بالغربية فى قرية تسمى أمبرط ثم درس على جماعة من العلماء صحيح البخارى وصحيح مسلم والسيرة لابن اسحاق وسند ابن ماجه وجامع الأصول لابن الأثير وسنن الشافعى ورحل الى دمشق ثم اشتغل بالفقه وولى منصب نائب الحكم عن قاضى قضاة القاهرة أبى البقاء السبكى ثم انتقل الى مكة وتوفى بها عام ٧٩٠ (١٣٨٨) [١] .

١٥- أبو العباس أحمد بن على بن عبد الله القلقشندى ٧٥٦ - ٨٢١ (١٣٥٥ - ١٤٤٨) وينسب الى قبيلة بنى بدر من فزارة ، ولد بقلقشندة بالقليوبية [٢] . وقال عنه ابن تغرى بردى " أحد مؤلفى الدست - ديوان الانشاء - ونواب الحكم . كان اماما فقيها بارعا فى العربية مشاركا فى الفقه والفرائض . ناب فى الحكم سنين . وكتب فى الانشاء وكان ماهرا فى ذلك وله نظم ونثر ومصنفات . من ذلك كتاب " صبح الأعشى فى صناعة الانشا . " جمع فيه جمعا كبير مفيدا وصنف فى الفقه أيضا وغيره وكان له فضل وأفضال وقورا فى الدولة " [٣]

---

(١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ص ١٩٤ ،

(٢) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص (ز)

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ص ٣٣٠ ، محمد مصطفى حلمى ، ابن الفارض ص ٥٤/٥٦ .

ومن مؤلفات القلقشندى أيضا حلية الفضل والكرم فى المفاضلة بين السيف والقلم ونهاية الارب فى معرفة أنساب العرب . " قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ".

١٦- عمر بن الفارض :-

هو عمر بن على بن مرشد ٥٧٦ - ٦٣٢ (١١٨٠ - ١٢٣٤). من قبيلة بنى سعد العربية ولد بمصر وولى أبوه عدة وظائف كان آخرها نيابة الحكم واشتغل عمر بالتصوف وله دواوين وقصائد صوفية اشتهر بها منها قصيدته اليائية التى أعجب بها الملك الكامل الأيوبى عندما سمعها وعلق عليها قائلا هذا نفس محب . وكان مولعا بالشعر والشعراء . وبلغ به الاعجاب . الى أنه طلب مقابلة ابن الفارض وبعث اليه بمبلغ ١٠٠٠ دينار ولكن ابن الفارض رفض قبولها . كما اعتذر عن مقابلة السلطان وبالغ فى الاحتجاب عنه فرحل الى الاسكندرية متخفيا [١] اشتهر بلقب سلطان العاشقين . وعلى الرغم من انقطاعه للعبادة والتصوف فقد كان وطنيا يحب بلده مصر ويتغنى باسمها ومن ذلك قوله :

وطنى مصر وفيها وطرى ...... ولنفسى مشتهاها مشتهاها [٢]

نال ابن الفارض قدرا كبيرا من الاعجاب ومحبة الكثيرين له والتف حوله جماعة كثيرة من المعجبين بمنهجه فى التصوف ، فأوغر هذا

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص ٢٧١

(٢) د. مصطفى حلمى " ابن الفارض ، ص ٥٤ ، ٥٦

الفوز صدور بعض الناقمين والحاسدين على ابن الفارض – وحاولوا النيل منه . ولكن ردهم الله على أعقابهم خاسرين [1] فلم ينالوا منه شيئا .

(٢)
الظروف التى أدت الى الاندماج العربى المصرى فى عصر دولة المماليك

ارتبطت مصر بروابط ودية مع الأيوبيين منذ اليوم الأول الذى وفد فيه صلاح الدين الى مصر برفقة عمه أسد الدين شيركوه ولذلك فان أحوال العرب والمصريين فى مصر عند قيام الدولة الأيوبية سارت على أسس مرضية ، بمعنى أنه لم تحدث ثورات و لم يقم تحالف قبلى ضد الدولة الأيوبية ، ومن هنا فان حركات الاندماج بين العرب والمصريين لم تأخذ دورا بارزا أو ملحوظا .

و لم يلبث الوضع أن تغير منذ قيام الدولة المملوكة . فبعد أن تولى السلطان عز الدين ايبك سلطنة مصر فى ربيع الآخر ٦٤٨ (١٢٥٠) قامت المعارضة العربية ضد الحكم المملوكى ، ولكن المماليك تمكنوا من فرض نفوذهم على البلاد . ففى عهد المعز أيبك أول سلاطين المماليك وبالذات منذ زواجه من شجرة الدر فى عام ٦٥٢ (١٢٥٤) وظهور معارضة البيت الأيوبى لاستيلاء المماليك

---

(1) ابن اياس ، جـ٤ ، ص ٤٢٢

على الحكم فى مصر وقع الخلاف بين الامراء المماليك بزعامة فارس الدين اقطاى وبين المعز ايبك ، وأصدر أيبك أمره بالقبض على معارضيه من أمراء المماليك وجمع عرب الصعيد خشية ممالئتهم للأيوبيين [1] وكان الأهالى يبغضون المماليك بسبب سوء معاملتهم فلما ظهرت بوادر النصر للأيوبيين فى أول الأمر أظهر الأهالى فى مصر فرحتهم وتعالت هتافاتهم للملك الناصر صلاح الدين الذى خرج من الشام قاصدا مصر بعد مقتل توران شاه ، كما خطبوا فى مساجد مصر للملك الناصر ، فلما انتصر المماليك زادت اساءتهم للمصريين أبلغ الاساءة [2] واشتدت معارضة القبائل العربية بقيام دولة المماليك فى مصر واجتمعوا على رأى واحد وهو أن العرب أحق بالحكم من المماليك [3] . واصبح الموقف كما يلى :-

أولا :-

اعتبر المماليك أنفسهم أصحاب حق فى ملك مصر بعد انتصارهم على الفرنسيين فى المنصورة .

---

(1) المقريزى . السلوك ، جـ1 ق 2 ، ص 3٠٤

(2) نفس المصدر ، ص 380 .

(3) المقريزى ، السلوك ، جـ1 ، ق 2 ، ص 386

ثانيا :-

اعتبر العرب أنفسهم أحق من المماليك فى حكم مصر لأن المماليك دخلاء على البلاد خرجوا على الدولة . أما العرب فكانوا مجاهدين مع بنى أيوب لم يخرجوا عليهم .

وصار الموقف بين العرب والمصريين من ناحية والمماليك من ناحية أخرى . موقف عداء سافر . فالعرب والمصريون لم يخفوا بغضهم للمماليك وتطور الموقف فقامت ثورة العرب بزعامة الأمير العربى حصن الدين ثعلب وحاولوا انتزاع السلطة من المماليك بالقوة . ووقع القتال بين الفريقين ، وانتصر المماليك فى نهايته وكان من نتائج تلك المعارك اندماج العرب فى شعب مصر .

البـــاب الثانـــى

****

القبائل العربية في خدمة الجيش الأيوبى والمملوكى

الفصل الأول :-

دور العرب الحربى فى الدفاع عن حدود مصر زمن الأيوبيين

١- في عهد صلاح الدين .

٢- في عهد خلفاء صلاح الدين .

الفصل الثانى :-

دور العرب الحربى فى الدفاع عن مصر زمن المماليك

****

الفصل الأول

دور العرب الحربى فى الدفاع عن حدود مصر زمن الأيوبيين

(١)

فى عهد صلاح الدين

أ) مساهمة العرب فى الدفاع عن دمياط:-

عندما أسند الخليفة العاضد الفاطمى منصب الوزارة الى القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب ولقبه بالسيد الأجل الملك الناصر وفقا لما ورد فى السجل الصادر عن الخليفة المذكور فى أواخر جمادى الآخرة عام ٥٦٤ (مارس ١١٦٩) [1] .

وبعد أن تمكن صلاح الدين من استمالة قلوب الناس اليه والسيطرة الكاملة على العسكر الشامى والمصرى والقضاء على قوة الجند السودان الذين كان يعتمد عليهم الخليفة الفاطمى تمهيدا لاسقاط الخلافة الفاطمية [2] استشعر الصليبيون بالشام بالخطر

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٧٦ .

(٢) الباز العرينى مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٥ ، ٤٠٨ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الناصر صلاح الدين ، سلسلة اعلام العرب ، عدد ٤١ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ٦٢

Lane poole , saladin and the fall of the king dom of jerusalem, Beirut, 1964,P.98-99

الاسلامى المائل [1] وأحسوا أنهم وقعوا بين شقى رحى [2] واستبد بهم الشعور بالخطر المحدق بهم فبعثوا الى حكام صقلية يستحثونهم على غزو مصر وامتلاكها قبل أن يتم أمر هذه الوحدة [3] ولكن اضطراب الأحوال السياسية فى غرب أوربا بالاضافة الى النزاع القائم بين البابوية والامبراطورية حال دون تحقيق آمال الصليبيين ، فاضطر عمورى الأول الى التوجه الى الدولة البيزنطية واستصراخها ولم يسع الامبراطور البيزنطى مانويل كونين الا تلبية النداء فحشد عددا كبيرا من سفنه البحرية [4] أبحرت الى صور ثم الى عكا مستهدفا التعاون مع الفرنج لغزو مصر . ولم يلبث الأسطول البيزنطى أن أقلع الى دمياط فى حين زحفت القوى الصليبية برا من عسقلان الى الفرما ثم الى دمياط فى صفر ٥٦٥هـ (١١٦٩) شرعت القوة البيزنطية الصليبية فى احكام الحصار حول دمياط ، ولكن الأهالى هبوا للدفاع عن مدينتهم . واشتد حصار العدو لدمياط برا وبحرا ولكن أهالى المدينة بينهم عرب بنى كنانة ظلوا يحاربون الفرنج فى عزم وثبات حتى وصل الخبر الى صلاح الدين فبادر بارسال الامدادات من الرجال والسلاح الى المدافعين . كما بعث فى نفس الوقت الى نور الدين فى الشام يستعين به على قتال

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٨٠

(٢) د. سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ٧٥

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٨٠.

(٤) بلغ عدد هذه القطع نحو ألف ومائتى سفينة .

العدو على أرض دمياط . فقام نور الدين بالغارات المفاجئة على مدن فرنج الساحل وبعث بالامدادات والنجدات ارسالا الى مصر عونا لصلاح الدين [1] وقد أخذ ذلك كله بأقوات العدو واضطروا الى الانسحاب عن دمياط مخذولين بعد أن أغرق المصريون لهم ثلاثمائة قطعة حربية أثناء قيامهم بحصار دمياط مدة خمسين يوما .

٢- اشتراك العرب فى الدفاع عن الاسكندرية :-

فى ذى الحجة عام ٥٦٩ (يوليو ١١٧٤) قام وليم الثانى النورماندى ، ملك صقلية بهجوم بحرى على الاسكندرية بأسطول مكون من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذا للمخطط واسع النطاق الذى اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكى بيت المقدس وصقلية بهدف احياء الخلافة الفاطمية فى مصر ورد الدعوة العلوية الى ماكانت عليه . وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الاسكندرية فى ١٦ ذى الحجة بعد أن انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين فى الداخل من جهة وبعد وفاة عمورى الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية . وشرع

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ص ١٨٠ ، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص ١٥٧ ، المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٤٦ - وانظر عن حياة صلاح الدين منذ نشأته فى بلاط نور الدين محمود وحتى انتصاره فى واقعة حطين .

Gibb (A.R) the Rise of Saladin , in Kenneth M . Setton (editall Ahistory If the crusades . PP. 503 - 589 , philadelphia. 1958 .

النورمان فى مهاجمة الاسكندرية . ونجحوا فى أغراق بعض المراكب المصرية التى كانت راسية على الساحل [1] .

ثم نزلت قوات الأسطول الصقلى الى الشاطئ وتقدمت فى مواجهة أهالى المدينة من العرب والمصريين الذين تصدوا لهم وثبتوا أمام هجماتهم وتفانوا فى الدفاع عنها حتى سقط منهم الشهداء.[٢]

ثم تمكن المهاجمون من اقامة ثلاثمائة خيمة لهم وشرعوا فى حصار المدينة ، وواصل الأهالى مقاومتهم للغزو ثلاثة أيام الى أن وصلت أخبار ذلك الغزو الى صلاح الدين [٣] فبادر بالسير الى الاسكندرية على رأس قوة من عسكره ، ونجح فى ايقاع الهزيمة بالنورمان وأرغمهم على الانسحاب بسفنهم بعد أن أغرقت قواته بعضها واستولت على بعضها . وفر النورمان تاركين كميات هائلة من الغنائم الحربية . وفى ذلك يقول المقريزى " وأقلع باقى الفرنج مستهل سنه سبعين " [٤] ومن ورائهم سفن المسلمين تطاردهم [٥] ولاشك أن عرب الاسكندرية الذين ساهموا فى الدفاع عنها هم من القبائل اليمنية التى استقرت بالمدينة منذ ولاية عمرو بن العاص

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، حـ١ ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، السلوك حـ١ ق ١ ، ص ٥٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ١ ص ٥٥.

(٣) المقريزى ، السلوك حـ١ ق١ ، ص٥٥.

(٤) ابو شامة ، الروضتين حـ١ ، ص ٢٣٠ ، المقريزى ، السلوك حـ١ ق ١ ص ٥٥.

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، تحقيق د. الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ٢ - ص ١١ - ١٦ .

بقصد الرباط والجهاد ، ومنهم لخم وجذام وكندة والأزد وحضرموت وخزاعة والمزاغنة ، فكانت لخم تنزل في الموضع المعروف بكوم الدكة ، وجذام في "بركة جذام" وكندة بالمراكل والازد بحارة الازدى" وحضرموت بشارع الحضارمة ، في حين استقرت خزاعة والمزاغنة بناحية أبي قير شرقي الاسكندرية بقصد حراسة ميناءها .

ويذكر النويري السكندري أن ذرية هذه القبائل كانت موجودة في زمنه حتى سنة ٧٧٦ التي كتب فيها كتابه "الالمام بما قضت به الأحكام" وأنهم كانوا يعرفون فيها بالقبائل وان عدد مقدميهم بلغ ثلاث وأربعون مقدما لكل منهم جماعة من القبائل لم يخرجوا عن طريق ملبوس العرب .[1] .

جـ - صلاح الدين بعد معركة الاسكندرية :

بعد هذا الانتصار الذى حققه أهل الاسكندرية ومن انضم اليهم من عرب اليمن ، عزم صلاح الدين على تدعيم الوحدة الاسلامية وتأليف جبهة اسلامية متحدة تضم مصر والشام تمهيدا للجهاد الأعظم ضد الصليبيين ، لأنه رأى بثاقب بصيرته أنه لانجاة للعرب الا في وحدتهم ، وقد نجح في تحقيق هدفه نجاحا لم يكن في

(١) النويرى السكندرى ، الالمام بما قضت به الأحكام ، صورة شمسية من مخطوطة المدد ، ص ٧٧ ب ، د / عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٢ .

الحسبان – ومنحه الخليفة العباسى تفويضا بحكم مصر والشام واليمن والمغرب وغيرها .[١]

ثم عقد صلاح الدين بعد ذلك العزم على الجهاد الأعظم ضد قوى الفرنج فغادر مصر للمرة الأخيرة الى الشام عام ٥٧٨ سنة (١١٨٢) بعد أن وطد نفوذه بها واستقرت له الأحوال ، وقدر له أن يبقى ببلاد الشام حتى وفاته .

وفى يوليو سنة ١١٨٢ أغارت قواته على اقليم الغور المحيط ببيسان واحتلت قواته بيسان عنوة . وانضم معه فى صفوف الجيش عدد كبير من قبائل العرب يحاربون الصليبيين معه ، وقد أغار العرب على جنين واللجون وسهول يافا حتى قاربوا مرج عكا .[٢] وممن استشهد من أمراء العرب فى فلسطين زامل ومظرف وحجى[٣] من آل ربيعة وهم بطن من طئ من القحطانية .[٤]

ولزم صلاح الدين الشام وهو فى جهاد متواصل ضد الصليبيين وحقق انتصارات متتالية حتى عام ٥٨٨ (١١٩٢) انتهت باسترداد معظم ممتلكات الصليبيين فى بيت المقدس والساحل باستثناء ساحل

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ ١ ق ١ ، ص ٥٥

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، (حوادث عام ٥٧٨ هـ)

(٣) عماد الدين الكاتب الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ١٣٨

(٤) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ١٠٠

ضيق يقع بين صور ويافا . ثم وافاه الأجل بدمشق فى صفر ٥٨٩هـ (١١٩٢) .[1]

(٢)
فى عهد خلفاء صلاح الدين

****

لم تلبث الجبهة الاسلامية التى حقق صلاح الدين وحدتها أن تفككت بعد وفاته ، وتمزقت الوحدة التى قضى معظم حكمه يرعاها ويتعهدها . ووجد الخلف بين حكامها من أبناء واخوة صلاح الدين[2] فضعفت شوكة الاسلام فى عهد خلفائه .

ومن هنا قوى عزم الفرنج على استرداد ماكانوا فقدوه فى عهد صلاح الدين .

أ- مهاجمة اسطول الفرنج لمدينة دمياط عام ٦١٥ (١٢١٨) ودور العرب فى الدفاع عنها :-

عندما رأى الفرنج تفكك الوحدة الاسلامية فى أعقاب وفاة صلاح الدين اتجهت جهودهم الى توحيد صفوفهم واعداد العدة لتحطيم قوة المسلمين . فبدأوا بالهجوم على بيت المقدس فى عام

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، حـ٦ ، ص ٥١ . ابن اياس - بدائع الزهور ، حـ١ ص ٥٦، ٥٨ .

(٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٣ ، ص ٤١٢

٦١٤ (١٢١٧) ثم عدلوا عن مهاجمة بيت المقدس عندما رأوا ضرورة البدء بالاستيلاء على مصر . فاتجهوا بسفنهم الى دمياط فى الحملة المعروفة بنجان دى بريين فى صفر ٦١٥ (مايو ١٢١٨) ، ونزلوا على البر الغربى لها . وكان النيل يحول بينهم وبين دمياط . ثم بدأوا فى مهاجمة حصن دمياط حتى استولوا عليه وكانت تمتد من هذا الحصن سلسلة ضخمة تتصل بسور دمياط لتمنع السفن القادمة من الشمال من الوصول الى داخل البلاد . [1] فقطعوها فاسرع المصريون وأقاموا جسرا بدل السلسلة ليمنعوهم من عبور النهر ولكنهم استولوا على الجسر أيضا فأغرق المصريون عدة سفن بعرض النهر - لتعترض العدو من الوصول الى الداخل .

ثم لجأ العدو بعد ذلك الى خليج قديم كان يجرى فيه النيل فحفروه وعبروا بسفنهم الى أن وصلوا الى مكان يسمى "بورة" ليقفوا فى مواجهة القوة المصرية المدافعة التى كانت تنزل فى البر الشرقى عند المنزلة أو العادلية [2] .

وحين ورد الخبر بموت الملك العادل بالشام وخلفه ابنه الملك الكامل محمد فى حكم مصر . وعند ذلك لجأ قائد الجيش وهو

---

(١) ابن الأثير الكامل ، جـ١٢ ، ص ١٤٨ - الخطط ، جـ١ ، ص ٣٤٧

(٢) نفس المصدر ، السلوك ، جـ١ ق ١ ، ص ١٩٤ - ٢٠٢

عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب الى تدبير مؤامرة لخلع الكامل وتولية أخيه الفائز بدلا منه طمعا فى السيطرة عليه [1] .

وأحس الملك الكامل بما يدبر ضده فى الخفاء فانسحب ليلا من المنزله واتجه الى اشموم طناح وهى التى عرفت باسم المنصورة فيما بعد . فلما علم ابن المشطوب انسحب هو الاخر بقواته الى حيث عسكر الملك الكامل تاركا دمياط بغير دفاع . فلما علم الفرنج بما حدث عبروا البر الشرقى الى دمياط فى ذى القعدة على ٦١٥ (١٢١٨) . ثم شرعوا فى بناء سور حولهم وحفروا خندقا ليتحصنوا خلفه ثم هاجموا المدينة . ولكن استبسل الأهالى فى الدفاع عنها . كان الفرنج يتناوبون القتال لكثرتهم بينما كان عدد المدافعين عن المدينة من الأهالى لايسمح بمثل ذلك بينهم ومع ذلك فقد ثبتوا فى مواقعهم . وواصلوا الصمود مدافعين دون أن يتطرق اليأس الى نفوسهم رغم ماأدى اليه الحصار من قلة الأقوات مدة الحصار من ذى القعدة عام ٦١٥ (١٢١٨) الى شعبان ٦١٦ عندما تمكن العدو من اعتلاء الاسوار والاستيلاء على المدينة [2] .

كان للانسحاب رد فعلى سلبى فانتشرت أعمال السلب والنهب فى بعض الجهات نواحى دمياط نتيجة لاضطراب الموقف بعد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، حـ١٢ ، ١٤٩ - الخطط ، حـ١ ، ص ٣٤٩ ، السلوك ، حـ١ ق ١ ، ص ١٩٤ - ٢٠٢

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، حـ١٢ ، ص ١٥٠ - المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ٣٥٠ ، السلوك ، حـ١ ق ١ ، ص ١٩٤ - ٢٠٢

الانسحاب المفاجئ [١] . ونسبت أحداث هذا الاضطراب الى قبائل العرب فى تلك النواحى وقيل أنهم فعلوا ذلك استخفافا بالسلطة لانشغالها بالدفاع عن البلاد .

من المؤكد وبحكم طبيعة الظروف أن جرائم السرقة تزيد نسبتها في الحرب عنها فى زمن السلم . ومما هو جدير بالملاحظة أن الأمور سرعان ماعادت الى طبيعتها بعد أن قام رهط من العلماء ورجال الدين بتوعية الأهالى فسرى الحماس فى نفوس الكثير من الأهالى العرب والمصريين وتنافسوا على حمل السلاح والذود عن شرف البلاد ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله " فاجتمع عالم لايقع عليه حصر " ويقول أيضا " واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى مابين أسوان الى القاهرة " [٢] .

ب- اشتراك العرب في الدفاع عن دمياط واستردادهم لها .

ما ان حملت الأنباء الى الملك الكامل الأيوبى نزول الفرنج بالجانب الغربى من دمياط حتىأمر بالاستعداد لمواجهة العدو والدفاع عن البلاد ، وتذكر المصادر العربية بأنه أمر والى الغربية " بجمع العربانِ وسار فى جمع كبير وخرج الأسطول فأقام تحت دمياط

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص ١٤٩ - المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥١ المقريزى السلوك ، جـ١ ق ١ ص ١٩٤ - ٢٠٢

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـض ، ص ٣٥١ - السلوك ، جـ١ ق ١ ، ص ٢٠٢

ونزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزل العادلة " [١] . وينوه المقريزى بالدور الرائع الذى قام به العرب أثناء حصار الفرنج لدمياط فيقول " والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة بحيث منعهم ذلك من الرقاد وخوفا من غاراتهم فتكالب العرب عليهم حتى صاروا - يختطفونهم نهارا ويأخذون الخيم بمن فيها " [٢] .

كان التعاون كاملا بين قبائل العرب من بنى كنانة وبنى مدلج وبنى عدى وغيرهم وبين الجيش الأيوبى للدفاع عن دمياط . لقد أكد المقريزى أن السلطان بعث الى شارمساح " ألفى فارس فى آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط "[٣] ثم قامت بعض قطع الاسطول الأيوبى بالتعاون مع الجيش فى عملية تطويق العدو بدمياط فانقطعت عنه المؤن والزخيرة برا وبحرا [٤] . ومما يروى فى هذا الصدد أن الملك الكامل عندما أحس بخطر الهجوم الصليبى على دمياط ، وكان كتب الى الحكام العرب فى سوريا والعراق وغيرهما [٥] وقبل أن يتمكن منه اليأس كانت النجدات العربية قد وصلت الى مصر . وفى ذلك يقول المقريزى "وتتابع مجئ

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٤٩ - السلوك ، حـ١ ق ١ ، ١٩٤ ص -١٩٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ١ ، ص ٢٠٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٣

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، حـ١٢ ، ص ١٥٠

الملوك حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس " (١) وقد قوى عزم المصريين بالنجدات العربية التى وصلت الى مصر . ورغم ذلك فقد كان حماس أفراد الشعب من المصريين والعرب فى مهاجمة العدو بدمياط يفوق حماس العسكر . قال المقريزى أن المصريين والعرب كانت تكر على الفرنج أكثر من العسكر . (٢)

وقال أيضا أن عدد المتطوعين من شعب الاسكندرية ومنهم بطبيعة الحال قبائل العرب من لخم وجذام وغيرهم بلغ ثمانية آلاف مقاتل (٣) . وبينما كانت النجدات العربية تتوالى على مصر كانت المساعدات الاوربية تصل الى العدو فى دمياط ارسالا . ذلك ان سقوط دمياط في يد الفرنج كان له دوى هائل فى أنحاء أوربا . وظن الفرنج أنهم بدمياط يستولون على مصر كلها . فقدمت أعداد هائلة من المقاتلين من دول الغرب الى دمياط واشتد طمعهم فى غزو مصر . ثم بدأ الخطر يظهر من الشرق أيضا من جانب التتار (٤) ثم تقدم العدو من دمياط وواجه المصريين فى المنصورة. وكان يحجز بينهما بحر أشموم ، واستمرت المواجهة كان النيل قد

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ١ ، ص ٢٠٣ - ابن اياس ، بدائع الزهور حـ١ ، ص ٦٤

(٢) السلوك ، حـ١ ق ـ١ ، ص ٢٠٦ (هذه العربية المقاتلة وخاصة بنى الكنانة عرف أفرادها بالشجاعة الفائقة فى القتال والجرأة على الأعداء والقدرة العالية على استخدام أساليب الكر والفر فى قتالها مع العدو . كذلك عرف فرسان العرب من فنون القتال الشئ الكثير) .

(٣) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥١

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، حـ١٢ ، ص ١٥١ - المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق١ ، ص ٢٠٣

بدأ فى الزيادة تمهيدا للفيضان النوبى فتقدم جماعة من المتطوعين العرب وعبروا الى الأرض التى يحتلها العدو وفتحوا ثغرة فى النيل فتفجرت منها المياه الى العدو فمنعته من الوصول الى دمياط وانقطعت طرق الاتصال بينهم وبين قاعدتهم دمياط . وتعذر عليهم الحصول على المؤن والأسلحة التى كانت فى معسكراتهم فى دمياط وتخلوا عنها عندما زحفوا ظنا منهم أنهم سوف لايحتاجون اليها لقوتهم وضعف المدافعين وقلتهم . وازاء هذا الوضع المتحرج اضطروا الى طلب الصلح على أساس الانسحاب من دمياط فأجيبوا الى ذلك وفى ١٩ رجب عام ٩١٨ تم انسحاب الفرنج من دمياط يجرون وراءهم أذيال الخيبة والفشل [1] .

جـ - حملة لويس التاسع على دمياط ودور العرب فى الدفاع عنها

فى عام ٦٤٦ (١٢٤٨) وردت الأنباء الى مصر بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد عزم على غزو مصر ، فأصدر الملك الصالح نجم الدين أيوب أوامره باعداد الجيوش للدفاع عن دمياط برا وبحرا وأسند قيادة الجيش الى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وفى المحرم من ٦٤٧ نزل الصالح بأشموم طناح بالقرب من دمياط رغم مرضه للاشراف على سير المعركة بنفسه ، وفى صباح يوم الجمعة ٩ صفر قدمت الحملة الى مصر وأرست بأسطولها على ساحل دمياط . وكان فرنج الساحل قد انضموا الى الحملة بحيث

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ١ ، ص ٣٠٧

بلغ عددهم نحو خمسين ألف مقاتل [١] أما سفنهم فقد بلغ عددها على حد قول ابن اياس " مائتى سفينة " [٢]. وفى يوم السبت نزل العدو الى البر . ووقع القتال بين الفريقين واستشهد وفى يوم الأحد قرر قائد الجيش الانسحاب من دمياط وتبعه الأهالى فاستولى عليها العدو . ووصلت أخبار الانسحاب من دمياط الى الملك الصالح ، فتوجه فى شهر صفر الى المنصورة [٣] وأمر باصلاح أسوارها وبنزول الأسطول الى مياهها لمواجهة العدو والتصدى له . ثم أمر بجمع العربان فاجتمع منهم عددا لايدركه الحصر . ويذكر المقريزى أن المتطوعين من العرب والمصريين من جميع أنحاء مصر بدأوا يقاتلون العدو بالهجوم عليه فيقتلون ويأسرون. ففى أول شهر ربيع الأول بدأت الأعمال الفدائية ضد العدو فوقع فى يد الفدائيين العرب ستة وثلاثين أسيرا كان من بينهم اثنان من فرسان العدو ، أرسلا الى القاهرة مكبلين بالحديد [٤] .

ثم تتابعت الأعمال الفدائية ضد العدو وتتابع أيضا سقوط مزيد من الأسرى . فسقط فى اليوم الخامس من نفس الشهر تسعة وثلاثين أسيرا ثم اثنان وعشرون فى اليوم السابع وخمسة وأربعون

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ١٢ ص ١٥١ - المقريزى السلوك ، جـ١ ق ١ ص ٢٠٧ المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٣ - السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٦٨

(٣) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٣ - السلوك ، جـ١ ، ق ٢ ، ص٣٣٣

(٤) المقريزى السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٣٧ - بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٦٩

فى اليوم السادس عشر من بينهم ثلاثة من فرسان العدو . وبلغ عدد الأسرى فى شهر جمادى الأولى خمسين أسيرا . وفى شهر رجب كان عدد من أسر من الفرنج سبعة وأربعين جنديا ، وأحد عشر فارسا ، كذلك استولى المسلمون على مركب حربى وأسروا جنوده [1] .

ثم توفى الملك الصالح فى ١٤ شعبان ٦٤٧ وكتم خبر موته ولم يذع الا بعد مضى اسبوع من موته . ولما علم الفرنج بخبر موت الملك زحفوا من دمياط الى فارسكور فى ٢٥ شعبان فى محاذاة المصريين بالمنصورة . وشرعوا فى مناوشتهم . فى اليوم التالى أعلن الجهاد المقدس من فوق منبر الجامع الأزهر وسرعان ماانتشر نبأ الجهاد فى أنحاء مصر كلها . واشتد حماس الجماهير فى مصر للتطوع للجهاد . فخرج الناس من القاهرة - وسائر الأعمال "فاجتمع عالم عظيم" لايقع عليه حصر [2] واستمر تقدم الفرنج فوصلوا الى شارمساح فى أول رمضان ثم البرمون فى السابع من الشهر نفسه ثم صاروا فى مواجهة المنصورة يوم ١٣ منه . ولم يكن يفصل بين القوات المتحاربة غير النهر (بحر اشموم) ثم قام الفرنج بانشاء الأسوار وحفروا الخنادق حماية لمعسكرهم بالبرمون

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥٥ - السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٣٣٧ - بدائع الزهور ، حـ١ ، ص ٦٩ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥٦ ، السلوك ، حـ١ ق ٢ ص ٣٣٧ - محمد عبد المعطى ، أبى الفتح ، تاريخ الاسماعلى ، ص ١٨٠ ,

من هجمات الفدائيين العرب . ثم صوبوا أسلحتهم فى مواجهة المصريين بالمنصورة وواجهت سفن الفرنج سفن المصريين فى بحر اشموم . ثم بدأ القتال بين الفريقين فى البر والبحر . وفى نفس الوقت أخذ الفدائيون من العرب والمصريين يهاجمون معسكر الفرنج وعملوا على ازعاجهم ومنعوهم من الاستقرار والراحة .

ويصف المقريزى هذا الدور العظيم الذى قام به الأهالى من العرب وغيرهم ضد الفرنج فيقول "وأبلى عوام المسلمين فى قتال الفرنج بلاء كبيرا وانكوهم نكاية - عظيمة وصاروا يقتلون منهم ويأسرون" [١] . ومن أطرف ماذكره المقريزى عن الدور الفدائى للأهالى دفاعا عن المنصورة قوله أن الفدائيين من الأهالى كانوا " يتحيلون فى اختطاف الفرنج بكل حيلة ولايهابون الموت حتى ان الانسان قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس بها فى الماء حتى حاذى الفرنج فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتى يأخذها فخطفه وأتى به الى المسلمين " [٢] .

واستمرت مضايقة العرب للفرنج وانزعاجهم حتى سببت لقيادتهم الشعور بالفزع والارتباك . [٣] مما دفع أحد كبار القادة هو الكونت أرتوا شقيق الملك لويس التاسع قائد الحملة الى القيام

---

(١) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥٦ - السلوك حـ١ ق ٢ ، ص ٣٤٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ - السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٣٥١ .

بمغامرته المعروفة التى بدأها بالهجوم على معسكر المصريين بالمنصورة والتحم القتال بين الفريقين ورجحت كفة الفرنج بعد أن تمكنوا من قتل بعض القادة المماليك والوصول الى قصر السلطان . لولا أن القائد المملوكى ركن الدين بيبرس البندقدارى أسرع بقواته وقاتل الفرنج المهاجمين واستطاع أن يردهم عن قصر السلطان . فلما تراجعوا عن القصر فقدوا السيطرة على المعركة . وبدأ الموقف - يتحول لصالح المصريين ، حتى انتهى اليوم بانتصارهم وهزيمة الفرنسيين .

ويذكر ابن اياس دور الأهالى الكبير فى معركة المنصورة فقال "ركب الأمير بيبرس البندقدارى والأمير لاجين وغيرهما من الأمراء وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين ومنهم قبائل العرب من بنى كنانة وبنى مدلج وبنى عدى وفى أيديهم المقاليع والحجارة [1] وهجم المماليك البحرية وفى أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ومنهم طائفة يرمون بالنشاب فحملوا على الفرنج حملة واحدة [2] "وقد سقط الشهداء من الأهالى - والمماليك جنبا الى جنب دفاعا عن مصر . [3]

---

(1) د/ على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٧٤

(2) السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٣٥٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ص ٧٠

(3) السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ١٤٩ - ٣٥١ - بدائع الزهور ، حـ١ ، ص ٧٠

وترجع أسباب انتصار المسلمين في دمياط الى العوامل التالية :-

١- وحدة مصر والشام . فان بشائر النصر لاحت منذ وصول الجيوش الشامية الى مصر .

٢- الدور الفعال الذى قام به الأهالى واستبسالهم فى القتال التماسا للشهادة بتوجيه ايجابى من العلماء ورجال الدين الذين نجحوا فى اقناع الأهالى بخطورة الموقف وأهمية النظام وحفظ الأمن واثارة المشاعر الوطنية وماأعقب ذلك من تدفق الجماهير القادرة على حمل السلاح . فارتفعت الروح المعنوية . وكان لهم دور بارز فى مضايقة العدو واضعاف معنوياته .

٣- جهل العدو بطبيعة الأرض المصرية وطبيعة نهر النيل

٤- معرفة المصريين لطبيعة الارض المصرية واستخدام هذه الطبيعة فى قتالهم مع العدو باغراقه فى مياه النيل عندما حل موسم الفيضان.

الفصـــــل الثـــــانى

* * * * * * * * * * * * * * *

دور العرب الحربى فى الدفاع عن مصر زمن المماليك

١- اشتراك العرب فى الوقائع الحربية الهامة فى عصر المماليك .

يتميز عصر دولة المماليك بوقوع أشهر المعارك الحربية وأخطرها فى تاريخ مصر الاسلامية . وأول هذه المعارك الحربية التى وقعت حوادثها قريبا من الحدود الشرقية لمصر وعلى أرض الشام بفلسطين معركة عين جالوت . التى وقعت بين المسلمين والتتار فى عهد السلطان المظفر سيف الدين قطز سنة ٦٥٨ (١٢٥٩) ثم تكرر وقوع المعارك الحربية بين العرب والمغول بعد معركة عين جالوت على أرض سوريا عى عهود سلاطين المماليك . الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون والناصر محمد بن قلاوون أما بالنسبة للصليبيين فقد استمر الصراع قائما بين المماليك والفرنج الى أن تمكن الاشرف خليل من القضاء عليهم نهائيا فى الشام هذا وقد امتد أمد الصراع بين قوى المسلمين والصليبيين من جهة وبينهم وبين التتار والمغول من جهة أخرى ، من منتصف القرن السابع الى منتصف القرن الثامن الهجرى حيث تخللتها حروب خارج حدود مصر كتب النصر فيها للمسلمين على أعدائهم المغول والصليبيين على السواء .

أما الفترة التى تخللت المدة مابين عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى معركة مرج دابق وتبدأ من طليعة القرن الثامن الهجرى على

وجه التقريب الى بداية العقد الثانى من القرن العاشر . فتتميز بظهور مشاكل داخلية هامة ترجع الى أسباب سياسية واقتصادية .

وفيما يلى دراسة مقتضبة لمعركة عين جالوت وغيرها من المعارك التى خاضها المماليك ضد قوى المغول وتقييم بالدور الذى قام به العرب .

معركة عين جالوت

عين جالوت قرية صغيرة من قرى فلسطين تقع بين نابلس وبيسان التقت فيها جيوش الاسلام مجتمعة على جيوش المغول وفيها دارت الدائرة على قوى المغول فى ١٥ رمضان ٦٥٨ - (اغسطس ١٢٦٠) .

وموقعة عين جالوت من المواقع الحاسمة فى التاريخ العام العالمى . ففيها نجح المماليك وخلفاؤهم فى ايقاف سيول المغول الجارفة التى اجتاحت حدود العالم الاسلامى والعرب من الشرق الى الغرب آلاف الأميال دون عائق أو مانع ومكنتها الظروف من نسج اسطورة القهر الى أن قوضها المماليك فى عين جالوت . وأصبحت القاهرة بعد بضع سنوات من تحقيق هذا الانتصار قاعدة الاسلام ومقر الخلافة العباسية .

(أ) – الموقف قبل معركة عين جالوت

عندما فشلت حملة لويس التاسع على مصر وانسحبت من دمياط في عام ٦٤٨ (١٢٥٠) عمد لويس التاسع الى الاتصال بالمغول في الشرق وأرسل اليهم كتابا يعلن لهم فيه عن رغبته في عقد تحالف معهم ضد العرب بقصد الاستيلاء على بيت المقدس .

أما هيثوم ملك أرمنيه وبوهيموند السادس أمير انطاكية فكانا يدفعان الجزية للمغول ، كما بعثا برسائلهما بهدف اقامة حلف صليبي مغولي ضد الاسلام . ولكن لم يكتب للصليبيين أن يلعبوا دورا في المعارك الحربية التي دارت بعد ذلك بين المسلمين والتتار . وذلك بسبب الضعف الذى لحق بالصليبيين نتيجة للخلافات الداخلية التي وقعت بينهم حين ذاك . (١) وبالفعل عقد تحالف صليبي مع مانجوخان القائد المغولي ٦٤٦ – ٦٥٥ (١٢٤٨–١٢٥٧). وما أن تحالف الصليبيين مع المغول حتى سير مانجوخان أخاه هولاكو الى العراق للقضاء على الخلافة واستعد لهذا الهجوم بأن زود جيشه بألف مهندس للتخطيط في اقامة الاستحكامات الحربية واعداد الذخيرة قبل بدء القتال وتجهيز المؤن واصلاح الطرق (٢) ولم تلبث بغداد أن سقطت في أيدى المغول في المحرم – سنة ٦٥٦

---

(١) حافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٣٧ ، د/ مختار العبادى سلسلة محاضرات لطلبة الليسانس سنة ١٩٥٨ .

(٢) د/ حافظ أحمد حمدى ، الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٣٧ ، د/ مختار العبادى محاضرات لطلبة الليسانس ١٩٥٨ .

وتبع ذلك ماتبعه من مصرع الخليفة العباسى المستعصم و المذابح الرهيبة التى قام بها الغزاة المتوحشون وفى صفر ٦٥٨ (١٢٦٠) ثم سقوط حلب وفى جمادى الآخرة من نفس العام سقطت دمشق وواصلت جيوش المغول تقدمها الى مصر فنزلوا فى غزة بفلسطين قرب الحدود المصرية استعدادا لغزوها وأرسلوا سفارة بكتاب تهديد الى مصر طالبوا فيه السلطان بتسليم البلاد لهم . أما فى مصر فقد عقد مجلس حرب بالقلعة فى عام ٦٥٧ (١٢٥٨) حضره ابن العديم سفير الملك الناصر صاحب الشام الى مصر . وفى هذا الاجتماع تقرر وضع خطة الاستعداد للحرب [١]

(ب) انضمام العرب الى جيش المماليك فى المعركة

فى عام ٦٥٨ أعلن الجهاد العام وصدرت الأوامر للعرب فى مصر للمشاركة فى الدفاع عن البلاد . واجتمعت قبائل العرب من لخم وجذام وسنبس وبصفة خاصة عرب الشرقية والغربية لقربها من موقع المعركة " فاجتمع من العساكر مالا يحص " [٢] وفى ١٥ شعبان عام ٦٥٨ (١٢٦٠) خرجت جيوش المماليك ومن انضم اليهم من أجناد العرب من القاهرة يريدون الصالحية [٣] ثم بعثوا

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٤١٦ - ٤٢٨ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ١٤٦ - ٤٢٨ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

بطلائعهم بقيادة ركن الدين بيبرس البندقدارى الى غزة للاستطلاع . وكان بها جموع من جيش هولاكو يقودها نائبا هولاكو كتبغا وبيدرا فانسحبوا ودخلتها الطلائع المصرية ثم لحق المظفر قطز بغزة في طريقه الى عكا . وفى عكا طلب من الصليبيين الالتزام بالحياد وعدم التدخل . فى المعارك القادمة بين المسلمين والمغول . ثم تقدمت الطلائع بعد ذلك الى عين جالوت وتقابلت مقدمة الجيش المملوكى مع مقدمة الجيش المغولى فى قتال عنيف انتهى بانتصار المماليك وفى ٢٥ رمضان التحم الجيشان فى معركة فاصلة فى عين جالوت انتهت بهزيمة التتار وانتصار المسلمين [١] ثم تتابعت انتصارات المسلمين على التتار بعد عين جالوت . فتكررت هزيمتهم فى بيسان وتحررت دمشق فى آخر رمضان من عام ٦٥٨ (١٢٦٠)[٢]. وفى شوال واصلت جيوش المماليك تقدمها من دمشق الى حمص ثم الى حلب وتم تحرير بلاد الشام من سيطرة المغول الى الفرات .

ومما لاشك فيه أن عرب مصر الذين خاضوا غمار المعركة أبلوا بلاء حسنا واستبسلوا فىالقتال ولعبوا دورا هاما فى تحقيق النصر فقد كانوا مايزالوا شوكة الاسلام ودرعه الواقي فى مصر وكانوا يهبون للدفاع عن البلاد والذب عن الاسلام فى اللحظات الحاسمة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣١ - بدائع الزهور جـ١ ص ٨٠ .

(٢) نفسه . ، ٤٣٢ ، ابن اياس ، بدائع ، جـ١ ، ص ٨٠ .

وكان فرسانهم أهم مقومات القوة العربية الضاربة ولهذا كان لفرسان العرب أثر عميق فى تنفيذ النصر .

(جـ) - دور العرب بعد عين جالوت

اعتلى الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى كرسى السلطنة المملوكية فى مصر على أثر خلاف وقع فى صفوف أمراء المماليك عقب انتصارهم على التتار فى عين جالوت . وتأثرت الأحوال السياسية فى البلاد المصرية والشامية بهذا الخلاف ، وقد شجع ذلك التتار على معاودة الكرة وهم يتوهمون ضعف الموقف الداخلى فى مصر اعتقادا منهم أنه فى ظل هذه الظروف الجديدة يمكنهم تحقيق نصر سريع الانتقام يمحون به وصمة عار عين جالوت . فبادرت جيوش التتار الى الهجوم على البلاد الشامية . ففى عام ٦٥٩ (١٢٦٠) شنوا هجوما على شمال الشام حتى حمص ، الا أن أصداء الانتصارات المملوكية كانت لاتزال تتردد فى أجواء البلاد ، كما أن انتصار المسلمين على أعدائهم قضى على اسطورة القوة المغولية التى لاتقهر فأصبحوا لايهابون أعداءهم - فلما عاود التتار هجومهم لم يتمكنوا رغم كثرتهم العددية من الصمود أمام قوة العرب ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله "وفى عام ٦٥٩ اجتمع من التتار ستة آلاف فارس وقاموا بحمص فبرز اليهم الملك الأشرف موسى ابن شيركوه صاحب حمص والملك المنصور صاحب حماه واجتمع اليهما قدر ألف وأربعمائة فارس وقدم زامل بن على أمير

العرب فى عدة من العربان. ، وواقعوا التتار يوم الجمعة الخامس من المحرم على الرستن [1] فأفنوهم قتلا وأسرا . ووردت البشارة الى مصر بذلك . وكانت التتار فى ستة آلاف والمسلمون فى ألف وأربعمائة [2] ثم وقعت معركة حلب وهزم فيها التتار شر هزيمة.[3] ثم واصل الظاهر بيبرس سلطان مصر معاركه ضد التتار واستعان بعرب مصر فى معاركه جميعا ضد التتار والصليبين على السواء [4] ففى جمادى الاولى من عام ٦٦٣ (١٢٦٤) قامت جماعة من التركمان ، والعربان بمهاجمة أبواب عكا وأسروا جماعة من الفرنج وفى عام ٦٧٢ (١٢٧٣) قامت حملة حربية لمطاردة التتار شمال الشام وتتبعهم فى الشمال الشرقى حتى خارج الحدود السورية. وقد اشترك فى هذه الحملة فرسان من مصر من العرب تلبية لأمر السلطان بيبرس ، بأن يخرج جميع العرب وكل من له فرس فى مصر للحرب.

وبعد معركة عين جالوت شارك عرب مصر فى معارك لاتقل فى أهميتها عن معركة عين جالوت ، فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ٦٧٩ - ٦٨٩ (١٢٨٠-١٢٩٠) تعرضت سوريا

---

(١) تقع الرستن فى منتصف الطريق بين حماه وحمص (السلوك حـ١ ق ٢ ص ٤٤٢ هـ ٤ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة حـ١ ٧ ، ص ٣٠٢.

(٢) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٤٤٣

(٣) نفس المصدر - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، حـ٧ ، ص ١٠٤ - ١٠٩

(٤) انظر - (Wiet: : I.' Egypte Arabe. P. 421)

لخطر الهجوم المغول ووردت الأخبار الى مصر بأن المغول قد أعدوا لهذه المعركة على نحو لم يسبق أن أعدوا مثيلا له منذ عشرين عاما وأن عددهم بلغ ثمانين ألف جندى وأنهم وصلوا الى مشارف الشام فى جمادى الاولى من عام ٦٨٠ (١٢٨١) وكانوا يتقدمون فى بطء وتؤده على غير عادتهم فى الهجوم فعند ذلك قامت مصر باعداد جيشها وانضم الى الجيش المملوكى عرب مصر والعراق والشام وصاروا جيشا واحدا فى مواجهة جيش المغول والتتار .

ويشير المقريزى الى ذلك بقوله فشرع السلطان فى عرض العساكر واستدعى الناس فحضر الأمير أحمد بن حجى من العراق فى جماعة كثيرة من آل مرا تكون زهاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح . وقدمت عساكر مصر وسائر العربان ثم توجه الجيش بعد ذلك الى حمص فى ١١ رجب من نفس العام [1] ثم بدأ السلطان قلاوون فى تنظيم الجيش قبيل بدء المعركة . وجعل فى رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مرا وعربان الشام ومن انضم اليهم . وفى ١٤ رجب ٦٨٠ (١٢٨١) . بدأت معركة حمص فالتقى الجيشان وواجهت الميمنة العربية أعنف هجوم وصمدت الميمنة ثم اندفعت فى الهجوم الى ميسرة جيش المغول واخترقت صفوفها وواصلت تقدمها الى قلب الجيش المغولى ، وفى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٣ ، ص ٦٨٥ - ٦٩٢ - ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

نفس يوم ١٤ رجب انتهت معركة حمص بانتصار ساحق للعرب[١] وفى عام ٧٠٢ (١٣٠٢) . (فى عهد الناصر محمد بن قلاوون) عاود التتار الهجوم على مدن الشام فى أكثر من مائتى ألف وجاءت الأخبار الى مصر بوصولهم قرب حماه ولكن مصر كانت قد أعدت عدتها لمثل ذلك الهجوم واستدعى السلطان عرب الشرقية والغربية ، واحتشدوا بالريدانية .

ومن هناك خرجت القوات المقاتلة من العرب والمماليك متجهة الى مرج راهط . وفى مرج راهط شرقى الغوطة اشتبك الجيشان الاسلامى والمغولى فى أول رمضان ٧٠٢ (١٣٠٢) وكان عدد المغول يتجاوز مائتى ألف والعرب فى نحو هذا العدد واستمر القتال بين الجيشين ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع حلت الهزيمة بجيش المغول

ووقعوا فى أيدى العرب بين قتيل أو أسير وجريح [٢] كما قتل نحو ألف وخمسمائة من المماليك غير من قتل من العرب . أما الأسرى الذين بلغ عددهم نحو ثلث جيش المغول فقد دخلوا القاهرة مكبلين فى الحديد فى ١٣ شوال عام ٧٠٢ (١٣٠٢) . [٣]

---

(١) نفس المصدر – ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٩٦

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٢١

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٣

دور العرب الدفاعي في عصر دولة المماليك الجراكسة

في عام ٨٠٣ (١٤٠٠) وردت الأنباء الى مصر بوصول جيش تيمورلنك الى قرب حدود الشام الشمالية الا أن رد الفعل عند السلطان فرج جاءت ٨٠١ - ٨٠٨ (١٣٩٨ - ١٤٠٥). بطيئة الى الحد الذى أتاح لتيمورلنك بالتمكن من البلاد ومهاجمة حلب فى ١١ ربيع الأول . وفى ٣ ربيع الآخر تحرك الجيش المملوكى من مصر فوصل الى دمشق فى ٦ جمادى الأولى وحدث فى ذلك اليوم اشتباك بين طلائع من جيش تيمولنك بلغ عددها ١٠٠٠ فارس وبين طلائع من جيش الحرس السلطانى وكانو نحو مائة فارس تمكنوا من ايقاع الهزيمة بفصائل الحدود التيمورية وأرغموها على الفرار [١] .

كذلك اشترك قبائل العرب فى بلاد الشام فى المعارك الضارية ضد جيش تيمورلنك . وكثيرا ماكانو يتغلبون عليه ويهزمونه فيفر المغول مدبرين [٢] . و لم تلبث قوة جيش تيمورلنك أن ضعفت بعد مقتل أحد أبنائه وانسحب كثير من جنوده ولجأوا الى معسكر السلطان فرج بقصد الدخول فى خدمته . [٣]

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٣ ، ص ٢٨٩

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفسه ..

غير أن خلافا وقع في معسكر السلطان فرج اضطره الى العودة الى مصر ، والظاهر أنه قرر العودة لتدعيم قوته بعناصرعربية بدليل أنه جهز جيشه بعدد كبير من العرب فقد بلغ عدد من تقرر اشتراكهم من قبائل العرب مايلى :-

ستة آلاف فارس من عرب البحيرة وألفان وخمسمائة فارس من عرب الشرقية وألف وخمسمائة فارس من عرب بنى وائل - وبلغ عدد فرسان عرب جبل نابلس خمسة آلاف [1] .

ومن عجائب الأمور أنه رغم الاستعداد العسكرى وشجاعة المدافعين عن الشام من عرب مصر والمماليك ، فان تيمورلنك استطاع التسلل الى بلاد الشام ، فدخلها بغير قتال . ويرجع السبب فى ذلك الى أنه بعد أن ضعف موقف تيمورلنك وانسحب جيشه الى خارج حدود الشام ، قفل الجيش المملوكى هو الآخر عائدا الى مصر ، ولم يكن ذلك بسبب انسحاب جيش تيمولنك فقط وانما بسبب فتنة وقعت فى الجيش المملوكى اضطر السلطان على اثرها الى الانسحاب والعودة الى مصر.

فانتهز تيمورلنك فرصة انسحاب الجيش المملوكى من الشام وبدأ خطة جديدة قوامها مفاوضة أهل الشام والتظاهر بطلب الصلح ، ونجح العدو فى خطته وتمكن من دخول البلاد بالخديعة ، فكان يبعث جنوده ارسالا حتى لايلحظ ذلك أحد الى أن تمكن من

(1) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٢٨٨

السيطرة على البلاد . وعندئذ أطلق جنوده تحصد أرواح الأبرياء وتستولى على الممتلكات فلما وصلت أنباء ذلك الهجوم الى مصر بدأ السلطان يتأهب من جديد للعودة الى الشام . ولكن تيمورلنك لم يلبث أن انسحب بجيشه فى ٢ شعبان أى بعد ثلاثة شهور من احتلاله للأراضى الشامية .(١)

د- دفاع العرب فى الريدانية

بعد أن هزم المماليك أمام العثمانيين فى مرج دابق فى رجب ٩٢٢ هـ وقتل السلطان الغورى فى ساحة المعركة . تولى نائبه طومان باى الحكم فى مصر . ثم بدأت المعارك بين العثمانيين والمماليك فى مصر بعد ذلك .

ففى أول عام ٩٢٣ (١٥١٧) كان العثمانيون قد وصلوا الى الريدانية . وبدأ العرب والمصريون دورهم فى الدفاع عن مصر فقاموا بالهجوم على العثمانيين فى معسكرهم بالريدانية . واستخدموا القلاع والحجارة من أسلحة القتال . وقاموا بدور فعال فى المعركة الى جانب الجيش . ففى الخامس من المحرم فاجأ الأشرف طومان باى العثمانيين بالهجوم عليهم وتطويقهم فاضطربت أحوال السلطان سليم للغاية وأيقن بالأسر . وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق فيها النار فاحترق بعض خيام من وطاقه وأوقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر العثمانيين مالا يحصى

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨٩، ٢٩١ .

عددهم . واحتشدت لقتال العثمانيين بجموع هائل من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرهم . وأخلوا يرجمون فى الوطاق بالمقاليع والحجارة " واستمروا على ذلك الى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار من الناصرية عند الميدان الكبير فاسعفهم "(١).

وواصل العرب وأهل القاهرة هجومهم على معسكر العثمانيين فاقتحموا المعسكر واستولوا على الغنائم (٢) وكان لذلك أعظم الأثر فى اضعاف روح العثمانيين المعنوية . وفى القاهرة دارت المعارك من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت وكانت الحرب سجالا بين الطرفين ، وكان العرب والمصريون عونا لطومان باى (٣) وظل المماليك والأهالى يقاتلون حتى أعيدت الخطبة فى المساجد باسم طومان باى بعد مضى أسبوع واحد من اقامتها باسم السلطان العثمانى .

وهكذا تحول الموقف لصالح المصريين مرة أخرى بفضل تعاون الجيش والشعب فان الأهالى وان لم يتح لهم القيام بدور رئيسى فى المعركة الا أنهم قاموا فى المقاومة بدور فعال ولكن المماليك خرجوا على خطة طومان باى فى اللحظة الأخيرة فأدى ذلك الى الابتعاد

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١٠٨١

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور جـ٩ ، ص ١٠٨١

(٣) نفس المصدر .

عن الهدف الذى كان قد خطط له من قبل . ومع ذلك فقد استمرت الأحوال فى التحسن لصالح طومان باى فترة اسبوع واحد حتى استولى التعب والارهاق على الجنود المماليك فبدأوا يضعفون عن المقاومة وينسحبون من المعركة [١] . واضطر الأهالى من العرب والمصريين الى مقاومة العثمانيين ومواجهتهم وحدهم . واشتشهد منهم كثير . ثم لجأ السلطان طومان باى الى الصعيد حيث سانده عرب الصعيد ونجحوا فى منع ارسال القمح الى القاهرة تمكينا للضغط على الجيش العثمانى بالقاهرة .

وبفضل تعاون عرب الصعيد تمكن طومان باى من استعادة مركزه العسكرى . ثم أمدته الاسكندرية بالذخيرة ووصلت أخبار هذا الانتصار المملوكى الى القاهرة فأثار ذلك مخاوف العثمانيين . ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله " وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته والتف عليه جماعة كثيرة من العربان واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الكثير وأشيع أنه وصل اليه من ثغر الاسكندرية . زردخاناه مابين نشاب وقسى وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك الأشرف طومان باى." [٢]

---

(١) نفسه .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١٠٨٧

استغل طومان باي حالة التحسن النسبية التى طرأت على موقفه العسكرى فبادر بالاتصال بالعثمانيين ليفاوضهم فى عقد صلح وألمح طومان باى الى ماعنده من قوة عربية مكونة من العرب والمماليك فبعث الى السلطان العثمانى وقال له " ولاتحسب أنى أرسلت أسالك فى أمر الصلح عن عجز فان معى ثلاثين أميرا مابين مقدمى ألف وأربعينات وعشروات ومعى من المماليك السلطانية والعرب نحو عشرين ألف" [1] وأضاف طومان باى فى تلك الرسالة التى وجهها الى العثمانيين قوله أنه انما يهدف الى حقن دماء المسلمين ، فهو حين طلب الصلح نبه اهتمام العثمانين الى قدرته على مواجهتهم بما لديه من قوة وعتاد من كبار القادة المماليك الذين كانوا لايزالون تحت امرته وطوع اشارته فضلا عن الفرسان العرب الذين بلغ عددهم مع المماليك السلطانية نحو عشرين ألف [2] .

وقد بلغ طومان باى هدفه بهذه الرسالة واستجاب له السلطان العثمانى فأرسل وفدا مكونا من القضاة الأربعة على رأسهم الخليفة العباسى ومعهم كتاب الصلح وفقا لما أعلنه طومان باى . وقد توجه القضاه الأربعة بأمر من السلطان العثمانى الى طومان باى بالصعيد وتخلف الخليفة العباسى وأرسل دواداره برد بك نيابة عنه .

---

(1) نفس المصدر .

(2) نفسه .

وهكذا يتكشف دور العرب فى المعارك التى دارت بين العثمانيين والمماليك من القاهرة الى الصعيد . فهم قد مكنوا طومان باى من استعادة قوته الحربية ، فبعث يطلب الصلح من مركز قوة الا أن خطة طومان باى فى الصلح أحبطها جماعة من الأمراء المماليك الجراكسة المعارضين بالصعيد حين تعرضوا لوفد الصلح العثمانى وقتلوا بعض أفراده ، وهكذا ضاعت فرصة الصلح مرة أخرى وكانت معركة الجيزة التى انتهت بهزيمة المماليك . ويصور ابن اياس معركة الجيزة بقوله " وفى يوم الأحد سادس عشر ربيع الأول عدى السلطان سليم الى بر الجيزة بسبب قتال الأشرف طومان باى وقد بلغه أنه وصل الى المنوات ومعه من العربان والعسكر ومن المماليك الجراكسة الجم الكثير "[1] . وفى هذه المعركة أحرز المماليك النصر على العثمانيين أكثر من مرة ولكن البندقية كان دورها حاسما فى انهاء المعركة لصالح العثمانيين [2]

([1]) ابن اياس بدائع الزهور ، حـ٩ ، ص ١٠٩٠

([2]) ظهرت البندقية فى دول الغرب الا أن استعمالها كان شائعا بين العرب المغاربة أيضا ، وقد ظهر استعمال البندقية فى مصر عندما أمر السلطان قايتباى باستخدامها فى الجيش المملوكى ، الا أن استخدامها توقف بعد ذلك فى الجيش . ثم جاء أحد المغاربة فى عهد السلطان الغورى وقدم البندقية باعتبارها من الأسلحة المستحدثة والتى شاع استخدامها بين الروم والمغاربة . ومن العجيب حقا أن السلطان الغورى يرفض استخدامها فى الجيش بحجة أنها من سنة النصارى وليست من سنة المسلمين ، وان الرحل المغربى تنبأ بهزيمة الغورى بنفس هذه البندقية . (ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٥ ، ص ٥٥٨ – أحمد بن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٣٨) .

ألقت الدولة الأيوبية بكل ثقلها لحماية الثغور المصرية الشامية من الخطر الصليبي ولكن الحدود الجنوبية لمصر لم تلق مثل تلك العناية الى حد أنه أهمل شأن الحامية العسكرية التى كانت قائمة على الحدود عند أسوان . مما أدى الى قيام ملك النوبة بشن غارات على المناطق الملاصقة لحدود مصر الجنوبية ، وتمكنه من أسر جماعة من أهلها [1] حقيقة أن الخطر كان يجئ دائما لمصر من الشمال أو الشرق الا أن الجنوب كان أيضا في حاجة الى عناية الدولة وحمايتها لأهله أما فى عصر دولة المماليك .

فقد اسبغت الدولة عنايتها واهتمامها بحدود مصر الجنوبية ، ونشطت العلاقات بين مصر والنوبة ، فكان لمصر دور فعال فى حماية عرش النوبة من مغتصبيه . ومن الجدير بالذكر أن القبائل العربية فى مصر شاركت في هذا العصر فى الحملات الحربية ضد النوبة . ففى عهد السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٥ - ٦٧٦ وقع صراع بين شكندة ملك النوبة وبين خاله داود على العرش سنة ٦٧٤ (١٢٧٥) واستطاع داود ابعاد شكنده عن عرش النوبة . فلجأ الى مصر واستنصر بالظاهر بيبرس لاعادته الى العرش ولما كان ملك النوبة الجديد يسعى جاهدا الى توسع رقعة ملكه واتجه بالفعل

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٣٢١ - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ١٣٨ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٩٠ - د/سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، سلسلة اعلام العرب ط ١٩٦٣ ، ص ١١٨ .

الى جنوب مصر مهددا حدودها [1] فقد أدى ذلك الى توتر العلاقات بين مصر والنوبة وعزم الظاهر بيبرس على مواجهة داود ، وسبق ذلك لقاء تم بين شكنده ملك النوبة المخلوع والظاهر بيبرس فى مصر ، وفى هذا اللقاء عرض شكنده على الظاهر طلبه فقبل الظاهر معاونته ، فجهز حملة عسكرية شاركت فيها القبائل العربية بالوجه القبلى . [2]

خرجت الحملة من أسوان وتقابلت مع الجيش النوبى بقيادة الملك داود ووقع القتال بين الفريقين ، ثم تمكن العرب والمماليك من ايقاع الهزيمة بالملك داود واعادة شكنده الى العرش ثم وقع شكنده فى مقابل ذلك وثيقة يتعهد فيها ببذل جزية سنوية لمصر وقد نصت الوثيقة على أن تكون الحصون المجاورة لأسوان ملكا لمصر ، وأن يعين نائب للسلطان شرط على النوبيين طاعته ويطلق سراح الأسرى المصريين الذين كانوا محتجزين بالنوبة .

وهكذا شارك العرب فى حملات الدفاع عن حدود مصر الجنوبية وأسهموا فى بسط سلطان مصر على بلاد النوبة وافتتاح عدد من المدن الواقعة من أعلى الجزائر حتى بلاد العلى [3] .

---

(1) نفس المصدر - ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص ٤٢٩ .

(2) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ - ٦٢٣

(3) (بلاد العلى أو بلاد علوة وهى المعروفة ببلاد النوبة العليا وكانت قاعدة مدينة "سوبة" الواقعة على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بمسافة٢٤ كم . النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ١٨٩ هـ(١).

وفى عهد المنصور قلاوون ٦٧٩ - ٦٨٩ (١٢٨٠ - ١٢٩٠) عاد ملك النوبة الى شق غصا الطاعة على مصر فاضطر السلطان الى تجهيز حملة مملوكية لتأديب ملك النوبة واخضاعه واشترك فى هذه الحملة أيضا قبائل العرب من أولاد أبى بكر وأولاد عمر وأولاد الشريف وأولاد شعبان وأولاد الكنز وبنى هلال وغيرهم [1] وقد تمكنت هذه الحملة من ايقاع الهزيمة بملك النوبة واسره وتعيين ملك آخر على البلاد وأعادت فرض الجزية السنوية عليها على النحو الذى كان جاريا فى عهد بيبرس .

وفى عام ٦٨٨ (١٢٨٩) اضطرت الظروف السلطان قلاوون الى ارسال حملة حربية أخرى الى بلاد النوبة وبلغ عدد من اشترك من العرب فى هذه الحملة أربعين ألف من عرب الوجهين القبلى والبحرى [2] . وقد نجحت هذه الحملة المصرية فى تحقيق أهدافها فانتصر المماليك على النوبيين وتتبعوا ملك النوبة الى مابعد مدينة دنقلة بمسيرة خمسة عشر يوما [3] وعادت الحملة الى مصر فى عام ٦٨٩ هـ بعد أن تمكن قادتها من تنصيب أسرة الملك داود عرش النوبة واقرار الجزية السنوية لمصر .

---

(١) السلوك ، حـ٣ ق ١ ، ص ٧٣٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٤٩ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ق ١ ، ص ٧٥٠

وفى عهد النـاصر محمـد بـن قـلاوون ٦٩٣ هـ ـ ٧٤٠ (١٢٩٣ - ١٣٣٩) . قامت حملة حربية مـن مصـر فـى سنة ٧٠٧ بنـاء علـى طلب من ملك النوبة (اباى) الذى قدم بنفسه الى مصر وقد اشترك فى هذه الحملة جماعة كبيرة من العرب [1] . وكان من نتـائج تلـك الحمـلات الحربيـة انتشـار العـرب فـى بـلاد النوبـة واستقرارهم فـى البلاد، وقيام علاقات مصاهرة بين العرب والنوبيين ، وأخيرا انتقال ملك النوبة الى العرب وقد عـبر ابـن خلـدون عـن ذلـك بقولـه"(ثـم انتشـرت أحيـاء العـرب مـن جهينـة فـى بلادهـم واستوطنوها وملكوها)[2]

كان تغلب العناصر العربية وانتشارها بالسودان عاملا رئيسيا مـن عوامل الاستقرار الدائم الذى لم يساعد على تـأمين الحـدود الجنوبيـة لمصر ضد غارات النوبيين فحسب بل ساعد أيضا على تعمير وتـأمين بلاد النوبة نفسها وحمايتها من الغزو العثمانى الذى تعرضت له مصر والشام . ولم تنج من مساوئه ، ففـى أوائـل القـرن السـادس عشـر الميلادى أرسل السلطان سليم العثمانى الى الملك عماره دنقس ٩١٠ - ٩٤٠ (١٥٠٥ - ١٥٣٤) [3] .

([1]) نفس المصدر ، جـ٢ ق ١ ، ص ٦

([2]) ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص ٤٩٨

([3]) الملك عمارة دنقس هو أحد الملوك الذين حكموا سنار وكان من أصل عربى) (نعوم شقير تاريخ السودان القديم والحديث جـ٢ ، ص ١٧١ .

بدعوه الى الدخول في طاعته أو اعلان الحرب عليه . وقد واجه الملك العربي الموقف بشجاعة فأرسل الى السلطان العثماني كتابا يرغبه فيه عن حرب أهل سيناء لأنهم مسلمون يدينون بدين الاسلام . وليسوا على استعداد لتقديم جزية سنوية لأنه ليس لديهم مايقدمونه له ثم أرفق بكتابه كتابا بأنساب قبائل العرب في تلك المنطقة . وقد عدل السلطان عن عزمه وانسحب بغير حرب وبهذه الشجاعة العربية أمكن تجنيب البلاد حالة الحرب حيث قبل السلطان سليم دفاع ملكها وانسحب دون اراقة نقطة دم واحدة .

وهكذا تحقق السلام والأمن لمملكة سنار [1] . كذلك ساهم العرب في تعمير البلاد فان مدينة سنار نفسها من انشاء الملك عمارة[2] وقد بلغ انتشار العرب واندماجهم بالمصاهرة مع النوبيين الى الدرجة التي لايمكن عندها تفرقة العربي عن النوبي ، اذ أن الجميع أصبحوا يتكلمون اللغة العربية وهي لغة الكتاب عندهم ، ولايوجد لغة غيرها . وهم يتكلمونها بلهجة حسنة [3] .

ومن القبائل العربية في السودان حمير وربيعة . وبنو كاهل وبنو ذبيان وبنو عبس وفزارة وبنو سليم [4] . وأغلبها من القبائل التي

([1]) نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص ١٧١

([2]) الشيخ أحمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان ، تحقيق مكي شبيكه

([3]) نفس المصدر ، حـ١ ، ص ١١١

([4]) نفس المصدر حـ١ ، ص ١٢

كانت بمصر ثم هاجرت الى السودان واستقرت به ومن حيث مناطق استقرار العرب نجد أنه فى جزيرة (أبا) شرقى النيل الأبيض وغربيه نزلت كنانة وسكنت سليم فى جنوبهم وفى بلاد أبى حراز وعبود ، وود مدنى سكن العراكيون من بنى جعفر الطيار وسكن معهم الكواهلة وينتسبون الى الزبير بن العوام . وفى شرقى وغربى النيل الأزرق سكن العلاطيون وبنو حسين واللحويون ، والقواسمة والحمدة والعقيليون وجميعها تنتسب الى جهينة [1] ويتضح لنا مما سبق أن القبائل العربية التى هاجرت من مصر فى عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية هى التى قامت بمهمة تعريب السودان .

وظلت بلاد السودان منطقة جذب للعرب المقيمين فى صعيد مصر حتى القرن الثامن عشر [2] وهكذا بفضل جهود العرب أصبحت الحدود الفاصلة بين مصر والسودان منطقة عبور آمنة للطرفين وبواسطتها كان يتم التبادل التجارى وأنواع النشاط الأخرى المختلفة . وازدهرت الهجرة للعلم بالأزهر بالقاهرة بجانب نشاط المصلحين من أفراد القبائل العربية وتطور دور القبائل العربية

---

(1) نعوم شقير ، تاريخ السودان ، ص ٥٥ - ٥٧

(2) ففى عهد الملك نول ملك سنار ١٧١٨ - ١٧٢٢ (١١٣١ - ١١٣٥) فوجئ السودان بهجوم الحبشة بجيش بلغ تعداده مائة ألف جندى وقد استطاع السودانيون والعرب هزيمة هذا الجيش فى موقعة سنار . قال الشيخ أحمد (وهذه الواقعة زادت سنار شهرة فى الأقطار الاسلامية حتى قصدتها الوفود من الحجاز والسند والهند وأهل صعيد مصر والمغرب الأقصى واستوطنوا بها) . الشيخ أحمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان ، ص ٢٦ ، ٤٨ ، ٧٢ .

في التعريب حتى أصبح السودان في القرن الرابع عشر الهجري عربيا في لغته مسلما في دينه .

الباب الثالث

ثورات العرب فى مصر فى عصر المماليك

الفصل الأول :

موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك

فى مصر:-

١- طبيعة العلاقات بين العرب وبين الأيوبيين ثم المماليك .

٢- موقف العرب من الصراع بين العناصر الأيوبية فى مصر وبين المماليك .

٣- نتائج سياسة العنف ضد العرب .

الفصل الثانى :

ثورات العرب فى مصر على المماليك والأسباب والنتائج :-

١- فى عصر بنى قلاوون

أ- غلبة العاملين السياسى والاقتصادى .

ب- فى عهد الناصر محمد .

جـ- فى عهد المظفر حاجى .

د - فى عهد السلطان حسن .

هـ- فى عهد الأشرف شعبان .

و- فى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان .

٢- في عصر المماليك الجراكسة

أ - في عهد الظاهر برقوق .

ب- في عهد الأشرف اينال .

جـ- في عهد الأشرف قايتباى.

د - في عهد محمد بن قايتباى .

هـ- في عهد الغورى .

٣- تحالف قبائل العرب ضد الحكم المملوكي

-الأسباب والنتائج-

٤- ثورات العرب في بداية العصر العثماني

الفصل الأول

موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك في مصر

١- طبيعة العلاقات بين العرب وبين الأيوبيين ثم المماليك

٢- موقف العرب من الصراع بين العناصر الأيوبية في مصر وبين المماليك .

٣- نتائج سياسة العنف ضد العرب .

الفصل الأول

موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك فى مصر :-

١- طبيعة العلاقات بين العرب والأيوبيين ثم المماليك .

بدأ تعاون العرب مع الدولة الأيوبية مبكـرا للغايـة ، فقـد اتضـح هذا التعاون بوجه خاص مع صـلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولـة الأيوبية قبل أن يتولى الحكم فى مصر أيام كـان وزيـرا للعاضد وقـد حفظ السلطان صلاح الدين للعرب هذا الدور ثم نهـج هـذا المنهـج خلفاؤه فى الحكم ، وهكذا ساد العصر الأيوبى نوع من الوفاق بين الأسرة الأيوبية الحاكمة وبين قبائل العرب [1] ويسـتدل على صحـة ذلـك مـن المنشورات الرسميـة الصـادرة الى الـولاة فـى الأقـاليم ، ومضمون هذه المنشورات يعبر بجلاء عن الروح الودية السائدة وعلى أن الدولة لم تكن تعانى من مشاكل أو صراعات داخلية من جـانب القبائل العربية فمن ذلك ماورد فـى منشـور صـدر فـى هـذا العصـر بمناسبة تسلم أحد الولاة عمله كوال على الشـرقية ونصـه (وابسـط العدل على أهل هذه الولاية واخصص أهل السلامة بما يسهل عليهـم

---

(١) كان القريشيون فى مصر مقربين لبنى أيوب ، ذلك أن الأيوبيين حرصوا كل الحرص على أن يضيفوا الى تعريبهم الثقافى عروبة سلالية ، فاعتزوا بالانتساب الى مروان فى رواية أو الى هوازن فى رواية أو الى الارد فى رواية ثالثة (راجع د. عبد المجيد عابدين فى البيان والاعراب ، ص ١١٨) - ود. الدكتور عبد المنعم ماجد ان اعتزاز الاسرة الايوبية فى النفاهى من الاسلام كان من أسباب تمسك العرب بهذه الأسرة ويستند فى ذلك على أن المصريين كما يذكر ابن اياس هم الذين ملوا سلطنة شجرة الدر (راجع موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد ١٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٥٠)

ستر الحيطة والحماية وتطلب المفسدين أتم طلب واحظر عليهم التنقل في هذه البلاد والتقلب . ومن ظفرت به منهم فقابله بما يوجبه حكم جريرته ويقتضيه موقع جريمته [1] وهذه سياسه عادلة فان هذا الأمر قد شمل جميع المواطنين و لم يوجه الى فئة جون أخرى فهو قد حدد أن العقاب على المفسدين وان الحماية لأهل السلامة ، من المعروف أن العدد الأعظم من سكان الشرقية من العرب القيسية الذين استقروا في هذا الاقليم من العصر الأموى .

وهناك منشور ثان صدر بمناسبة تعيين والى على اقليم برقة [2] جاء فيه (خرج أمر العادل - السلطان العادل - بكتب هذا المنشور لك بما أنعم عليك بولايته واقطاعه وهو برقة بجميع أعمالها وحقوقها من العقبة الصغرى الى آخر حدودها وبما أمر به كافة العربان المقيمين بهذه البلاد وجميع أهلها من حاضر وباد : من الاعلان لك بشعار الطاعة وصون مايلزمهم أداؤه اليك من فروض النصح عن الاضاعة . وان يبذلوا في موافقتك غاية الاجتهاد ويعتمدوا من امتثال مراسمك أحسن اعتماد ويحذروا من العدول عن أمرك ويجتنبوا مخالفة نهيك وزجرك) [3] ويلاحظ أن المنشورين الأول والثانى لايتضمنان مايشير الى وجود قلاقل تثيرها القبائل ضد الحكومة فى

([1]) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ١١ ، ص ٤٤

([2]) برقة أحد اقاليم ليبيا وكانت تابعة لمصر فى ذلك الحين وقد وضح ذلك من النص الوارد بالمنشور الخاص بتعيين وال على برقة .

([3]) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ١١ ، ص ٦٠

حين ينص كل من المنشورين على العمل على نشر العدل وتعقب المفسدين بما يوجبه ماوقع من مخالفة وفى حدود العدل بعيدا عن الانتقام والجور. وهو يدل بوضوح على سلامة موقف كل من القبائل العربية والسلطة الحاكمة . فالدولة تبذل نوعا من الرعاية والتعهد بالحماية ويقابل ذلك عرفان بالجميل وشعور بالطاعة من جانب القبائل الأمر الذى أدى الى الاستقرار والانضباط واستتباب الأمن فى كافة أنحاء البلاد وفى ذلك مايعد تعبيرا واضحا عن صحة القول بأن العرب كانوا على وفاق مع بنى أيوب .

أما فى عصر المماليك فقد اختلف الأمر اختلافا كبيرا ويمكن الاستدلال على صحة ذلك من عقد مقارنة بين المنشورات الصادرة فى هذين العصرين .

ففى منشور صدر فى عصر المماليك جاء مايلى (... فلا تمكن أحدا من العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرسا فانما يعدها للخيانة مختلسا ولايكون لها مرتبطا ولامحتسبا وكن لهم ملاقيا مراقبا فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقبا ولاتمكنهم من حمل السلاح ولاابتياعه ولااستعارته ولااستيداعه وتفقد من بالاقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ماعند التجار واقمع بذلك نفس الفجار واخرم نار العذاب على من أخرم لعمل ذلك النار) (١)

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١١ ، ص ٤٢٨ .

وواضح من هذا المنشور الأسلوب العدائى نحو العرب والفلاحين . مما لايدع مجالا للشك فى أن عداء السلطة المملوكية للعرب سافر لايحتاج الى دليل اثبات . وواضح من نص المنشور أن سبب ذلك يرجع الى معارضة العرب لحكم المماليك فى مصر الى حد قيامهم برفع السلاح على السلطة الحاكمة وكذلك فقد عمل حكام المماليك على منع وصول السلاح الى العربى بكل وسيلة .

وورد فى منشور آخر مايلى (... ولايمكن أحدا من العربان بجميع الوجه القبلى أن يركب فرسا ولايقتنيه ويكفى بذلك الأيدى المعتدية فان المصلحة لمنعهم من ركوبها .مقتضية وليقم الحربة والمهابة وليدم قيامه من الخدمة وانتصابه وليرهف حد عزمه ويمضيه ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائنا من كان ضرب عنقه وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله ولايتسع لأحد فى الشر مجاله)[1]

ويرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك الى أن المماليك الذين استولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد وانما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية فحسب كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصرى بروابط المصاهرة والنسب وظلوا منعزلين عن أفراد الشعب ومع ذلك فانه اذا كان للمماليك دور فعال فى الدفاع عن

---

(1) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ١١ ، ص ٤٣٣

مصر وحمايتها من أعدائها فان للمصريين والعرب دورهم أيضا فى الدفاع بنفس القدر الذى كان للمماليك .

ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق من المماليك الغرباء بحكم مصر ومما لاشك فيه أن العرب كان لهم دور واضح فى جميع المعارك الحربية الكبرى التى وقعت فى أرض مصر والشام وأيضا فى مختلف عهود الاسلام . ثم أنهم اندمجوا مع شعب مصر وارتبطوا معه بروابط وثيقة فى حين أن المماليك كانوا يشكلون عناصر غريبة عن البلاد دخيلة عليها . فهم قدموا الى مصر بهدف خدمة الدولة وليس عليهم الا الطاعة فاذا عصوا صاروا خوارج ولاطاعة لهم على أحد . ولكن المماليك بدلا من التزام الطاعة عمدوا الى الاستبداد بحكم مصر بحكم أنهم يتولون قيادة الجيوش وأهم مناصب الدولة . فانتهزوا فرصة انهيار البيت الأيوبى فى مصر بعد مصرع توران شاه وتغلبوا على زمام السلطة فى مصر وكان طبيعيا أن يستبد الخطر بأهل مصر من المصريين والعرب اذ كان من الصعب أن يعترفوا بسلطان قد مسه الرق يسيطر على البلاد ويخضع أصحاب السيادة الشرعية بالفعل لسلطانه ، وقد عبر حصن الدين ثعلب قائد الثورة العربية فى مصر عن مشاعر العرب نحو المماليك السادة الجدد بقوله (نحن أصحاب البلاد) [1] ومن هنا يبدأ العداء بين العرب

---

(1) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٦ ، البيان والاعراب ص ١٠ ، ٣٨ .

والمماليك ويأخذ العرب جانب بقايا البيت الأيوبى فى صراعه مع المماليك .

٢- موقف العرب بين الصراع بين العناصر الأيوبية فى مصر وبين المماليك :-

بعد مصرع توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية عام ٦٤٨ (١٢٥٠) رفض العرب أن يؤول ارث الأيوبيين الى المماليك . وأعلنوا معارضتهم لهم فى حكم مصر وأظهروا تعاطفهم مع أمراء البيت الأيوبى البائد بينما كان المماليك يواجهون لوم الخلافة على تنصيب شجرة الدر عرش السلطنة المملوكية فى مصر تحرك الملك الناصر صاحب حلب الى دمشق بتأييد من الأمراء القيمرية ، واستولى عليها . ولما أحس المماليك بحرج موقفهم لجأوا الى تولية عز الدين أيبك قائد الجيش وزوج شجرة الدر عرش السلطنة بدلا منها بعد ثلاثة شهور من توليها السلطنة .

ويذكر المقريزى أن الأمير عز الدين أيبك تزوج شجرة الدر فى تاسع عشر من ربيع الآخر بعد أن خلعت نفسها من مملكة مصر ونزلت له عن الملك فكانت مدة ولايتها ثمانون يوما [1] ثم توالت بعد ذلك تحركات أحفاد صلاح الدين تعلن عن اصرارها على حقها فى وراثة عرض مصر . فالملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل بن ابى بكر بن أيوب استولى على مال مدينة غزة وزحف الى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ٢ ، ص ٣٦٦

قلعة الصبيبة فتغلب عليها [1] وكان المغيث عمر قد وضع يده على كل من الكرك والشوبك .[2]

وعلى اثر ذلك اجتمع أمراء المماليك فى مصر واجمعوا رأيهم على ضرورة الأخذ بمبدأ وراثة العرش وعزموا على تنصيب أمير من البيت الأيوبى على العرش على أن يتولى المعز أيبك تدبير أمور الدولة مستهدفين من وراء ذلك الاجماع على طاعته فاتفقوا على اقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى وكان له من العمر ست سنين شريكا للمعز أيبك وان يقوم المعز بتدبير الدولة . وتم ذلك فى ثالث جمادى الأولى [3] وعلى الرغم من ذلك الحل السياسى الذى توصل اليه المماليك فى مصر لتهدئة المعارضة فان الملك الناصر صاحب الشام أخذ يتأهب للاستيلاء على مصر . [4] كان عرب مصر فى هذه الأثناء يعملون لتأييد البيت الأيوبى وأظهروا تعاطفهم مع البيت الأيوبى فى حقه فى وراثة العرش وأيدوا تحركات الملك الناصر . ولهذا السبب قام المماليك بحركة اعتقالات واسعة النطاق بين عرب الصعيد قيدا على تحركاتهم ضدهم . ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله: (فلما ورد الخبر اضطربت الدولة ورسم بجمع العربان من

([1]) نفس المصدر ، ص ٣٦٩

([2]) نفسه

([3]) نفسه .

([4]) نفسه ، ص ٣٧٢ – ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٦

الصعيد وقبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل مع الملك الناصر في ثاني شوال عندما ورد الخبر بوصوله الى غزة)[1]

وقد شارك المصريون العرب في تعاطفهم مع الأيوبيين ضد الحكم المملوكي . ولم يرضوا بسلطان مسه الرق وظلوا يسمعونه مايكره في مواكبه حتى مات . وكانوا يرددون الهتافات المعادية له (لانريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة)[2] .

وفي خضم هذا الصراع بين القوتين الاسلاميتين بقايا البيت الأيوبي والمماليك ، قام رسول الخليفة العباسي من بغداد بمحاولة للتوفيق بينهما أسفرت عن عقد صلح بينهما في عام ٦٥١ (١٢٥٣) ، ويشير المقريزي الى ذلك بقوله (وفيها (عام ٦٥١) تقرر الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر وصاحب دمشق بسفارة نجم الدين البادرائي وقد قدم نجم الدين الى القاهرة وصحبته عز الدين ازدمر وكاتب الانشاء ببغداد نظام الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المولى الحلبي)[3]

وبفضل ذلك تحقق للمماليك الاستقرار السياسي في مصر وأصبحوا يحكمونها باعتراف الخليفة العباسي والعناصر الأيوبية (على

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٦٩

(٢) جمال الدين ابي المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٧ ، ص ١٣ - جلال الدين السيوطي حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٥ - النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ١٢

أن يكون للمصريين الى الأرذن وللناصر ماوراء ذلك وانه بلمفصل للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله . [1] ولكن المماليك لم ينسوا للمصريين موقفهم العدائى فاستخدموا معهم منتهى العنف وعاملوهم بقسوة بالغة تجاوزت منهم معاملة الفرنج ويؤكد ذلك قول المقريزى أنه فى نفس العام الذى تم فيه الصلح بين المماليك والأيوبيين (كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد حتى لو ملك الفرنج مافعلوا فعلهم) [2]

كذلك يعبر السيوطى عن سياسة المماليك نحو شعب مصر وموقف هذا الشعب منهم بعد أن تولى أيبك عرش السلطنة (وعظم شأن الأتراك من يومئذ ومدوا أيديهم الى العامة واحدث وزيره الا سعد الفائزى ظلامات كثيرة) [3]

ومما لاشك فيه أنه ترتب على النزاع القائم بين المماليك وبقايا البيت الأيوبى يؤيدهم شعب مصر والعناصر العربية التى أنكرت على المماليك ذلك العنصر الدخيل على البلاد - حكم مصر . اضطراب سياسى اهتزت له البلاد فافتقد الناس الأمان سيما وقد ارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا أدى بطبيعة الحال الى اضطراب

---

(1) نفس المصدر ، ص ٣٨٦ - النجوم ، حـ٧ ، ص ١١.

(2) المقريزى ، السلوك ، طـ ق ٢ ، حـ ٣٨٠

(3) جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة ، حـ٢ ، ص ٣٥

الحياة الاقتصادية ولم تسكت العناصر العربية فى مصر عن اعلان رأيها فى الحكم المملوكى [illegible]، فلم يلبث أحد زعماء عرب الجعافرة العلويين هو حصن الدين ثعلب فى الصعيد أن قام فى عام ٦٥١ (١٢٥٣) يدعو الى [illegible] قيام دولة المماليك فى مصر. والتف حوله عرب الشمال والجنوب ومنع الأجناد من جباية الخراج. وصرح هو وأصحابه بأنهم أحق بالملك من المماليك.[1]

واجتمع مع حصن الدين عرب الصعيد والبحيرة والجيزة والفيوم وعقدوا حلفا بزعامته وبلغ عدد فرسانهم اثنى عشر ألف فارس حاشا أعداد أخرى كبيرة من المشاة[2] وبدأت المعركة بين العرب والمماليك فى صباح يوم من عام ٦٥١ (١٢٥٣) فى منطقة ذروة بالصعيد الأوسط[3] وتولى قيادة أجناد العرب فى هذا اليوم زعيم الثورة حصن الدين الى الظهر، ثم قدر لحصن الدين أن يسقط من فوق فرسه وسرعان مااجتمع حوله جماعة من الفرسان العرب فى شكل حلقة. وظلوا يقاتلون دونه قتالا شديدا حتى أركبوه وقد سقط من رجاله أربعون قتيلا، وقد استنزفت هذه الموقعة قوة العرب وفقدوا القدرة على مواصلة القتال بحيث لم يجد حصن الدين بدا من الانسحاب منهزما من المعركة ولم يشأ فرسان المماليك أن

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١ ق ٢ ص ٣٨٦

(٢) نفس المصدر، ص ٣٨٧

(٣) ذروة: تقع باقليم الشمونين بالصعيد الأوسط (البيان ص ٣٩)

يتركوا العرب ينسحبون دون أن يلحقوا بهم أعظم الخسائر فتعقبوهم واثرعوا فيهم قتلا بسيوفهم ثم جمعوا الاسلاب والغنائم وعادوا بها الى معسكرهم فى بلبيس [1] ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد استخدم المماليك كل ضروب العنف والقسوة فى مقاومة الثورة العربية . ولما تمكنوا من تحقيق النصر فى معركتهم ضد العرب استولوا على ممتلكاتهم وعجزوا عن حصرها لكثرتها . ثم اتجهوا الى عرب قبيلتى سنبس ولواته فى كل من اقليمى الغربية والمنوفية وطوقوهم ونكلوا بهم ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وعاملوهم معاملة أسرى الحروب ، فذلت سنبس بعد ذلك وقلت وتفرقت بالغربية [2]

حاول حصن الدين ثعلب بعد هزيمته أن يعقد الصلح مع السلطان عز الدين أيبك واستجاب المماليك لهذه الدعوة غير أنها لم تأت كما كان يشتهى العرب ، اذ أن المماليك خانوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم للعرب فبعد أن منح الملك المعز أيبك الشريف حصن الدين ثعلب الأمان ووعده باقطاعات له ولأصحابه ليصيروا من جملة العسكر وعونا له على أعدائه انخدع الشريف حصن الدين وظن أن الترك لاتستغنى عنه فى محاربة الملك الناصر وقدم فى أصحابه وهو مطمئن الى بلبيس . فلما اقترب من الدهليز نزل عن فرسه ليحضر

(1) المقريزى ، السلوك ، حـ1 ق 2 ، ص 387 .

(2) نفس المصدر ، البيان ، ص 10 .

بمجلس السلطان فقبض عليه وعلى سائر من حضر معه . وكانت عدتهم نحو ألفى فارس وستمائة راجل [1] .

غير أن القلقشندى ينكر أنه وقع فى أسر أيبك ويؤكد على الضد من ذلك أنه ظل طليقا الى عهد الظاهر بيبرس الذى تغلب عليه بالخدعة وشنقه بالاسكندرية [2]

وأيا كان الأمر فقد تمكن المماليك أيام أيبك من التغلب على الثورة العربية بقيادة حصن الدين ثعلب .

٣- نتائج سياسة العنف ضد العرب :-

يذكر المقريزى فى السلوك أن من نتائج ثورات العرب ضد المماليك أن (تبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ [3] ويستدل من هذا النص على أن سياسة العنف التى جرى عليها المماليك ضد العرب أسفرت عن نتيجتين : الأولى :

١- تبدد شمل العرب فى مصر

٢- خمود جمرة العرب .

أما النتيجة الأولى وهى تفرق العرب فى مصر فصحيح أكدته الأحداث بعد ثورة حصن الدين . فقد أدت سياسة العنف والقسوة

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٨

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٦٧

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص ٣٨٧

الى هجرة عدد كبير من المزارعين العرب الى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الأشتراك فى المنازعات والاضطرابات الداخلية التى كان يقوم بها المماليك أنفسهم (١) . وكان هولاء العرب يعرفون باسم الحرافيش أو الذعر . وقد لقى هؤلاء الحرافيش معاملة حسنة من السلطان الظاهر بيبرس . ففى عام ٦٦١ (١٢٦٣) ظهر الغلاء فى البلاد وعدمت الأقوات فأمر السلطان الظاهر بيبرس بجمع الحرافيش وكانوا نحو ألفى حرفوش وفرقهم على الأمراء وأخذ لنفسه منهم جانبا وأمر لكل واحد منهم برطل خبز ونصف رطل لحم كل يوم . ومنعهم بذلك من سؤال الناس (٢) ثم عاد وجمع الحرافيش مرة ثانية فى ٦٦٢ وأمر لكل واحد منهم بكسوه ومائة درهم وكان ذلك بمناسبة ختن ولده الملك السعيد محمد (٣) .

كذلك أدت سياسة العنف ضد العرب فى بعض العهود المملوكية الى احتمائهم بالمصريين والاختلاط بهم ومصاهرتهم . لدرجة أن قبطيا كان أميرا على قبيلة من عرب جذام . يذكر ابن اياس أن قاسم ابن بقر أمير عربان جذام بالشرقية واسمه نصر بن عبد الله القبطى كان رئيسا حشما كيس حسن الهيئة لطيف الذات . ولى عدة وظائف سنيه فى عهد الأشرف قايتباى . وعلى الرغم من أنه

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ٤٨٩ - د. عبد المنعم ماجد موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ط ٦٩ ، ص ٥٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ص ٨٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٦

كان حسن السيرة محبوبا من الناس فانه لم يسلم من جور وعسف المماليك .[1] .

لقى أمراء العرب ومشايخهم الكثير من جور المماليك وعسفهم وكثيرا ماكانوا يستولون على ثروات العرب وممتلكاتهم دون مبرر لذلك ومن أثرياء العرب الذين سلب المماليك ثرواتهم مقداد بن شماس وكان فى غاية من الثراء قبض عليه فى عهد السلطان محمد بن قلاوون ثم أفرج عنه وأنعم عليه السلطان بمال وغلال . وأمر باعادة ممتلكاته اليه[2] .

كذلك كانت تلفق التهم للعرب لمجرد نهب ثرواتهم والاستيلاء عليها . فقد أتهم النشو وزير السلطان محمد بن قلاوون ابن زعازع من قبائل لواته المتعربين بأنه وجد كنزا صادر جميع أمواله وممتلكاته[3] ولما تكشف للسلطان ظلم النشو للرعية قبض عليه وصادر ممتلكاته هو الآخر .[4] وقد لعب بعض كبار الصوفية من الزهاد والصالحين دورا فى حماية بعض زعماء العرب من جور المماليك ورد اعتبارهم اليهم . ففى عهد الصالح صلاح الدين محمد بن قلاوون قام ابن الأحدب بثورته العارمة فى الصعيد . وبعد فشل

---

(1) نفسه ؛ حـ٥ ، ص ٤٩٥ .

(2) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ق ١ ، ص ١٢٩ النجوم الزاهرة ، حـ٩ ، ص ٣٦

(3) نفس المصدر ، حـ٢ ق ١ ، ص ٤٠٩

(4) نفسه ، ص ٤٧٧ - ٤٨٢

الثورة وانسحاب ابن الأحدب عاد ولجأ الى الشيخ ابى القاسم الطحاوى وطلب منه التوسط لدى السلطان ملتمسا العفو عنه على شريطة أن يلتزم باعادة الأمن الى البلاد وتحصيل الخراج باسم السلطان . وقبل السلطان وساطة الشيخ . وعفا عن الثائر العربى ابن الأحدب والبسه خلعة وناله أنعاما كثيرا من الأمراء [1] .

وأما النتيجة الثانية وهى : خمود جمرتهم من حينئذ فقد ثبت عكس ذلك من الأحداث التالية اذ أن الثورات العربية استمرت بعد ذلك و لم تنته طوال العصر المملوكى وحتى بداية العصر العثمانى . وبدلا من هذه النتيجة الثانية نضع نتيجة ثانية هى زيادة اندماج العرب مع الشعب المصرى .

لقد كان العرب فى الحقيقة يخرجون من كل معركة – منهوكى القوى فلا يجدون ملجأ الا الشعب وعلى هذا النحو كان يحدث بين العرب والمصريين اندماج تدريجى بات واضحا مع مضى السنين .

فبعد ثورة حصن الدين أمر المعز أيبك بزيادة مايحصل من العرب من أموال أو هدايا تفرض عليهم ومعاملتهم بالقسوة عقابا لثورتهم[2] وقد تسبب ذلك فى اضعاف القوة العربية وعلى الرغم مما صار عليه العرب من القلة والضعف فان ثوراتهم ظلت تورق الحكام

([1]) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٩١٦ – د. عبد المنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، العدد الثانى عشر من حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، ط ١٩٦٩ ، ص ٥٥

([2]) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٣٨٨

المماليك . وان لم يعملوا على تقصى أسبابها . ذلك أن ثورات العرب التى أعقبت ثورة حصن الدين ثعلب كانت أسبابها اقتصادية الا أن العداء الذى خلفته ثورة حصن الدين بين العرب والمماليك القى بظله على كل ثورة كان يقوم بها العرب كما أن المماليك كثيرا ماكانوا يصادرون مواشى العرب وأغنامهم على الرغم من أنها سبب حياتهم ومصدر رخائهم . ففى عهد السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه قام الأمير طومان باى الدوادار بالاستيلاء على مايزيد عن أربعة آلاف رأس من أغنام عرب عزالة وعاد بها غنيمة الى القاهرة[1]

ولم يكد يمضى أربعة شهور على ذلك العمل حتى قام عرب عزالة بحركة هجومية ضد كاشف البحيرة . ثم انسحبوا من هذه المعركة سريعا واتجهوا الى المعيصرة قريبا من القاهرة . وعلم السلطان بأمرهم فأمر بارسال حملة عسكرية لقتالهم . وتقابل الفريقان عرب عزالة والحملة المملوكية وكانت مكونة من عدد من كبار الأمراء المماليك وعدد كبير من العسكر . خرجوا لابسين آلة الحرب . وتقاتلوا قتالا شديدا انتهى بسقوط خمسين قتيلا من الأتراك وخمسين من عبيدهم غير الجرحى . واستولى العرب على ماكان فى معسكرهم ثم انسحبوا عائدين الى الصعيد [2] ولم يسلم

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٦ ، ص ٦٤٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤٨ .

عرب عزالة من رد الفعل ضدهم وجاء هذه المرة أشد وأقسى من كل ماسبق [1] .

وكانت نتيجة ذلك كله أن عرب عزالة امتلأت صدورهم بالحقد والضغينة ضد الحكام المماليك و لم يغفروا لهم ذلك أبدا . فلما وقع القتال بين المماليك والعثمانيين خرج عرب عزالة عن الخط العربى وواجهوا المماليك بعدائهم السافر ورفضوا التعاون ضد العثمانيين وقالو (لاسمع ولاطاعة) [2] .

([1]) نفسه ، ص ٦٤٩ .

([2]) ابن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٧٨

الفصل الثانى

ثورات العرب فى مصر على المماليك الأسباب والنتائج

(١)

فى عصر بنى قلاوون :-

أ- غلبة العاملين السياسى والاقتصادى بوجه عام فى تحريك العناصر العربية ضد المماليك كان للظروف الاقتصادية المتقلبة دورها الخطير فى حياة الشعب المصرى على مختلف طبقاته . فالاضطرابات الداخلية كانت تحدث دائما فى أعقاب ظروف اقتصادية صعبة . كما أن المعارك التى كثيرا ماوقعت بين بعض القبائل العربية والسلطة المملوكية الحاكمة كانت تحدث دائما فى ظروف اقتصادية غير مواتية . كالشأن فى المعركة التى وقعت بين قبيلتى جابر ومرديس[1] فى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) فى اقليم البحيرة فى عهد

---

(١) قبيلتا جابر ومرديس : ورد ذكرهما فى بدائع الزهور لابن اياس فى جملة أحداث عام ٦٩٩ (١٢٩٩م) فى عهد الناصر محمد بن قلاوون قال (فى هذه السنة وصل الخبر من البحيرة قد اختلفت طائفتان من العرب هما جابر ومرديس (بدائع الزهور جـ١ ، ص ١٢٠ . أما عن جابر فيقول ابن خلدون (بنو جابر هؤلاء من عداد جذم وربما يقال أنهم من سدراتة احدى فرق زناتة أو لواته) (العبر ، جـ٦ ، ص ٣٠) . وينسبهم المقريزى الى جذام (المقريزى البيان والاعراب ، ص ١٤) والأرجح أن جابر الذين كانوا ينزلون بالبحيرة عرب قدموا من المغرب فى هجرات الى مصر لان ابن اياس يذكرهم مع عرب مرديس وهم أيضا كانوا يقيمون بالأندلس . ومرديس بطن من جذام من القحطانية كان لهم ملك بناحية بلنسية من الأندلس فى جملة ملوك الطوائف وبقى الملك فيهم الى عام ٥٤٤ هـ (١١٤٩م) (عمر كحاله ، معجم قبائل العرب ، جـ٣ ، ص ١٠٧٥)

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون [1] على أن العامل الاقتصادى كان يتخذ عادة مظهرا سياسيا ودينيا ، فمما لاشك فيه أن طغيان المماليك وسياستهم القائمة على الأخذ بالقهر والاذلال وماجروا عليه من اغتصاب الأموال وتكديس الثروات وافقار الشعب المصرى واستنزاف موارده المالية . كان لها أعظم الأثر فى تحريك مشاعر السخط الشعبية ضدهم ، فكان علماء الدين يتدخلون بقصد الاشفاق على الرعية لدى السلاطين والأمراء على السواء . [2]

كان المماليك يسيؤن معاملة العرب عند وقوع أى اضطرابات ولو أن السلطات المملوكية تفحصت أسباب الاضطرابات وتحرت عن دوافعها وعالجتها لكان من الممكن أن تكسب بذلك قلوب الرعية ، وسياسة كسب القلوب كانت دائما أجدى على الغالبين من سياسة القمع والعسف والسيف التى طبقها المماليك على عرب مصر . فالاضطرابات التى حدثت بسبب المعارك التى نشبت بين قبيلتى حابر ومرديس وعوقبوا عليها باغتصاب ممتلكاتهم وأسر نسائهم وأولادهم كان يسبقها مجاعة شملت مصر كما شملت مناطق

---

(1) يذكر ابن اياس فى أسباب هذه المعركة أن طائفتين من العرب هما حابر ومرديس [illegible] اقتتلا (ونهبوا ضياع البحيرة وأحرقوا الجرون ، فاضطربت أحوال الديار المصرية وعين له السلطان [illegible]) (ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ص ١٢٠) وقد أدى هذا الصدام بين القبيلتين الى [illegible] على العرب وايقاع الهزيمة بهم واستيلائهم على ممتلكاتهم وسوق نسائهم وأطفالهم الى القاهرة [illegible])

(2) د. عبد المنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ، ص ٥٥

واسعة من الوطن العربى الى حد أنه لاذ بمصر فى عام ٦٩٥ هـ (١٢٤٥م) وانتجعها عدد كبير من سكان المناطق العربية المجاورة بحثا عن الطعام .

حدثت هذه المجاعة فى عهد السلطان العادل كتبغا ٦٩٤/٦٩٦(١٢٩٤ - ١٢٩٦) وبلغت تلك المجاعة حدا عنيفا هاجر بسببه عشرات الآلاف من ليبيا الى مصر .[1]

ويصف المقريزى الظروف السيئة التى مرت بها مصر فى ذلك الحين فيقول (واشتد الامر بمصر وكثر الناس بها من أهل الافاق فعظم الجوع)[2] وقد كان وقع تلك المجاعة على العرب اشد عليهم من وقعها على غيرهم بحيث مات منهم بسبب ظروف هذه المجاعة ومضاعفاتها نحو مئتان وسبعون ألفا .[3] وفى ظل تلك الظروف الصعبة كثرت مصادرات المماليك فى الولاة وأرباب الأموال وعظم جورهم فشمل أهل النواحى[4] .

وهكذا يتضح أن الاضطرابات التى وقعت بين جابر ومرديس فى عام ٦٩٩ -(١٢٩٩) بمنطقة البحيرة كانت لها علاقة وثيقة بتلك الظروف الاقتصادية التى بدأت منذ عام ٦٩٥ - (١٢٩٥)

---

(١) المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، حـ٣٢ ، طبع القاهرة عام ١٩٥٧ تحقيق د. الشيال .

(٢) نفس المصدر ، ص٣٥

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ص ١١٢

(٤) المقريزى ، اغاثة الامة ، ص ٣٨

واستمرت آثارها عدة سنوات بعد ذلك ... والأزمات الاقتصادية التي تصيب ... فترة من الفترات ... على البدوي والفلاح أكثر من غيرهما ... لبيعتها بعد زمن معين يظل هؤلاء الذين عانوا أكثر من ... حاجة الى فترة أطول يعيدون فيها تنظيم حياتهم . و ... المصادرات على التجار كان عبء ذلك يقع عادة على ... الدخل المحدود أكثر من غيرهم من فئات الشعب الأخرى ... على ذلك قيام الاضطرابات . فتتدخل الدولة لعلاج ذلك باستخدام القوة والعنف والارهاب . فتوجه الحملات التأديبية الى مناطق الثورات وماتلبث هذه الحملات أن تعود بعد أن تسوق أمامها الآمنين من الأهالي وكأنهم أسرى حرب .

وفى عام ٦٩٥ تعرض الصعيد الأعلى كما تعرض اقليمي البحيرة والغربية بالوجه البحرى لرياح عاتية مترية أفسدت المزروعات كالأرز والسمسم والقلقاس وقصب السكر وسائر مايزرع على السواقى فتزايدت الأسعار وعدمت الفراكه . وقد أعقب ذلك ... ذكر المقريزى ازدياد ظلم اتباع السلطان ومماليكه وتكاثر ... وعظم طمعهم (... أخذ البراطيل والجبايات وكثر ... من الأمراء)[1] ... عام ٧٠١(١٣٠١م). ...

(١) المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٣٧

أنحاء مصر لأنها جاءت كنتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية والسياسية .
ويمتد الفاصل الزمنى بين الحادثتين الى عامين تقريبا اذ أنه خلال ذلك (كان قد ظهر الخلل فى الدولة لقلة المال وكثرة النفقات)[1]

ثم أن حالة الحرب التى عاشتها الدولة فى ٦٩٩ ، ٧٠٠ (١٢٩٩ – ١٣٠٠) وحاجة السلطان الى المال لتزويد الجيش المملوكى بالعتاد والمؤن قبل رحيله لقتال التتار لحماية الحدود الشمالية للشام تكشف عن مدى ماكانت تعانيه الخزانة العامة من ارهاق ويؤكد ذلك أن السلطان محمد بن قلاوون قال للأمراء فى عام ٧٠٠(١٣٠٠م) (والآن لم يبقى فى بيت المال لادينار ولادرهم فمن أين أنفق على العسكر)[2]

وفى مثل تلك الظروف التى كانت تمر بها البلاد من مجاعة وغلاء وأمراض تفتك وحروب تطحن كان عبء سد حاجة الخزانة من الأموال يقع على عاتق الشعب وحده . واذا لم تكن الحكمة رائد الحكام فى علاقاتهم مع الشعب فليس بمستغرب أن تحدث الاضطرابات . وهو ماحدث بالفعل . ففى الصعيد قامت الاضطرابات ولجأ عرب الصعيد الى فرض اتاوات على التجار بالقوة وجمعوا منهم ماكانوا يدفعونه للدولة من ضرائب استخفافا بالسلطة. ولم تكن حركة خروج عرب الصعيد على السلطة قد تمت نتيجة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٣

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٣١

اعداد سابق وفقا لخطة مدروسة وانما نشأت وليدة الظروف الطارئة.

وقد اتسمت تلك الحركة ببعض مظاهر السخرية من كبار أمراء المماليك . فقد تسمى العربان بأسماء الأمراء ودعوا لهم كبيرين أحدهما سموه بيبرس والآخر سلار ، ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون بأيديهم [1] .

وازاء ذلك اضطر المماليك الى استخدام القوة ، ولكى يعطوا مسوغا شرعيا لتصرفاتهم نظرا لخطورة ماهم مقدمون عليه من مواجهة قطاع كبير من الشعب يتمثل فيهم عرب الصعيد وأسيوط ومنفلوط جمعوا الفقهاء من رجال الدين وحصلوا منهم على فتوى شرعية تتيح لهم قتال الخاجين على الدولة [2] . وعند ذلك اجتمع القادة من الأمراء المماليك وأجمعوا رأيهم على تدبير خطة للهجوم على الصعيد ثم أحكموا خطتهم وتكتموا تحركاتهم وتشددوا فى منع الولاة من السماح لأحد بالسفر من الشمال الى الجنوب حرصا منهم على عدم تسرب أنباء الحملة الى عرب الصعيد فيتهيأ لهم بذلك أخذهم على غرة . قال المقريزى (فاتفق الأمراء على الخروج لقتالهم وأخذ الطريق عليهم لئلا يمتنعوا بالجبال والمفاوز فيفوت الغرض فيهم فاستدعوا الأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى متولى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق ٣ ، ص ٩٢٠

(٢) نفس المصدر .

الجزية وغيره من ولاة العمل وتقدموا اليه بمنع الناس بأسرهم من السفر الى الصعيد فى البر والبحر)[1] ثم بالغوا فى الحرص على ضرورة تنفيذ ذلك الأمر الخاص بمنع السفر فأنذروا الولاة بأنهم مسؤولون عن احكام الحصار وان عقوبة من يخالف ذلك الموت ، والولاة هم المتهمون عند ذلك [2] .

ثم استخدم المماليك أسلوك الخداع وتحايلوا على اخفاء تحركاتهم بأن اعلنوا أن الأمراء سيسافرون الى الشام بينما هم قد أعدوا أنفسهم للسفر الى الصعيد [3] .

أما التعليمات السرية التى صدرت الى قادة تلك الحملة فتعبر عن مشاعر العداء المتأصل فى نفوس المماليك نحو العرب والرغبة فى ابادة كل من يتجرأ عليهم أو يعلو صوته على اصواتهم . فقد أمروا (أن يضعوا السيف فى الكبير والصغير والجليل والحقير ولايبقوا شيخا ولاصبيا ويحتاطون على سائر الأحوال [4]

وقد نجحت خطة المماليك ضد عرب الصعيد على نحو تجاوزت كل تقدير . وتمكنوا من السيطرة على الثورة بأن أحاطوا بعرب

---

(1) نفسه

(2) المقريزى، السلوك ، حـ١ ق ٣ ، ص ٩١٨، ٩٢١

(3) نفس المصدر zetterstien – نصوص عربية من دولة المماليك ، ليدن ١٩١٩ ، ص ١٠٧

(4) نفسه

الصعيد جميعا من الجيزة الى أطفيح [١]. وكان لكتمان الخطة والمبالغة في السرية التامة أثرها ونجاحها . فلم يفطن العرب الا بالهجوم . وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم ولم ينج منهم الا النذر القليل .

أما المماليك (فلم يتركوا أحدا حتى قتلوه ووسطوا نحو عشرة آلاف رجل ومافيهم من أحد الا أخذوا ماله وسبوا حريمه فاذا ادعى أنه حضرى قيل له قل (دقيق) فاذا قالها بقاف العرب قتل) . وفي موضع آخر يقول المقريزى (ووقع الرعب في قلوب العربان حتى طبق عليهم الانهار وأخذوهم من كل جهة فروا اليها وأخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا من بجانبي النيل الى قوص ، وجافت الأرض بالقتلى واختفى كثير منهم بمغائر الجبال ، فأوقدت عليهم النيران حتى هلكوا عن آخرهم ، وأسر منهم نحو ألف وستمائة لهم فلاحات وزروع وحصل من أموالهم شئ عظيم حدا تفرقته الايدى ... ثم عاد العسكر في سادس عشر رجب وقد خلت البلاد بحيث كان الرجل يمشى فلا يجد في طريقه أحدا ، وينزل بالقرية فلا يرى الا النساء والصبيان الصغار) [٢]

حارب العرب المماليك في ذلك العصر بهدف التحرر من الاستبداد والطغيان وقدموا أرواحهم ثمنا لهذه الحرية . ولم تكن السلطة المملوكية باستخدامها القوة ضد العرب الا كناطح قرنيه في

---

(١) نفسه / (السلوك)

(٢) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق ٣ ، ص ٩٢٢

الصخر . فلا الصخر يلين ولا هو يرجع حتى يدمى قرنيه ويسقط صريع الوهم ذلك أن المماليك لم يقضوا على الروح الثورية العربية فانهم كانوا كلما قامت ثورة وقضوا عليها وظنوا أن الوقت قد صفا لهم . لايلبث أن يخيب ظنهم فتقدم بعدها ثورة أخرى كأمواج تتدافع الواحدة تلو الأخرى حتى نهاية عصر المماليك .

ان تفاصيل قمع المماليك لهذه الحركة العربية يثير الاشمئزاز وهى وصمة عار يندى الجبين لبشاعتها ، ويمكن أن تقارن بمخازى المغول وجرائمهم البشعة التى اقترفوها فى حق الشعوب الاسلامية الآسيوية بل يمكن أن تقارن بمحاكم التفتيش فى أسبانيا . بل ان اساليب العنف على ثورات العرب كان يعود على المماليك بالخسارة ويكبدهم أضرارا فادحة بالاضافة الى ماولدته مناهضتهم للعرب من مشاعر السخط فى قلوب المصريين لقد كان العرب جزءا من الشعب المصرى وكان على الحكام المماليك كسبا لقلوب الشعب مداراة العرب وذلك عن طريق النظر فى مشاكلهم الاقتصادية والعمل على حلها الا أن المماليك كانوا قد شغلوا بمشاكلهم ومؤامراتهم عن مشاكل الشعب . فكان ذلك من الأسباب التى أدت الى فشلهم فى كسب ود الشعب المصرى مما ترتب عليه نتائج وخيمة ان لم تكن قد ظهرت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فانها ظهرت بعد ذلك فى العهود التالية ولم يلبث المماليك بعد ذلك الاسلوب الوحشى العنيف الذى واجهوا به ثورة العرب فى الصعيد من قتل وتشريد أن اصطنعوا الحكمة فافرجوا عن الاسرى حفاظا

لسلامة البلاد [1] ولم يفطن المماليك من تلك الخطوة الا بعد أن ظهرت نتائج استخدام العنف والسيف على العمران فقد (خلت البلاد بحيث كان الرجل يمشى فلا يجد الا النساء والصبيان الصغار)[2] هذا عن عرب الصعيد ، أما عن عرب الشرقية والوجه البحرى فقد لزموا الهدوء في ذلك الحين ، وجنحوا الى السكينة . وكثيرا ماكان يستخدمهم الامراء المماليك في تنفيذ بعض مشروعاتهم العمرانية فضلا عما كان يفرض عليهم تقديمه من حبوب أثناء سفر السلطان . ففى عام ٧٠٨ (١٣٠٨) أفصح السلطان الناصر محمد بن قلاوون للأمراء المماليك من رجال دولته عن رغبته فى التوجه الى الأراضى الحجازية للحج بأسرته فوافقوه على ذلك مستهدفين استغلال هذه الظروف لتحقيق مآربهم .

وشرعوا فى تجهيزه ، وكتبوا الى دمشق والكرك وغيرها برمى الاقامات ، وألزم عرب الشرقية بحمل الشعير [3] .

وفى نفس عام ٧٠٨ هـ قامت الدولة بانشاء جسر برى يربط بين القاهرة ودمياط لاستخدامه فى الدفاع عن دمياط فى حالة وقوع غزو لدمياط . وفى ذلك يقول المقريزى (ورد الخبر بأن متملك قبرص اتفق مع جماعة من ملوك الفرنج على عمارة ستين قطعة لغزو

---

(١) المقرزى السلوك جـ١ ق ٣ ، ص ٩٢١

(٢) نفس المصدر .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ١ ، ص ٤٣

دمياط فجمع السلطان الأمراء وشاورهم ، فاتفقوا على عمل جسر من القاهرة الى دمياط خوفا من نزول الفرنج أيام النيل ، وندب لذلك الامير جمال الدين آقوش الرومى الحسامى)[1] .

وقد استعان هذا الامير بالعرب فى جملة من استعان بهم من رجال فى تنفيذ اقامة ذلك الجسر الا انه اصطنع القسوة البالغة مع العرب وفعل معهم ما لم يفعله مع غيرهم . فنكل بكثير من مشايخ العربان وضربهم بالمقارع وخزم انافهم وقطع آذانهم[2] .

وبسبب هذه المعاملة القاسية التى لقيها العرب من أمراء المماليك كانت تقوم الثورات ولاتهدأ . ففى عام ٧١٣ (١٣١٣) تجددت الاضطرابات فى الصعيد واستخدم المماليك فى القضاء عليها أسلوب السرية والمفاجأة .

يقول المقريزى (توجه السلطان الى الصعيد فى ثامن عشرى رجب ونزل تحت الاهرام بالجيزة فأظهر أنه يريد الصيد والقصد أخذ العربان . فانه كثر قطعهم الطريق وكسروا الخراج وبعث السلطان عدة من الأمراء حتى أمسكوا طريق السويس وطريق الواحات فضبط البرين على العربان . ثم رحل من منزلة الأهرام بالجيزة

---

(١) نفس المصدر ، ص٤٨ . قال : المقريزى (والظاهر أنه كان يتعجل اتمام بنيانه وهذا يفسر قسوته فى معاملة الرجال حتى يجتهدوا فى العمل فاتمه فى اقل من شهر .

(٢) نفسه ، جـ١ ق١ ، ص٤٩

وفيها توقفت زيادة النيل الى أن دخل شهر مسرى وارتفع سعر القمح حتى أبيع الاردب بخمسين درهما والاردب الشعير والفول بعشرين درهما)[1] أما أسعار هذه السلع فى الظروف العادية فيوردها القلقشندى فى صبح الاعشى فيقول (أواسط أسعارها فى غالب الاوقات أن يكون الاردب بخمسة عشر درهما والشعير بسعره (عشرة دراهم) والسكر الرطل بدرهم ونصف) [2] ويتضح من دراسة السعرين أن الاسعار ارتفعت الى ثلاثة أضعاف ثمنها فى عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) عنها فى الاحوال العادية وواضح أيضا أن أثر ذلك كان كبيرا على العرب البدو والفلاحين اذ أن أغلبهم كان يعيش على الضرورى . ومن هنا يقع الضرر عليهم فى مطالبهم الضرورية فلا يمكنهم أن يتحملوا نتائجها غالبا . وعلى هذا النحو تبدأ الاضطرابات . وقد جاء تصوير سوء الاحوال الاقتصادية فى البلاد وحالة الشعب فى هذا البيت الذى يورده ابن اياس:)

ان عجل النور وز قبل الوفـــا

عجل للعالم صفع القفـــا

فقد كفى من دمعهم ماجـــرى

وماجرى من نيلهم ماكفـــى

---

(١) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٣ ، ص ٤٤٤

(٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٣ ، ص ٤٤٤

وهذا وصف لكسر سد النيل قبل موعده لأن السلطان كما يذكر ابن اياس كان قد رسم بكسر السد من غير وفاء لأن النيل نقص عن الوفاء ثلاثة أصابع فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية ولم يخلق المقياس لذلك لأن التخليق لايكون الا بالوفاء [1] .

وقد ترتب على ذلك وقوع الاضرار الاقتصادية التى وقع عبئها على الشعب .

وقد تأثر تدهور الحالة الاقتصادية على الاحوال السياسية فى البلاد بدليل أن الاهالى طالبوا بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الى دست السلطنة ، وأخذ العامة يغنون وينشدون (سلطاننا دكين ، ونائبنا دقين

يجينا الماء منين

جيبوا لنا الاعرج ، يجى الماء ويدحرج) [2]

وقد عاقب السلطان الاهالى بسبب توقفهم هذا عقابا صارما (فرسم بقبض جماعة من العوام نحو الثلاثمائة انسان فضرب منهم

([1]) التخليق : خلقه (بتشديد اللام) يعنى تعطيرة ومسحه بالزعفران والمسك عند وفاء النيل.(تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام د. عبد العزيز سالم ود. مختار العبادى ، ص ٢٢٧ ، هامش(١)

([2]) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ق ١ ، ص ٥٥ - ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ١٢٦

جماعة بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة ورسم بقطع السنة جماعة منهم[1] .

ومن هذا المنطلق يتضح الموقف فانه منذ ٧٠٩(١٣٠٩) والشعب المصرى ينوء بأعباء تثقل كاهله فارتفاع الاسعار كان دافعا لسخطه على السلطان ومقته لنائبه فشاع ذلك على السنة الشعب وصاغوا تصوراتهم شعرا وتغنوا بذلك فى أماكن المتفرجات كما ذكر ابن اياس.

وما أن وافق السلطان ركن الدين بيبرس على التخلى عن الحكم وبلغ ذلك الخبر عامة الشعب حتى تجمع جمهور كبير من الاهالى حول موكب السلطان وهو خارج من القلعة وصاحوا يهتفون ضده ظنا منهم بأنه قد خرج هاربا وتبعوه وهم يصيحون عليه وبالغوا فى الامر حتى رماه بعضهم بالحجارة . فلما حاول اغراءهم بنثر المال عليهم ليصرفهم عن متابعته لم يستجيبوا لذلك وظلوا على موقفهم العدائى منه [2] . هذه الأحوال الاقتصادية التى دفعت المصريين الى انتقاد السلطان بيبرس والمطالبة بتنحيته وعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون هى نفسها التى دفعت بالعرب من قبل الى الثورة . لقد كان سوء الاحوال الاقتصادية . المبرر الحقيقى لاعلان الثورات و لم

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢١ ق١ ، ص ٥٥ (ويقصدون بركين ، ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وبلكين ، الامير سلار النائب وكان أمرد لاشعر بلحيته وبالاعرج الناصر محمد بن قلاوون (المقريزى ، السلوك جـ٢ ق١ ص ٥٥ هامش ١،٢،٣

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ق ١ ، ص ٧٣

يلبث عرب الصعيد أن ثاروا من جديد فى ٧١٦ (١٣١٦) وقام السلطان بتجريد حملة عسكرية كبيرة تتبعت الثوار الى السودان ومابعدها دون أن يظفر المماليك بهم . وفى ذلك يقول ابن اياس (جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب بأعالى الصعيد بسبب فساد العربان فخرج فى هذه التجريدة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك فتوجهوا الى بلاد البجاه وجاوزوا الاقاليم الثلاثة فلم يظفروا بأحد من العربان العصاه فرجعوا الى القاهرة من غير طائل . وكان قوت العسكر فى هذه التجريدة الذرة والماء من الحفائر وكانت العرب فى الجبال فلم يظفروا منهم بأحد يلوح)[1] .

ومن هذا النص يظهر المدى البعيد الذى وصلت اليه المطاردة بين المماليك والعرب فهم قد بددوا شمل العرب وفرقوا بينهم حتى تعقبوهم عبر حدود السودان . وعلى الرغم مما حدث بين العرب والمماليك فى مصر فان كثيرا من الشخصيات العربية كانت لها همة فى البناء والتعمير . فبعد واقعة الصعيد عام ٧١٣(١٣١٣) أفرج السلطان محمد بن قلاوون عن أحد المشايخ العرب وهو مقداد بن شماس أحد مشايخ القبائل الذين سبق اعتقالهم فى معارك الصعيد ثم سمح له هو وأولاده وخدمه بالاقامة بالاسكندرية و لم يكتف السلطان بذلك بل أنعم عليه بمال وغلال وكتب برد أهله وأولاده وعبيده اليه وأنزله بالناصرية التى أنشأها على خليج الاسكندرية .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٣٥

الاقتصادى وكانت تتمثل فى صورة احتجاج هادئ يستهدف تخفيف الضرائب أو رفع العبء الواقع عليهم نتيجة لانحراف فئة من كبار رجال الدولة . أما العرب فمع أنهم كانوا يقومون بالثورة لنفس الاسباب والدوافع الا أنهم كانوا يعيشون فى شظف من العيش بحيث لايجدون الضرورى من القوت فيلجأون عندئذ الى استخدام العنف للحصول على مايشتهون .

وعلى هذا النحو نجد أن ثورات العرب عادة تنشأ بسبب عوامل اقتصادية تتضافر مع ظروف داخلية غير طبيعية فيتولد من ذلك انفجار . ومن أمثلة تلك الاحوال كثرة المصادرات بالحق وبغير الحق ، وتعدد المظالم وتنوعها ضد العامة والخاصة واذا كانت الثورات العربية قد أجهضت فى عهد محمد بن قلاوون وهدأت الاحوال خلال المدة من عام ٧٣١ الى ٧٤٨ (١٣٣٠ - ١٣٤٧) الا أن العسف والجور لم يتوقفا . وظل الشعب فى مصر يتحمل الكثير من الارهاق والاستبداد والتسلط . ولم يلبث أن غلى مرجل غضبه فثار. ففى عهد الناصر محمد بن قلاوون عانى العرب والمصريون من أحد كبار الموظفين أشد أنواع المصادرات قسوة والتدخل فى الاسواق للتلاعب فى أثمان السلع ورفع الأسعار عند التعامل مع التجار بالشراء بالقوة ، واعادة البيع بأضعاف ثمن الشراء بالسعر الذى يحدده . المسئول . هذه الشخصية هى شخصية ناظر الخاص للسلطان محمد بن قلاوون وأعنى به عبد الوهاب والملقب بشرف الدين والمعروف باسم (النشو) عين النشو فى وظيفته ..ام

٧٣١ (١٣٣٠م) وبدأ بعد توليه منصبه يقوم بأعمال المصادرات لتحصيل الاموال بغير حق من أصحاب الاملاك أو التجار وأمثالهم .

وفي عام ٧٣٢ (١٣٣١) نجح النشو فى اقناع السلطان بأن مايحصل للدولة من أموال ليس هو القدر الحقيقى وأنه بالامكان رفع هذا القدر الى أضعاف ماهو عليه .

ويحدثنا المقريزى عن النشو فى أول اتصاله بالسلطان الناصر فيذكر أنه عندما استقر عند الأمير آنوك (ناصر الدين آنوك) ابن السلطان (صار يخلو بالسلطان ويحادثه فى أمر الدولة ويكثر من الوقيعة فى الدواوين حتى اشتد كلامه فى نفس السلطان وتصور فى ذهنه منه أنه يحصل له مالا كثيرا . فما هو الا أن استقر فى نظر الخاص حتى أخذ يغرى السلطان بأولاد التاج اسحاق حتى غيره عليهم)[١] ثم بدأ النشو بعد ذلك يكثر من تصفية الاموال ومصادرتها لحساب السلطان ويلزم ولاة الاعمال بحمل المال كما كان يبعث أخاه لكشف الدواليب بالصعيد[٢] .

ثم بدأ بعد ذلك يكشف للسلطان عن تلاعب المباشرين بأموال السلطان . وجمع الثروات الطائلة بغية الثراء الفاحش من مال السلطان . ومازال حتى اقنعه بذلك فأطلق السلطان يده فى شئون الدولة وفق مايراه (ورمى النشو المباشرين مع ذلك بعظائم من كثرة

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ق ٢ ، ص ٣٤١

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥٨

أموالهم ونعمهم مما أخذه فى مباشرتهم من مال السلطان . فاذن له السلطان على عمل مايختاره وأن يتصرف فى الدولة ولا يبالى بأحد ووعد بتقوية يده وتمكينه ومنع من يعارضه)(١) .

وقد تمكن النشو بفضل هذا التفويض السلطانى من التصرف فى الدولة بعد أن أقنعه بأن فى استطاعته – لولا خشيته من الامراء المماليك – ان يملأ خزانة السلطان وحواصله أموالا .

وفى عام ٧٣٦ (١٣٣٥ اتجه النشو الى الصعيد وبدأ فى الاستيلاء على أموال بعض العرب من أمراء الصعيد فصادر جماعة من أرباب الدواليب بالوجه القبلى وصادر من محتسب البهنسا وأخيه قدر مائتى ألف درهم وألفى أردب غلة) فرافع ابن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو فاقتضى رأيه مصادرة ابن زعازع لكثرة ماله وأوقع الحوطة على موجوده)(٢) .

أما ابن زعازع الذى أوقع به النشو وصادر ممتلكاته فانه تعرض أيضا للتعذيب الشديد ويعبر المقريزى عن قسوة النشو فيقول (وكتب الى متولى البهنسا ليعاقبه أشد العقاب فلف والى البهنسا على أصابعه الخروق فغمسها فى القطران وأشعل فيها النار ثم عراه ولوحه على النار حتى أخذ منه ماقيمته ألف وخمسمائة درهم ووجد

---

(١) نفسه ، ص ٣٦٩

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٤٠٨ – البيان والاعراب ، ص ٥٣ – القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ،ص ٦٧ . وقال المقريزى عن قبيلة زعازع المتعربة (وأولاد زعازع أشهر فى الصعيد)

له أربعمائة فرجية بفرو ومائة وعشرين جارية وستين عبدا ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمبلغ مائة ألف درهم)[1]

كذلك يعبر ابن اياس عن ظلم النشو للعرب بقوله (قبض على ابن فضل شيخ مدينة ملوى وكان له دواليب ومعاصر وكان يزرع فى كل سنة القصب الحلو خمسمائة فدان . فلما قبض عليه النشو وجد عنده فى حاصله أربعة عشر ألف قنطار سكر ومثلها قطر نبات ومثلها عسل أسود) بخلاف العبيد والجوارى والغلال والى ذلك وقد حمل هذا كله الى الحواصل السلطانية . أما ابن فضل فأقام فى الترسيم مدة ثم أفرج عنه وأعيد الى عمله بمدينة ملوى [2] .

هذه مجرد أمثلة للمصادرات العديدة التى وقعت على العرب وعلى غيرهم من طوائف الشعب على يد النشو ناظر الخاص . ولايخفى آثار تلك الاعمال ونتائجها . على الاهالى من انتشار السخط العام الذى لايلبث أن يظهر فى شكل ثورات تشغل كبار رجال الدولة وتزيد من تعقيد مايواجهونه من مشاكل .

أما فيما يتعلق بارتفاع الاسعار الى عدة أضعاف ثمنها الحقيقى من جراء تدخل ناظر الخاص الذى أطلق السلطان يده فى كل شئون الدولة فمنها ماوقع فى عام ٧٣٧ (١٣٣٦) .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٢ ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩

(٢) بدائع ، جـ٢ ، ص ١٤٤

عندما استولى النشو على البضائع وطرحها فى السوق بثلاثة أمثالها أو استيلائه على الوارد من البضائع بنصف قيمتها . مما أدى الى احجام التجار عن الاستيراد . فضعفت تجارة الوارد ولحق الضرر التجار والأهالى على السواء ، فاهتز اقتصاد المدينة وترك كثير من التجار حوانيتهم وغيبوا فصارت مفتحة والاعوان وهم المقدمون الذين بعث بهم النشو الى الاسواق ينهبون لأنفسهم ماأرادوا . فلم يكن يرى يومئذ بالقاهرة الا باك أو صائح أو نائح[1] وظل الاهالى يعانون من جور النشو واسرافه فى اضطهادهم حتى بلغ تذمرهم من فعاله الغاية . وبدأ النشو يخشى الاستمرار فى السير على هذه السياسة . وتحول عن عامة الشعب الى خاصة القوم . وبهذه الخطوة الاخيرة عجل النشو بنهايته المحتومة فصدر الامر بالقبض عليه هو وأعوانه من أفراد أسرته فى عام ٧٣٩ (١٣٣٩) . ويعلل المقريزى ذلك بقوله (وسبب ذلك أنه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجار بطرح الاصناف عليهم بأغلى الاثمان وطلب السلطان منه يتزايد خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة الى التعرض الى الخاصة . ورتب مع أصحابه ذلك)[2]

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ق ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٣، ٤١٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٩

ومما يؤكد مالاقاه العرب والمصريون فى مصر من ظلم النشو ماقاله الشعراء فى القبض على النشو فقد أسعد العرب كما أسعد المصريين . قال : (ان يوم الاثنين يوم سعيد: فيه لاشك للبرية عيد

أخذ الله فيه فرعون جهرا : وغدا النيل فى رباه يزيد[1]

واجتمع الناس بالرميلة تحت القلعة ومعهم النساء والاطفال وقد اشعلوا الشموع ورفعوا على رؤسهم المصاحف نشروا الاعلام وهم يصيحون استبشارا وفرحا بقبض النشو)[2]

جـ- فى عهد المظفر حاجى :

لما مات محمد بن قلاوون وولى أبناؤه من بعده الحكم فى البلاد ظهرت آثار الضغط والعنف الذى وقع على العرب والمصريين من جانب الذين أسرفوا فى استخدام سلطانهم وأساؤا الى الشعب بالمصادرات والمغارم وعلى رأسهم النشو ناظر الخاص . وازدادت هذه الاحوال الداخلية سوءا في عهد أبناء محمد بن قلاوون عما كانت عليه فى عهد أبيهم .

وبدأت الثورات العربية تظهر من جديد فى الصعيد بعد فترة الهدنة الموقتة من عام ٧٣١ الى ٧٤٨ . ففى عهد المظفر حاجى ثار عرب الصعيد فى ربيع الاخر من عام ٧٤٨ (١٣٤٧) وقطعوا

---

(١) نفس المصدر.

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٩

الطريق على المسافرين وبلغ ذلك السلطان كما بلغه كثرة حشود العربان بالصعيد والفيوم وطغا فسادهم وتعذر السفر على المسافرين فلم يهتم بذلك لاشتغاله بلهوه[1] وكانت له اجتماعات بالاوباش وأراذل الطوائف من الفراشين والبابين ومطيرى الحمام . فكان يقف معهم ويراهن على الطير الفلانى والطيره الفلانية . [2]

كما اسرف فى اللهو وتبذير أموال الدولة بانفاقها على الخدم والحظيات . فعندما قدم من الحرانى من دمشق بمال يلبغا اليحياوى تسلمه الخدام (وأنعم السلطان من ليلته على (كيدا) حظيته بعشرين ألف دينار منه سوى الجواهر واللالئ ونشر الذهب على الخدام والجوارى فاختطفوه وهو يضحك منهم [3] وذكر بعض المورخين أنه وصله من الذهب العين خمسون ألف دينار أنفقها السلطان جميعا على طيور الحمام [4]

د- فى عهد الناصر حسن :-

ثم كانت ثورة بن الاحدب فى الصعيد فى بداية عهد السلطان الناصر حسن فى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورات عرب العايذ وثعلبة وعشير الشام . ويعبر المقريزى عن اضطراب الاحوال فى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧٣١

(٢) نفسه ، ص ٧٣٩

(٣) نفسه ، ص ٧٤١

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، [illegible]

عهده بقوله (وكانت أيامه شديدة كثر فيها المغارم بالنواحي وخربت عدة أملاك على النيل واحترقت مواضع كثيرة بالقاهرة وخرجت عربان العايد وثعلبة وعشير الشام وعرب الصعيد عن الطاعة . واشتد فسادهم وكثر قطعهم للطرقات).

وكان الفناء الذى لم يعهد مثله .

وتوالى شراق الاراضى وتلاف الجسور وقيام ابن اصل الاحدب بالصعيد والعجز عنه وقتل عرب الصعيد طغيه الكاشف ، وهزيمتهم الهذباني ، وأخذ ثقله .

فاختلت أرض مصر وبلاد الشام بسبب ذلك خللا فاحشا [1] . وفى مثل تلك الظروف البالغة القسوة قام العرب بثوراتهم فى مصر والشام والواقع أن العرب اضطروا اضطرارا الى التعبير عن استيائهم وسخطهم من سوء الاوضاع السياسية والاقتصادية . ولو أن الحكومة المملوكية اهتمت بالسيطرة على الاحوال الاقتصادية فى البلاد وحصر الاضرار التى حلت بالناس ومنع استفحالها . وقدمت

---

(1) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٨٤٢ ، ٨٤٣ - ويشير ابن اياس الى الوباء الذى تفشى فى العالم أجمع تحت اسم الطاعون الاسود فى عام ٧٤٩(١٣٤٨) وعن آثاره بمصر بقوله (لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذى جاء فى هذه السنة لأنه عم البلاد قاطبه ومات فيه من الناس مالا يحصى عددهم) . ثم يضيف قائلا (ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم من يزرع فوقع الغلاء حتى بيعت كل ويبة قمح بمائتى درهم) فاذا كان ثمن الويبة فى الاحوال العادية درهمين ونصف فمعنى ذلك أن الويبة من القمح التى ارتفع ثمنها الى مائتى درهم قد تضاعف ثمنها بمقدار ثمانين مرة (القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٣ ، ص ٢٧ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٦٢)

العون الى الاهالى حتى تزول [illegible] قيام العرب بثورتهم وقد تبين لنا مما سبق أن عرفناه ان قيام الثورات كان يرتبط فى مصر دائما بظهور المشاكل الاقتصادية فى البلاد . ومن عوامل قيام العرب بثورتهم أيضا فى هذا العهد ، أن المماليك لم يتخلوا عن سياستهم فى التفرقة بين قبائل العرب فأوقعوا الفتنة بين عرب عرك وبنى هلال بعد أن أعيتهم الحيل فى التغلب عليهم وقهرهم بالقوة .

وفى ظل هذه الظروف الصعبة التى فتك فيها الطاعون الاسود بالفلاحين مع ماارتبط بذلك من قلة المحصول وارتفاع الاسعار وجور الولاة وكثرة المغارم التى أرهقتهم بها الدولة ومما أدى الى ذلك من صراع بين بعض قبائل العرب وتغاضى الولاة عن النظر فى حل مشاكل القبائل قامت ثورة بن الاحدب فى عام ٧٥٢ (١٣٥١) . واستطاع ابن الاحدب ان يسيطر على الصعيد ويبسط سلطانه عليه . وفى عام ٧٥٤ امتدت الثورة الى منفلوط والمراغة بالاشمونين والواحات والفيوم والبهنسا واجتمع حول ابن الاحدب حشد كبير من العرب الامر الذى دعاه الى أن يطلق على نفسه لقب الامير . ويعبر المقريزى عن ذلك بقوله (وادعى ابن الاحدب السلطنة وجلس فى جتر أخذه من قماش الهذبانى وجعل خلفه المسند وأجلس العرب حوله ومد السماط بين يديه فنفذ أمره فى الفلاحين وصار الجندى اذا أنكر له خراج قصده وسأله فى خلاصه

من فلاحه فيكتب له ورقة لفلاح ءأهل بلده فيصل بها الى حقه)[1] فاذا كان ابن الاحدب قد أصبح بيده اعطاء صاحب الحق حقه اذا أنكره من بيده فان هذا يعنى أنه أعاد الى البلاد الاستقرار والامن. وعلى هذا النحو يمكننا ان نستنتج أن ابن الاحدب ماقام بثورته الا بسبب اختلال الاوضاع فى البلاد سياسيا واقتصاديا واداريا وكانت الدولة فى غفلة عن هذه الحركة أولا لأنها اقليمية وثانيا لاستغراق السلطان فى ملاذه ولهوه. ولما استفحل أمرها حين وصلت الى حد قيام ابن الاحدب بمنع الخراج عن الدولة عند ذلك فقط بدأت الدولة تدبر الخطط للقضاء على الثورة. فكأن الدولة لم تشغل نفسها عندما قامت الثورة بحماية الشعب وانما الذى شغلها هو توقف جباية الاموال. فالحركة المضادة من جانب الحكومة اذن لم تكن دفاعا عن شعب الصعيد بقدر ماكانت دفاعا عن حق الدولة فى جباية الاموال التى جمعها ابن الاحدب واحتفظ بها دون الدولة ومنع تسليمها الى الولاة. قامت ثورة ابن الاحدب أوائل عام ٧٥٢ (١٣٥١) واستمرت الى عام ٧٥٤ (١٣٥٣) أى حوالى ثلاث سنوات وفى شوال من عام ٧٥٤ (أكتوبر ١٣٥٣) قررت الدولة ارسال حملة عسكرية الى الصعيد [2] وكانت هذه الحملة تتكون من

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ق٣ ، ص ٨٥٩ ، ٩٠٨

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٩٠٩

فرقتين احداهما اتجهت الى قوص والأخرى الى الواحات وسند قيادة الفرقتين الى شيخو أحد كبار القادة من مقدمى الالوف [1] .

ولما وجد ابن الأحدب أن المماليك قد استعدوا لشن هجوم شامل على العرب وأنهم عزموا على اصطناع كل وسائل العنف والقسوة عمد الى عقد تحالف مع القبائل فاجتمع مع عرب منفلوط وعرب المراغة فوصل عدد الفرسان العرب الى مايزيد عن عشرة آلاف فارس واجتمع معه مالايحصى من المشاه [2] .

ولما وصل الامير شيخو قائد الحملة الى أسيوط وبلغه قوة العرب وخشى من لقاء ابن الاحدب آثر أن يستخدم الحيلة والدهاء واسلوب الخداع مع العرب ، فبعث بأحد الامراء يعطى الامان لعرب بنى هلال واستدرجهم حتى قدموا اليه بأسلحتهم ووقعوا فى شرك الخديعة فقبلوا الامان الكاذب الذى أعطاه لهم ، ثم جردهم المماليك من أسلحتهم وخيولهم وقتلوهم جميعا [3] وبعد أن تخلص المماليك من عرب بنى هلال بالاسر والقتل تفرغوا لبقية عرب الصعيد بقيادة ابن الاحدب وتلاقت طلائع العرب مع طلائع المماليك قرب ادفو فى برية بوادى يسمى وادى الغزلان . حدث

---

(1) من المعروف ان رتبة امير مائة مقدم الف من أكبر الرتب العسكرية فى الجيش المملوكى وهى تلى رتبة اتابك العساكر (راجع ابن شاهين الظاهرى والقلقشندى .

(2) القريزى ، السلوك جـ٢ ق ٣ ، ص ٩١١ ، وراجع على ابراهيم حسن دراسات فى التاريخ المماليك .

(3) القريزى . السلوك ، جـ٢ ق٢ ، ص ٩١١ ، ٩١٢

أن بدأ القتال بين العرب والمماليك استخدم العرب طريقة الكر والفر فكانوا يقاتلون المماليك وينسحبون حينا ثم يعودودن مرة أخرى . وهكذا ولكن العرب عندما اوشكوا على قهر المماليك قدمت الى هؤلاء نجدة بقيادة الامير شيخو فرجحت كفة المماليك وانهزم العرب [1]

والواقع أن معركة ابن الاحدب مع الحكام المماليك لم تختلف فى نتيجتها عن المعارك السابقة فقد استولى المماليك على ممتلكات العرب بعد أن أوقعوا بهم الهزيمة (فاحاطوا بمال كثير مابين مواشى وقماش وحلى ونقود وعروض وأقوات وازواد وروايا ماء . وسبوا حريمهم وأولادهم فاسترقوا كثيرا منهم وصار الى الاجناد والغلمان منهم شئ كثير [2] .

لقد انتقم المماليك من العرب بعد المعركة فاوقعوا بهم أشد العذاب الى حد أن جماعة من العرب آثروا الانتحار من أعلى الجبل على الاستسلام . فكان بينهم من يلقى نفسه من أعلى الجبل ولايسلم نفسه ويرى الهلاك أسهل من أخذ العدو له [3] . ويبالغ

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفسه

(٣) نفسه

المقريزى فى تصوير انتقام المماليك من العرب فيذكر أنهم تتبعوهم فى الصعيد (حتى لم يبق ببلاد الصعيد بلوتى) (١)

ونستدل من طريقة اخماد المماليك لثورة بن الاحدب على أن المماليك لاشتغالهم بالصراع على السلطة . لم يهتموا بمعالجة مشاكل العرب الاقتصادية . بالرفق باعتبارهم فئة من الشعب وانما اعتبروهم طامعين فى الحكم . ومن المؤكد أن المماليك كانوا يهدفون الى ارهاب الثوار العرب ولذلك فقد بالغوا فى الضرب على أيديهم ظنا منهم ان المحرك الرئيسى لثورة العرب مجرد اطماع سياسية . والظاهر أن المماليك من طريق معاملتهم للعرب - كانوا يعون تماما ماأعلنه الزعيم حصن الدين بن ثعلب من أن العرب أحق بالحكم من المماليك . لذلك نراهم يتشددون ويعملون بكل قسوة للقضاء على كل ثورة يقوم بها العرب . ومع ذلك فالعصر المملوكى لم يكن تسوده الثورات بطبيعة الحال . وانما كان هناك تعاون كامل بين العرب والمماليك فى الظروف التى يتعرض فيها أمن البلاد للخطر . وقد ظهر ذلك جليا فى معارك مصر والشام الحاسمة مثل معارك دمياط والمنصورة وعين جالوت ومرج راهط والريدانية وغيرها . وقد جاء ذكر ذلك فى موضعه من هذا البحث.

---

(٤) نفسه

ونستنتج من المعارك مايلى :-

١- تفرق العرب وتشتتهم فى البلاد وخروج بعضهم من مصر ولجوءه الى النوبة [١]

٢- فقد العرب ممتلكاتهم بعد ماعنوه من هزائم . فالعرب فى حروبهم كانوا يجمعون نساءهم وأولادهم وجميع ممتلكاتهم قرب ساحة المعركة ايمانا منهم بأن هذا يدفع المقاتلين الى الحماس والاستبسال [٢] . وهذه الخطة التى وضعت لترفع من روح المقاتل العربى من أجل تحقيق النصر . كانت تتحول بعد الهزيمة الى مأساه. فقد كان العرب ومايملكون تؤول غنيمة باردة للمماليك [٣]

٣- حرمان العربى (من البدو والفلاحين) من حمل السلاح أو ركوب الخيل . فقد صدرت الاوامر بعد حركة ابن الاحدب الى ولاة الاعمال وكشافها بألا يدعوا فى جميع النواحى فرسا لبدوى ولا لفلاح [٤] .

ولما وجد ابن الاحدب بعد الهزيمة ماأصبح عليه من الضعف والهوان جنح الى طلب الصلح واعلان الخضوع لسلطان المماليك وتوسط له فى ذلك الشيخ أبو القاسم الطحاوى أحد الصوفية ذوى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ص ٩٠٩ - ابن اياس

(٢) بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٧٢

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٩١٣ ، ٩١٤

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٩١٣ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٧٢

النفوذ عند الامير شيخو فى ذلك الحين فقبلت وساطته فرسم له باقطاع وعاد الاحدب الى بلاده بعد ماأقام نحو شهر وقد ألبسه السلطان تشريفا ثانيا .(١)

من خلال وساطة الشيخ أبى القاسم الطحاوى ومعاونته لابن الاحدب فى عودته الى مكانته الاولى يتبين أن الحركات الثورية للعرب ومنها ثورة ابن الاحدب كانت ثورات هادفة ذات مقاصد معينة . منها اصلاح أحوال الصعيد بعد أن انصرف الحكام عن الاهتمام به . وتعدد مشاكل أهله . كما أن ظهور ابن الاحدب بمظهر الحاكم فى الفترة التى بسط فيها سيطرته على الصعيد تعبر عن مشاعر الطموح التى كثيرا ماحركت العرب للاستيلاء على السلطة فى البلاد لولا المعونة العسكرية التى كانت تتوفر للمماليك فيقضون بها على مطامع العرب .

كما أن مساندة أبى القاسم الطحاوى لابن الاحدب تعد دليلا واضحا على عدالة قضية العرب . وتبرر فى الوقت نفسه حقهم فى

---

(١) وفى شهر ربيع الاول ٧٥٥ (١٣٥٤) قدم محمد ابن واصل الاحدب شيخ عرك من بلاد الصعيد طائعا وكان من خبره أنه لما نجا وقت الهزيمة وأخذت أمواله وحرمه ترامى بعد عودة العسكر على الشيخ المعتقد أبى القاسم الطحاوى. فكتب الشيخ المعتقد الى الامير شيخو يسأل العفو عنه وتأمينه على أن يقوم بدرك البلاد ويلتزم بتحصيل جميع غلالها وأموالها . ومايحدث بها من الفساد فانه مؤاخذ به . وانه يقابل نواب السلطان من الكشاف والولاة فكتب أمان سلطانى . وكوتب بتطييب خاطره وحضوره أمنا فسار ومعه الشيخ أبو القاسم فاكرم الامراء الشيخ وأكرموا لاجله الاحدب وكان دخوله يوما مشهودا . ومثل ابن الاحدب بين يدى السلطان وأنعم عليه السلطان وألبسه تشريفا وناله من الامراء أنعام كثير . وضمنلهم درك البلاد على ماتقدم ذكره . المقريزى . السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٩١٦

الاستياء والتذمر كما أن قبول المماليك اعادة ابن الأحدب الى مكانته واعزازه يحمل معنى قبول عذره وأن العرب ماقاموا بثورتهم الا بسبب اختلال الاحوال فى البلاد .

وقد أعقب تلك الفترة من تاريخ مصر مأوجب دخول كثير من المصريين فى الاسلام واتفقت ظروفهم مع العرب المضطهدين الذين فقدوا أسباب قوتهم وأصبحوا ضعفاء بعد فشل ثوراتهم المتكررة ضد الحكام المماليك .

فوقع بين العرب والمصريين من أسباب الاندماج والمصاهرة ماحول الانساب العربية الخالصة الى عروبة قد امتزجت بدماء المصريين فكانت هذه من أكبر حركات التعريب فى مصر . قال المقريزى (وكثرت الاخبار من الوجه القبلى والوجه البحرى بدخول النصارى فى الاسلام ومواظبتهم فى المساجد وحفظهم للقرآن ، الى أن قال (ومن حينئذ اختلطت الانساب بأرض مصر فنكح هؤلاء الذين أظهروا الاسلام بالارياف المسلمات واستولدوهن[1] .

وهكذا فقد ازدهرت حركة الاندماج بين العرب والمصريين فى عصر المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل فى تاريخ مصر الاسلامية .

---

(1) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٩٢٧

في عهد الاشرف شعبان :

وصف ابن اياس الاشرف شعبان ٧٦٤ - ٧٧٨ (١٣٦٢-١٣٧٦) بالعدالة والحلم والمحبة والانقياد للشريعة ورعاية مصالح عامة أفراد الشعب . كما وصف عهده بالهدوء من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية وثورات العرب .[١]

وهذا الوصف الذى يسوقه ابن اياس لعهد السلطان الاشرف يتضمن من الادلة والبراهين مايؤكد ارتباط الثورات العربية بالازمات السياسية والاقتصادية للدولة ويؤكد المؤرخون وعلى الاخص ابن اياس فى أكثر من موضع أن العرب عوملوا فى عهد الاشرف شعبان معاملة خاصة من ذلك أنه أمر - عام ٧٧٣ (١٣٧٣) - بان يجعل السادة الاشراف قاطبة فى عمائمهم شطفات خضر تمييزا لهم عن غيرهم وتعظيما لقدرهم[٢] .

كان الاشرف شعبان محبوبا من أفراد الشعب لعدالته ولكن أمراء المماليك لم تكن ترضيهم هذه السياسة . فقد تكررت محاولاتهم عبثا لخلعه عن عرش السلطنة - مرة فى عام ٧٦٨ (١٣٦٦) عندما دبر الامير يلبغا مؤامرة لخلعه وتولية أخيه أنوك ، الذى لقبه بالملك المنصور وأجلسه على عرش السلطنة . ثم فشلت الخطة واضطر الامير يلبغا الى الانسحاب من القلعة والعودة الى منزله بعد فشل

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٠٢

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ١٩٥

المؤامرة وقد أثار هذا الامير بفعلته هذه سخط العامة فتجمع عدد منهم واعترضوا طريق عودة الامير فقابلوه بالرجم وبالهتافات العدائية ولم يتمكن من التخلص منهم الا بعد أن بذل مجهودا كبيرا [1] .

وقد قتل الامير يلبغا بعد ذلك وتولى منصبه الامير استدمر الا أن مماليك الامير يلبغا ثاروا على الامير الجديد ورفضوا توليه عليهم . وعندئذ احتمع كثير من العرب والمصريين لنصرة الامير استدمر فلم يجد المماليك الثائرون بدا من الانسحاب خوفا من ثورة الجماهير ضدهم[2]

ولكن موقف العرب اختلف عندما دب النزاع بين الامير استدمر والسلطان شعبان . فقد هب الاهالى من العرب والمصريين لنصر السلطان شعبان وقاتلوا معه ضد مماليك استدمر وهزموهم وقتلوا بعضهم واسروا بعضهم الاخر .[3]

فى عام ٧٧١ (١٣٦٩) تظاهر جمهور كبير من أهالى القاهرة ناحية القلعة ومنعوا الامراء المماليك من الصعود الى السلطان مطالبين بتسليمهم والى القاهرة وشاد الدواوين علاء الدين بن كبك، احتجاجا على سياسته التعسفية معهم . ورغم أن السلطان شعبان أمر بفض التجمهر بالقوة الا أنه نزولا على رغبة اهالى العاصمة قام

---

(١) نفسه ، ص ١٨٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٨٩ ، ١٩١

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢

بعزل ذلك الوالى وولى مكانه حسين ابن الكورانى .[1] وقد اثارت هذه السياسة سخط أمراء المماليك على السلطان الاشرف شعبان فقاموا بتدبير المؤامرات ضده حتى قتلوه فى عام ٧٧٨(١٣٧٦)[2]

ويعلق ابن اياس على الإشرف شعبان بقوله : كان ، آخر بنى قلاوون فى الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة وكان عارفا بأحوال أمور المملكة حسن التدبير ماشيا على القواعد المرضية مستجلبا لخواطر الرعية)[3] وبمقتل الاشرف شعبان انتهى عهد الهدوء الذى عم البلاد فى أيامه . وبدأت الاضطرابات تظهر من جديد

و- فى عهد المنصور على بن شعبان ٧٧٨-٧٨٣(١٣٧٦-١٣٨١م)

امتلأ عهد المنصور على ابن شعبان الذى تولى الحكم فى مصر وهو ابن ثمان سنوات بالفتن والاضطرابات التى انتهت باستيلاء المماليك البرجية على الحكم فى مصر ، ولقد تعددت الفتن بين أمراء المماليك فبلغ عددها خمس فى المدة من سنة ٧٧٩ الى ٧٨١ ثم اعقبتها الاضطرابات التى ظهرت فى البحيرة بزعامة بدر بن سلام[4] .

---

(1) نفسه ، ص ١٩٤

(2) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٣ ، ص ٤٣٨

(3) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٠٢

(4) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٠٢

والارجح أن هذه الأضطرابات جاءت وليدة الخلل الذى طرأ على أجهزة الادارة المملوكية بسبب انصراف الحكام عن الاهتمام بتدبير احوال المعايش الى تدبير المؤامرات . فاقطاع البحيرة مثلا وهى المنطقة التى ثار بها بدر بن سلام كان يتولاه الامير بركة أحد الذين شاركوا فى الاضطرابات والفتن التى اشتعلت فى القاهرة ضد السلطان وشغلته هذه الاحداث هو ومماليكه عن تصريف شئون اقليم البحيرة . وقد انتهت هذه الفتن بالهزيمة فى ٧٨١(١٣٧٩) وهو نفس العام الذى وقعت فيه اضطرابات العرب فى دمنهور بزعامة بدر بن سلام والعلاقة واضحة بين انشغال الامير ومماليكه فى اضطرابات القاهرة وقيام الاضطرابات فى منطقة دمنهور .

ومما يؤكد أن اضطرابات البحيرة بزعامة بدر بن سلام جاءت تعبيرا عن سخط الاهالى وتذمرهم من الاوضاع غير الطبيعية فى البلاد أن الاضطرابات تجددت مرة أخرى فى العام التالى مباشرة وبصورة أشد خطرا مما حدث فى العام السابق .

كانت الزعامة على قبائل العرب فى البحيرة لبدر بن سلام وهو من قبيلة زناتة احدى شعوب لواتة [١] .

وزناتة المصرية من القبائل البربرية المتعربة . وكانت قبائل البدو الضاربة فى غرب الاسكندرية مثل مصراتة وعسرة تربطها بعرب البحيرة صلات اقتصادية وثيقة ، وفى عهد السلطان المنصور على -

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص ٤٧٠

٧٧٨ – ٧٨٣(١٣٧٦-١٣٨١م)، رفعت الدولة قيمة الضرائب على الفلاحين الا أن عرب البحيرة امتنعوا عن دفع تلك الزيادة وقامت حركة عصيان بين عرب البحيرة [١]

ومما لاشك فيه أن عرب البحيرة قاموا بثورتهم تلك فى وقت انشغل فيه أمراء المماليك بتدبير المؤامرات والفتن وماترتب على ذلك من ارهاق الفلاحين بزيادة الجباية . فكان ذلك سببا فى قيام الاضطرابات واستمرارها ، وليس أدل على ذلك بالاستشهاد بما ذكره ابن خلدون اذ يقول (ان بدر بن سلام قام بعد اعتقال أبيه سلام بالانسحاب الى الصعيد [٢] وقوله ثم (عاد بدر الى البحيرة وشغلت الدولة عنهم بما كان من ثورة اينال وبركة بعده). [٣]

ويصف ابن اياس تجمع عرب البحيرة فى عام ٧٨١هـ (١٣٧٩) وهجومهم على مدينة دمنهور فيذكر ان بدر بن سلام تزعم جماعة من العرب يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف هاجموا مدينة دمنهور واستولوا بالقوة على مافى اسواقها . [٤]

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص ٤٧٠

(٢) نفي المصدر

(٣) نفسه

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢١٥

واضطرت السلطات المملوكية بسبب ذلك الى ارسال حملة عسكرية الى البحيرة [١] وفى البحيرة ضرب المماليك خيامهم وقبل أن يلتقى العرب والمماليك أرسل كل منهما عيونه لترصد قوة الآخر، فبلغ المماليك أن العرب قد أعدوا خطتهم للهجوم على معسكر المماليك والقضاء عليهم ليلا . وعندئذ أخذ المماليك حذرهم ودبروا خطة سرية للايقاع بالعرب فى كمين نصبوه لهم وقد نجحت الخطة على نحو لم يكن فى الحسبان عندما أخلى المماليك معسكرهم وكمنوا فى مكان قريب . فلما أرخى سول له وهاجم العرب المعسكر المملوكى خرج عليهم عسكر المماليك من كمائنهم وأحاطوا بهم من كل مكان [٢] وأسفرت المعركة عن هزيمة نكراء للعرب ووقوع نسائهم وأطفالهم فى الاسر ومصادرة أملاكهم وجمالهم وأغنامهم وخيولهم وأموالهم .[٣]

ومن المؤكد أن المماليك عندما عاملوا العرب بقسوة وعنف بالغين انما كانوا يستهدفون القضاء على ثوريتهم ، ولكن ماحدث بعد ذلك جاء بعكس ماكان يتوقع ذلك أن عرب البحيرة اتفقوا فى العام التالى على الثورة من جديد ضد المماليك . وعلى اثر قيامهم بالثورة توجهت الى البحيرة حملة قوامها خمسمائة من عسكر

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٥ ، ص ٤٧٠ – بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢١٦

(٢) نفس المصدر.

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢١٦

المملوكية لقتال العرب ولكن الحملة انتهت هذه المرة بهزيمة القوة المملوكية ووقوع عدد كبير منهم قتلى .[1] ولكن عرب الغربية تدخلوا فى الصراع القائم بين عرب البحيرة والمماليك وانحازوا الى جانب المماليك وتغلبوا على عرب البحيرة فهزموهم وأرغموهم على الانسحاب الى برقة .

ويبدو من اجتماع عرب الغربية مع نائب الاسكندرية لنصرة المماليك أن عرب الغربية لم يقروا عرب البحيرة على تصرفهم وانهم اختلفوا معهم فقاتلوهم وارغموهم على الانسحاب من البحيرة والالتجاء الى برقة . ومع أن قوة عرب البحيرة انسحبت الى برقة الا أن ثورتهم لم تنته تماما وظلت جذوتها مشتعلة الى أن اعتلى الاتابكى برقوق عرش السلطنة مؤسسا بذلك دولة المماليك الجراكسة .

فى عصر المماليك الجراكسة

أ- فى عهد الظاهر برقوق:

يذكر ابن دقماق ان السلطان الظاهر برقوق اضطر بسبب استمرار ثورات عرب البحيرة واضطراب أحوال البلاد الى اقامة سور حول مدينة دمنهور[2] والظاهر أن الاضطرابات شملت فى عهد

---

(1) نفس المصدر ، ص ٢١٧

(2) ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى (ابن دقماق) ، الانتصار [illegible] الامصار [illegible]
[illegible] ١١ [illegible]

برقوق قطاعا هاما من البلاد بل امتدت الى البلاد الشامية . وقد عبرعن ذلك القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف وسط مجلس حضره برقوق والخليفة المتوكل والقضاة الاربعة والامراء بباب السلسلة من قلعة الجبل بقوله (ياأمير المؤمنين وياسادات القضاة ان احوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة والاحوال غير مستقرة)[1] .

وقد استطاع المماليك الجراكسة بزعامة برقوق أثناء انعقاد هذا المجلس من القضاء على سلطان دولة المماليك الجراكسة بزعامة برقوق أثناء انعقاد هذا المجلس من القضاء على سلطان دولة المماليك البحرية فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من السلطنة[2] وكان برقوق بذلك أول سلطان جركسى يتولى عرش السلطنة .

وهكذا أكدت الاحوال السياسية السيئة وماكانت عليه من اضطراب أن العرب قاموا بثوراتهم فى ظروف مضطربة غير مستقيمة . وفى فترة شحنت فيها البلاد بالفتن . ولعل ذلك كان من أسباب امتدادها . وعلى هذا النحو يمكننا القول أنه اذا كانت دولة المماليك البحرية قد أضعفت من قوة الثورات العربية فى مصر وخاصة فى الوجه القبلى الا ان تدهور الاحوال السياسية فى الداخل

---

(1) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢٢١

(2) نفس المصدر ، ص ٢٢٢

وتعدد الفتن والمؤامرات التى أطاحت بدولة المماليك البحرية ساعدت على احتدام نار الثورة العربية وانتشارها فى البلاد وازدياد قوتها وعنفها فى الوجه البحرى منذ قيام دولة المماليك الجراكسة حتى بداية العصر العثمانى .

ففى عهد الظاهر برقوق ٧٨٤-٨٠١هـ(١٣٨٢-١٣٩٨) جرد السلطان حملة مكونة من مائتى جندى الى الصعيد فى سنة ٧٩٢(١٣٨٩) لمواجهة ثورات عرب الصعيد[1] بعد مضى عامين فقط من قيام برقوق بالقضاء على دولة المنصور حاجى وقد تسببت هذه الفتنة فى ارتفاع اسعار السلع واشتداد موجة الغلاء بمصر . كما تسببت فى ظهور موجة عاتية من الاضطراب انعدم بسببها الامن [2] . وعندئذ صدرت الاوامر بالا يقوم أى فقيه أو متعمم بركوب الخيل [3] .

وفى تلك الظروف السيئة التى عمت فيها الفتن والاضطرابات لايبدو غريبا أن يقوم العرب بثوراتهم فى مناطق الشرقية والغربية والبحيرة لان تلك المناطق كانت اقطاعات لبعض قادة تلك الفتن من أمراء المماليك ، مثل الامير بركه صاحب اقطاع البحيرة . وقد تأثرت أحوال هؤلاء الامراء المماليك واقطاعاتهم حيث أدى

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٢٤٦، ٢٥٥

(٢) نفس المصدر

(٣) نفسه

انصرافهم عن تدبير شئونها واهمالها الى اشتعال نار الفتن بهذه المناطق خاصة وان المماليك الجراكسة فى ذلك العهد كانوا شغلوا معظم الوظائف التى كان يتولاها المصريون والعرب فى العهود السابقة وأول من تولى منصبا اداريا مدنيا من أمراء المماليك الجراكسة منكلى بغا الشمس الذى خلع عليه السلطان وولاه محتسبا بالقاهرة .

وكان توليه هذا المنصب بداية خطيرة لتغلغل الاتراك فى وظائف الدولة واستمر ذلك حتى عام ٨٩١ (١٤٨٦م) فزاد عدد الموظفين الاتراك فى الدولة زيادة كبيرة . ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله : (ثم انقلبت الوظائف الى جماعة كثيرة من الاتراك والمباشرين [(١)] .

وقد ترتب على قيام العرب بثوراتهم وقيام المماليك بقمعها أن افتقد الطرفان العرب والمماليك الثقة فيما بينهما حتى أنه عندما حاول السلطان المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان الاستعانة ببعض قبائل عرب الشرقية والبحيرة عام ٨٥٧ (١٤٥٣) ليقاتلوا معه ضد المتآمرين على خلعه عن العرش منعه أحد معاونيه من تنفيذ خطته قائلا له (تطمع العرب فى الترك)[(٢)] وظل العرب يثورون على المماليك كلما ساءت أحوالهم الاقتصادية فى حين واصل

---

(١) نفسه ، جـ٥، ص ٥٣٠

(٢) نفسه ، جـ٣ ، ص ٣٤٤

السلاطين قمع الثورات وارسال المزيد من الحملات العسكرية الى المناطق الثائرة .

ب- في عهد الاشرف اينال:

وفى بداية عهد الاشرف اينال٨٥٧-٨٦٥(١٤٥٣-١٤٦٠) ثار العرب فى البحيرة وقتلوا الكاشف [١] والظاهر ان الثورة استمرت حتى عام ٨٥٨ بدليل أن السلطان سير حملة الى البحيرة فى عام ٨٥٨ اتبعها بحملة ثانية سنة ٨٥٩ الى البحيرة . ومن المؤكد أن أحوال البلاد الاقتصادية في تلك الفترة كانت فى غاية الاضطراب وأن أمراء المماليك كانوا ينهبون المواطنين . ويعبر ابن اياس عن سوء هذه الحالة بقوله وفي جمادى الاولى (٨٥٩) تزايد شر المماليك الجلبان وتوجهوا الى بولاق ونهبوا شون الامراء لاجل الشعير فانه كان مشحوتا . وصاروا ينزلون الفقهاء والمباشرين عن خيولهم وبغالهم ويأخذونها من تحتهم)[٢] .

واذا قارنا بين ثورات العرب وبين سوء الاحوال الاقتصادية ومايحدثه المماليك تأكد لدينا وجود علاقة بين هذه الاضطرابات وماكانت عليه أحوال البلاد وأن العرب لم يكونوا وحدهم الذين يتأثرون بسوء الاحوال الاقتصادية وانما كان المماليك أيضا يعانون من نفس ماكان يعانيه العرب فيعتدون على الاهالى ويسلبونهم

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٣ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٢

(٢) نفس المصدر ، حـ٤ ، ص ٣٥٥

ممتلكاتهم . وليس أدل على ذلك من قيام عرب لبيد بالثورة . فى عهد السلطان جقمق ٨٤٢-٨٥٧ (١٤٣٨-١٤٥٣) ومن المعروف أن عرب لبيد سنبس طى وكانوا ينزلون باقليم برقة ثم عادوا الى الثورة مرة أخرى فى عهد السلطان المؤيد أحمد بن اينال فى ٨٦٥(١٤٦٠) وهاجموا اقليم البحيرة . وقامت حملة عسكرية لردهم.[1] وقد سبق ثورة عرب لبيد ظهور وباء الطاعون فى عام ٨٦٤ (١٤٦٠) وكان من العنف بحيث مات بسببه ثلث المماليك والاطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، وقد طال أمده نحو من خمسة أشهر.[2] ومن المؤكد لهذا الوباء أثر على اقتصاديات البلاد فتسبب فى وقوع اضطرابات نتيجة للاضرار المادية التى لحقت بالاهالى خاصة عرب البدو الذين لم يجدوا القوت الضرورى فلجأوا الى المدن يحتمون بها . ويضاف الى ذلك ماعرف عن المماليك وبصفة خاصة فى مثل تلك الظروف غير العادية من جورهم على الناس [3] . فزاد ذلك من اضطراب الاحوال .

جـ- فى عهد الاشرف قايتباى :

وفى عهد الاشرف قايتباى ٨٧٢-٩٠١(١٤٦٧-١٤٩٥) قام العرب فى الشمال والجنوب بعدة ثورات ، وسرعان ماقامت

---

(١) نفسه ، جـ٣ ، ص ٣٤٩، ٣٥٢ ، جـ٤ ، ص٣٧٣

(٢) نفسه ، جـ٤ ، ص ٣٦٩

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٣٨٦

الحملات العسكرية لو أدها بالرغم من أن البلاد كانت تعانى من شدة الغلاء وانتشار الوباء . ووقف توزيغ أنصبة اللحوم التى كانت تصرف كل يوم للجند المماليك والفقهاء وغيرهم كرواتب جارية[1]. ويعتبر قايتباى لذلك أول من فتح باب المظالم واستفحل الجور بعد ذلك .[2]

وكان ذلك من أسباب استمرار الاضطرابات فى البلاد . ثم أن العرب كانوا يمثلون حزب المعارضة للحكم المملوكى فى مصر منذ اللحظة الاولى لقيام هذا الحكم . وقد ترتب على ذلك الموقف ان العرب رغم مشاركتهم أهل مصر فى الدفاع عن البلاد ضد الاعداء كان يقع عليهم من جور المماليك وعسفهم مااضطرهم اما الى الهجرة خارج البلاد أو الانصهار مع أهل مصر .

كذلك تعرض المصريون للاضطهاد المملوكى مما دفع بالكثيرين منهم الى الدخول فى الاسلام جماعات خلال الفترات التى ازداد فيها الاضطهاد عليهم . وقد حدثت تلك الظروف الصعبة التى واجهها كل من العرب والمصريين فى العصر المملوكى وساعدت كثيرا على التقارب بينهم على نحو لم يتحقق من قبل .

وقد ظل هذا التقارب يزداد يوما بعد يوم عن طريق علاقات النسب والمصاهرة فظهر بين زعماء العرب من يحمل القاب تدل على

---

(١) المقريزى ، الخطط ، جـ٣ ، ٣٠٤ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص٤٠٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٤٠٣

أصلـه المصـرى قبـل أن يلحـق بـالعرب ويندمج فيهـم ويلـى رئاسـة القبيلة.

وقد تعرض هؤلاء الزعماء العرب الذين ترتفع أنسابهم الى أصول مصرية لنفس ماتعرض له عامة العرب فى مصر من التعذيب والقتل. ولعل من أمثلة هؤلاء شخصية تاج الدين بن المقسى الذى ذكر ابـن اياس عنه فى حوادث على ٨٨٥ مايلى : (رسم السلطان بشنق تاج الدين بن المقسى بعد أن أعفى عنـه فتوجهـوا بـه الى غيـط الحـاجب فشنقوه على جميزة هناك وشنق معه فى نفس اليوم قاسم بن بقر أمير عربان جذام بالشرقية . وكان لهما يوم مشهود . وكان اسمـه عبد الله بن نصر الله القبطى . وكان رئيسـا حشـما كيس حسـن الهيئة لطيف الذات وولى عدة وظـائف سنية منهـا كتابـة الممـاليك ونظـر الدولة . ونظر الجيش ونظـر الخـاص والاستدارية وغير ذلـك مـن الوظـائف ومـات وهـو عشـر الخمسـين وكـثر عليـه الحـزن مـن الناس)([1]).

ومن هذا النص يظهر مدى اختـلاط واندمـاج العـرب بـالمصريين حيث وصل الأمر كما تقدم الى أن ولى أحد المصريين الذين أسـلموا زعامة احدى القبائل العربية العريقة فى مصـر والتـى هـى مـن قبـائل الفتح . وفكرة النسـب العربـى عـن طريقـة الالتحـاق كـانت أمـرا

([1]) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٥ ، ص ٤٩٥

معروفا عند العرب منذ أقدم العصور [1] وظلت سارية المفعول طوال عصر دولة المماليك الجراكسة .

وأهم ثورات العرب التى اشتعلت زمن السلطان الأشرف قايتباى ثورة عرب البحيرة فى ٨٩١ (١٤٨٦) التى تزعمها محمد الجويلى شيخ عرب البحيرة . خرجت حملة يقودها أربعة قواد وقوامها مائتا مملوك ، من مماليك السلطان ولكن هذه الحملة لم تحقق الهدف من ارسالها [2] ويلاحظ أن ابن اياس عندما يذكر ثورة الجويلى يصفها بالفساد ويعلل انفاذ الحملة العسكرية بسبب فساد محمد الجويلى وهى عادة جرى عليها المؤرخون ، فعند التعرض لذكر أخبار الاضطرابات أو الثورات التى كان يقوم بها العرب فى مصر يصفونها بفساد العربان . والواقع أن ماكان يقع لم يكن بسبب فساد العربان بأى حال وانما كان لأسباب أخرى اجتماعية أو اقتصادية على النحو الذى أشرنا اليه من قبل وقد سبق ثورة الجويلى كذلك مايلى :

١- اضطراب الأحوال فى العاصمة فى ٨٩٠ هـ (١٤٨٥م) بسبب اعتداءات جماعة من المماليك ومن غيرهم من الأشرار على

---

(١) (انظر الفصل الخامس من كتاب القلقشندى ، نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، بيان أمور يحتاج الناظر فى الأنساب اليها ، ص ٢١ ، السطر الخامس)

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٥٣٦

الأهالى فى الطريق العام (حتى أعيا أمرهم الوالى وحاجب الحجاب وصارت الأحوال فى اضطراب) [1]

٢- كثرة المصادرات بحجة السفر لقتال عثمانيين . فكان المماليك ينهبون البغال والخيول وغير ذلك مما يحصل به الضرر الشامل وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة [2] .

٣- فى عام ٨٩١ هـ (١٤٨٦م) سبب انخفاض النيل ارتفاعا فى الأسعار حتى ارتفع سعر الماء وذلك بسبب (عدم العلف لجمال السقائين) [3] .

٤- قام جماعة من المماليك بالاعتداء على مخازن السلطان والمحتسب وفتحوا أبوابها عنوة واستولوا على مافيها من اللحوم والغلال [4] ومن ذلك يتبين أن ثورة الجويلى وقعت فى خلال ظروف غير عادي وأن الاضطرابات كانت قائمة فى العاصمة نفسها ولم يتمكن الولاة من السيطرة عليها الأمر الذى يؤكد أن الثورة انما حدثت بسبب عوامل اقتصادية نتيجة أزمات مرت بها البلاد . وسوف تتطور الأحداث فى العام التالى وتزداد الفتن بين المماليك

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٢٧ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة . حـ٧ ، ص ٣٢٧ - محمد عبد المعطى بن أبى الفتح الاسحاقى . لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، ط القاهرة ، ١٣٠٠ هـ ، حـ١٩٢

(٢) ابن اياس بدائع الزهور ، حـ ٥ ، ص ٥٢٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٣١

(٤) نفسه ، ص ٥٣٦

وتقع الاضطرابات في البلاد . أما السلطان فكان على حد قول ابن اياس (في غاية الظلم والمصادرات للناس) [1] الا أنه ذكر في موضع آخر أن السلطان كان معذورا فيما فعل بسبب كثرة حروبه وأن محاسنه لاتحصى [2] وحقيقة الأمر أن البلاد كانت مهددة بهجوم عثماني فكان السلطان يستعد لارسال حملة الى الشام تصد العثمانيين وتدافع عن البلاد . وكان يترتب على ذلك نوع من الضغط يمارسه السلطان على الرعية . ففي عام ٨٩٣ هـ يذكر ابن اياس (ان السلطان حدد مظلمة شنيعة وهو أنه أرسل لكشاف الغربية والشرقية بأن يأخذوا من البلاد الخمس من خراج المقطعين بسبب تجهيز خيالة من الشرقية من عربانها والعشير) [3] .

وقد تكرر وقوع الفتن بين المماليك وتكرر وقوع الاضطرابات في الشرقية والغربية في عام ٩٠٢ (١٤٩٧م) [4]

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٥٣٨

(٢) نفس المصدر ، جـ٦ ، ص ٥٩٣ – أحمد بن يحيى بن شاكر الجيعان ، القول المستظرف في سفر الملك الأشرف ، مخطوط رقم ١٨٩٩ – محمد معهد المخطوطات العربية – محمد بن يوسف الباعوني ، الاشارة الوفية الى الخصوصيات الأشرفية ، مخطوط رقم ٣٧٦٠ ج ، م اسكندرية – محمد عبد المعطي بن ابي الفتح الاسحاقي ، لطائف أخبار الأول ، ص ١٩٦ – الشيخ عبد الله الشرقاوي ، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، ص ٢٠٠ ط القاهرة ١٣٠٠ هـ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٦ ، ص ٥٤٩

(٤) نفس المصدر ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٦

د - في عهد محمد بن قايتباى :

وفي عهد السلطان ناصر الدين محمد بن قايتباى ٩٠١ - ٩٠٤ هـ (١٤٩٥ - ١٤٩٨) قامت ثورة في البحيرة تزعمها الجويلي ومرعي عام ٩٠٤ (١٤٩٨) . وقد سبق قيام هذه الثورة بعام أي في عام ٩٠٣ (١٤٩٧ انتشار الوباء وتبرم الناس من سوء معاملة المماليك لهم . وكان السلطان شابا يغلب عليه اللهو وليس له التفات الى ملك ولا الى سلطنة [1] وقد وصف ابن اياس الموقف في ذلك الحين فقال (وصار الطعن عمالا والمماليك جائرة في حق الناس الأذى)

وقال أيضا :(قد قلت للطعن والمماليك...جاوزتما الحد في النكاية

ترفقا بالورى قليـــــلا...في واحد منكما كفاية)[2]

ثم وضع الجويلي يده على خراج اقليمي الغربية والبحيرة وقرر عدم تسليمه الى الدولة . ثم تعذر على المماليك ارسال حملة لقتال الجويلي بسبب الفيضان [3] قامت ثورة الجويلي اذن في ظل ظروف سياسية واقتصادية غير عادية انتشرت فيها الثورات والفتن[4] ولم يسلم العرب من الاعتداءات على ممتلكاتهم فقد هاجم المماليك

---

(1) نفسه ، ص ٦٤١ - الاسحاقي ، لطائف أخبار ، ص ٨٠ ،

(2) عبد الله الشرقاوى ، تحفة الناظرين ص ٢٠١

(3) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٦ ، ص ٦٣٢

(4) نفس المصدر ، ص ٦٤١ - عبد الله الشرقاوى تحفة الناظرين ص ٢٠١

اقليمى الشرقية والغربية فى عام ٩٠٥ (١٤٩٩) أى فى العام التالى للثورة وصادروا ممتلكات العرب واستولوا عليها وعادوا بها الى القاهرة . [1]

وهكذا ظلت ممتلكات العرب نهبا للماليك وبذلك استمر الصراع بين العرب والمماليك الى نهاية العهد المملوكى . وأصبح العربى يحيا حياة غير مستقرة حتى تأثرت الأحوال الاجتماعية للعرب لتكرار ثوراتهم ثم مصادرة ممتلكاتهم كان ذلك من أكبر أسباب اندماج العرب فى شعب مصر .

هـ فى عهد السلطان الأشرف قانصوة الغورى :–

قامت الثورات العربية فى عهد السلطان الغورى ٩٠٥ – ٩٢٢ (١٤٩٩ – ١٥١٦) لنفس الأسباب التى كانت تقوم بسببها الثوارات فى عهود من سبقه من سلاطين المماليك فلم تتغير الظروف ان لم تكن قد أصبحت أكثر مدعاة لقيام الاضطرابات ليس فقط من جانب العرب وانما أيضا من جانب المماليك السلطانية .

ففى العام التالى لتولى السلطان الغورى الحكم كانت الخزانة السلطانية خالية من المال [2] فلم يتمكن من الانفاق على مماليكه واضطر تحت ضغط الحاحهم الى فرض تحصيل ايجار عشرة شهور

(١) نفسه ، ص ٦٥٤

(٢) نفسه ص ٦٩١ – د. محمود رزق سليم ، الأشرف قانصوة الغورى ، ط القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٧

مقدما من أصحاب الأملاك بالقاهرة . وتعذر على الأهالى سداد الايجار المقدم. فوقع الاضطراب للغنى والفقير (وصار الناس بين جمزتين ويطلبون فى اليوم الواحد من أبواب جماعة كثيرة من الحكام مرتين حتى ضجوا من ذلك) [1] ويصف ابن اياس الاضطرابات التى وقعت بعد ذلك نتيجة لفرض سداد الايجار المقدم فيذكر أن جماعة كبيرة من أهالى القاهرة اجتمعوا فى مكان ما ثم توجهوا جميعهم الى القلعة فى يوم الجمعة سبعة من شهر المحرم ٩٠٧ هـ (٢٤ يوليو سنة ١٥٠١) وقابلوا قيت الرجبى نائب السلطنة وكان عائدا من القلعة عقب أداء صلاة الجمعة بصحبة السلطان الغورى ثم عرضوا عليه صعوبة سدادهم لأجرة عشرة شهور مقدما وكان الأمر قد صدر به فعلا قرار سلطانى بعد الموافقة عليه فى اجتماع جمع السلطان الغورى والأمراء والمماليك وصدرت الأوامر بعد ذلك الى الحكام المحليين فى أنحاء مصر والشام بتحصيل ذلك الايجار المقدم ولكن الأمير قيت الرجبى لم يلتفت لشكوى الأهالى وتجاهلهم . وسار فى طريقه للعودة الى منزله غير عابئ بأحد . وعندئذ ثار الأهالى وقذفوا موكب الأمير بالحجارة [2] .

---

(١) ابن اياس بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٦٩١

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٩٣ شمس الدين ابن طولون ، فاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، ص ٢٠٥ ، تحقيق محمد مصطفى ، ط القاهرة ١٩٦٢ - د. محمود رزق سليم ، الأشرف قنصوة الغورى ص ٧٤

وانتهى الأمر برفع ثلاثة أشهر والاكتفاء بتحصيل سبعة شهور بدل عشرة استجابة لرغبة الأهالي [1]

كانت هذه صورة عامة للموقف في مصر في بداية حكم السلطان الغوري و لم يختلف موقف قبائل العرب عن موقف بقية أفراد الشعب ذلك أن العرب لم يسلموا من الضغط عليهم من أجل تحصيل المال بهدف الانفاق على مماليك السلطان . ففي عام ٩٠٧ هـ (١٥٠١) ثار عرب الشرقية وقتلوا الكاشف ثم بعث السلطان أحد مماليكه ويسمى نانق الخازن الى اقليمي الشرقية والغربية لاستيفاء تحصيل بعض مستحقات السلطان لدى الأهالي . فلما توجه نانق الخازن المذكور الى هناك ضيق على الفلاحين وفحص عن أصل خراج كل حصة وماتعمل في كل سنة من الخراج فخاف المقطعون بسبب ذلك ورحل معظم الفلاحين [2] وفي شهر شعبان من نفس العام ٩٠٧ (١٥٠١) أرسل السلطان الأمير قانصوة بن سلطان جركس حاكما للشرقية . ولكن عرب الشرقية رفضوا استبدال الحاكم الجديد وسخروا منه وسموه هات لبن [3] وظل بالشرقية نحو أربعين يوم ثم رجع الى العاصمة بغير نتيجة .

---

(١) ابن اياس بدائع الزهور ص ٦٩٣ - د.محمود رزق سليم :الأشرف قانصوة الغوري ص ٧٤

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٧ ، ص ٦٩٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٩٨

وبدأت الحملات العسكرية تنتشر في البلاد واستخدم المماليك أشد أنواع التعذيب ضد العرب فراح ضحية ذلك البرئ والمذنب[1] وعلى الرغم من وقوع العرب تحت بطش السلطان فان الاضطرابات لم تنته . وشملت ثورات العرب أماكن كثيرة امتدت الى خارج مصر فثار عرب الشام والحجاز والكرك (الاردن حاليا) [2] وفي عام ٩١٠ (١٥٠٤) ظهر الوباء وأعقب ذلك الغلاء . وفي عام ٩١٢ (١٥٠٦) عادت الاضطرابات الى الشرقية والغربية كما ثار عرب الكرك أيضا مرة أخرى [3] وكانت تلك الثورات تحدث في ظل ظروف الجور والعسف من جانب السلطان الغوري . ومما يجدر ذكره هنا قول ابن اياس في أحداث عام ٩١٠ (١٥٠٤) وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب بما وقع فيها من الفناء والغلاء وفساد العربان بالشرقية والغربية حتى بأرض الحجاز[4] وهكذا يؤكد ابن اياس بعبارته السابقة ان ماوصف (بفساد العربان) له صلة بأحوال البلاد من انتشار الوباء والغلاء . بمعنى أن الاضطرارات لم تكن تقوم في ظل ظروف عادية وانما كانت تقوم في ظل ظروف صعبة مضطربة في ظل ظروف صعبة مضطربة لاشك أنها كانت من أكبر الأسباب في قيام تلك

---

(١) نفسه ، ص ٦٩٨ ، الاسحاقي ، لطائف أخبار ، ص ١٩٢

(٢) نفسه ، جـ٧ ، ص ٧٣٤ - شمس الدين محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان ، ص ٢٥٠

(٣) ابن اياس ، ص ٧٤٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٣٢

الاضطرابات فلم تكن تلك الإضطرارات نتيجة لفساد العربان كما يزعم وانما كانت ثورات احتجاج ضد أوضاع البلاد غير المحتملة . وكثيرا ماقامت الفتن بين المماليك والسلطان لأسباب لاتخرج فى صميمها عن الأسباب التى نتج عنها قيام الاضطرابات فى البلاد من جانب العرب والمصريين . والأولى واضحة . حيث أن الفتن المملوكية ماقامت الا لأسباب النفقة .

(٣)

تحالف قبائل العرب ضد الحكم المماليكى٩١٨(١٥١٢)

الأسباب والنتائج

فى عام ٩١٧ (١٥١١) قام السلطان باستبدال النقود القديمة بأخرى جديدة كانت عبئا على الأهالى [١] ومع أن هذه السنة كانت خالية من الطاعون والفتن الى حد أنها وصفت بأنها سنة مباركة[٢] فان الخزائن السلطانية كانت خاوية أو (مشحوتة من المال)[٣] وقد ترتب على ذلك عجز السلطان عن النفقة على مماليكه وقيام الفتن بينهم وبين السلطان حتى أنهم هاجموا مخازن الشعير السلطانية واستولوا على كثير مما فيها .[٤]

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٨ ، ص ٨٤١

(٢) نفس المصدر ، ص ٨٤٢

(٣) نفسه ، ص ٨٣٥

(٤) نفسه ، ص ٨٣٥ – د (محمود رزق سليم ، الأشرف قانصوة الغورى ، ص ٦٠ ، ٦١

وفى نفس عام ٩١٧ (١٥١١) نزل أحد أمراء المماليك اقليمى الشرقية والغربية وجمع كثيرا من الأموال الضريبية قهرا وأهلك فى ذلك الحرث والنسل [١] . ومادام الأمر على هذا الحال لايستغرب قيام تحالف بين عرب الوجه البحرى ضد الحكم المملوكى .

ففى عام ٩١٨ تحالفت سبع طوائف من عرب البحيرة واتفقوا على أن يكونوا يدا واحدة فى نبذ الطاعة للمماليك . ثم قاموا بطرد كاشف المنوفية وغيره من حكام الأقاليم [٢] .

وقد ترتب على سياسة القهر التى جرى عليها الجباة ضد العرب فى عهد السلطان الغورى ضعف الانتاج الزراعى فى البلاد نتيجة هجرة العدد الأعظم من الفلاحين بسبب فداحة الأموال التى كانوا يطالبون بدفعها وعجزهم عن آدائها .

ويتضح ذلك من قول ابن اياس (ورحل أغلب الفلاحين وقد طالبهم ببقية الخراج زيادة عما أورده المقطعون) . [٣] ومعنى هذا أن عامة الفلاحين لما رأوا عجزهم وضعفهم ازاء جور المماليك

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٨ ، ص ٨١٦ - مرعى بن يوسف بن أبى بكر ، نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط رقم ١٤١٦ ص ٨٦ ، م اسكندرية .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٨ ، جـ٨٤٤ ، ٨٤٥ - د. محمود رزق سليم ، الأشرف ، كانصوة الغورى ، ص ٥٣

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٧ ، ص ٦٩٨ .

وتنكيلهم بهم هجروا الأرض وتركوها بغير زراعة [1] . وكان من أثر ذلك نقص الخراج الذى كانت تحصله الدولة من الفلاحين .ومن أمثلة ذلك مانزل بالفلاحين والعرب من القسوة والجور ماذكره ابن اياس عند تعرضه لذكر حوادث عام ٩٢١ (١٥١٥) ووقوفه عند أحداث الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير اذ يقول : (وكان السلطان قد عينه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العربان فكان اذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلخه من رأسه الى قدميه وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان العصاة) [2]

وتبين لنا من هذا النص أن جماعات من العرب كانوا يلقون التعذيب والموت وهم أبرياء من تهم توجه اليهم زورا وبهتانا . وتتداخل الاتهامات بين العرب فلا يعلم من المتهم ومن البرئ وينوء العرب بمظالم المماليك فى عهد الغورى ، ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله (ولولا ظلمه وكثرة مصادرته للرعية لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة) [3] .ويؤكد هذا القول

([1]) نفس المصدر ، حـ٧، ص ٦٩٨ - د. محمود رزق سليم ، الأشرف كانصوة الغورى ص ٧١

([2]) نفسه ، حـ٩ ، ص ٩٦٦

([3]) نفسه ، حـ٩ ، ص ١٠٤٠ - عبد الله الشرقاوى ، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، ص ٢٠١

ماتقدم ذكره عن سوء الأحوال الاقتصادية والمظالم الفادحة التى أدت الى قيام العرب بثوراتهم وماترتب على ذلك من تدهور شئون الزراعة وضعف الانتاج وتناقص الدخل القومى بحيث لم يجد حكام المماليك المال اللازم للانفاق العام فضعف الجيش ولم يقو على مقاومة العثمانيين فانهزم أمامهم فى مرج دابق .

(٤)

ثورات العرب فى بداية العهد العثمانى

أ- ثورة عرب الشرقية والبحيرة:

لم تتغير أحوال العرب كثيرا فى العهد العثمانى بسبب سوء الأحوال الاقتصادية في البلاد بازدياد تدهورها عما كانت عليه فى العصر المملوكى . وقد اختلف موقف القبائل العربية من الحكم العثمانى تبعا للظروف التى واجهوها ، فخاير بك الذى تولى نيابة السلطنة فى مصر فى العهد العثمانى قام بدور ايجابى مع قبائل العرب ، ونجح في اجتذاب مشايخ العرب اليه . وظل يعمل على تحسين علاقاته معهم . كما اصطنع فى سبيل بسط نفوذه على البلاد والسيطرة على العرب أسلوب المخادعة فقبض على بعضهم ليصفو له الحال . وكان للسلطان العثمانى وبعض أمراء المماليك أمثال خاير بك وجان بردى الغزالى دور هام فى تحسين العلاقات بين العرب والعثمانيين . فقد سبق للسلطان العثمانى قبل معركة الريدانية أن اتصل بأحمد بن بقر شيخ عرب الشرقية وعرض عليه

الأمان بشرط الطاعة [1] وان كان ابن اياس يشك فى صحة المقابلة المذكورة [2] . والأرجح أن أحمد بن بقر شيخ عرب الشرقية لم يتقابل مع ابن عثمان لأن أحمد بن بقر لم يحصل على آمان من ابن عثمان حتى رجب من عام ٩٢٣ (أغسطس ١٥١٧) ويؤكد ذلك قول ابن اياس (وفى يوم الأربعاء عاشر من رجب (٩٢٣ أغسطس ١٥١٧) حضر شيخ العرب أحمد بن بقر وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور فحضر وقابل يونس باشا وبقية الوزراء وكان له مدة وهو عاصى فى وادى العباسة ومعه جماعه من المماليك الجراكسة وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت)[3] . ويتبين لنا من هذا النص أن أحمد بن بقر لم يتصل بالعثمانيين رغم اصدارهم الأمان له فلما وقع السلطان فى أيدى العثمانيين وقضى على المقاومة فت ذلك فى عضده فاضطر الى الاتصال بهم هو ومن كان معه من المماليك الجراكسة . كذلك تعرضت الشرقية لضغوط عنيفة تستهدف تحصيل الأموال من الفلاحين.[4] وقد حدث ذلك

([1]) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١٠٧١ - أحمد بن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٧٨ .

([2]) نفس المصدر . يعلق ابن اياس فى ذلك مضمنا شكه فى صحة المقابلة : (والاشاعات فى أخبار ابن عثمان كثيرة) .

([3]) نفسه ، جـ٩ ، ص ١١٠٤

([4]) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ١١٠١ (فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخر حضر الشرفى يونس النابلى الاستادار وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين

لبقية الأقاليم فى مختلف الجهات [١] . وفى خلال تلك الفترة أيضا ارتفع سعر القمح واختفت سائر الغلال واضطربت الأحوال [٢] ومن المؤكد وجود صلة قوية بين ظروف عدم الاستقرار المالى نتيجة اضطراب ، الأحوال السياسية والضغط على الفلاحين لتحصيل الأموال منهم وبين الاضطرابات التى قامت بين العرب فى تلك الجهات بالاضافة الى الخلاف القائم بين كل من شيخ عرب الغربية حسن بن مرعى وشيخ عرب البحيرة الجويلى ومأدى اليه من توتر بين الطرفين . وعندما قبض السلطان العثمانى على مشايخ العرب لم يستثن أحدا منهم وشمل الاعتقال كل من كان قد أعلن لهم الأمان مثل حسن بن مرعى وابن بقر [٣] .

ونستدل من اعتقال العثمانيين لمشايخ العرب حتى أولئك الذين منحوهم الأمان . على أن العرب لعبوا دورا رئيسيا فى الثورة على العثمانيين . وهذا يبرر موقف العثمانيين منهم على الرغم من محاولة

والأتراك والأمراء الذين قتلوا فى المعركة فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غاية الضرر وضيق على الناس فى أرزاقهم من نساء ورجال ووضع يده على خراجهم بغير حق) .

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٩ ، ص ١١٠٤ (وفيه تراجع جماعة من المباشرين مع بعضهم وانتبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى والزمهم بالعودة الى البلاد ثانيا ليغلقوا ماكان بقى عليهم من الخراج فى البلاد) كذلك قال ابن اياس (وفى يوم الاثنين سادس عشرة (جمادى الاخر) حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا توجهوا الى الغربية والمنوفية والحلة)

(٢) بدائع الزهور ، حـ٩ ، ص ١١٠٢

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٠٦ (فلما قابل ابن عثمان قبض عليه وسجن بالبرج الذى بالقلعة وقبض على ابن أخى الجويلى وسجنهم بالبرج أيضا وكان شيخ العرب أحمد بن بقر أتى ليقابل ابن عثمان فلما رأى ماجرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع بعد أن دخل القاهرة ومضى الى الشرقية) .

خايربك استمالة العرب اليه فانه لم يوفق وظل العرب يقاومون العثمانيين فترة طويلة بعد سقوط دولة المماليك .

ومع أن أحمد بن بقر وابنه بيبرس تعاونا مع خايربك فانه لم يستطع اخضاع عبد الدايم بن بقر الذى رفض الخضوع للعثمانيين ويصف ابن اياس حركة عبد الدايم بالفساد ويقول (وفيه رمضان ٩٢٣ (سبتمبر سنة ١٥١٧) قابل شيخ العرب أحمد بن بقر وخلع عليه وعلى ولده بيبرس وقد التزما باصلاح جهات الشرقية و لم يتم ذلك واستمرت أحوال الشرقية فى غاية الفساد من عبد الدايم بن بقر واخوته .[1] ومع ذلك فمن أقوال ابن اياس أيضا يمكن الاستدلال على أن الموقف الذى وقفه عبد الدايم بن بقر لم يكن يتعارض مع موقف الغالبية العظمى من عرب الشرقية وذلك أنه رغم ماقام به خاير بك من اعطاء أحمد بن بقر وابنه بيبرس صفة الشرعية فى رئاسة عرب الشرقية فانهما لم يتمكنا من السيطرة على البلاد بسبب معارضة شعبية عامة واجهت أحمد بن بقر لصالح عبد الدايم.

وبعد مضى ستة شهور استطاع خاير بك نائب السلطان ان يجتذب اليه عبد الدايم بن بقر . فمنذ أن نجح فى الاجتماع به فى ١٣ ذى القعدة وخلع عليه وأنزله من القلعة فى موكب حافل [2] توقفت مقاومة عرب الشرقية واستقرت الأمور هناك موقتا فلم تلبث

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١١١٤

(٢) نفس المصدر ، جـ٩ ، ص ١١٢٠

الاضطرابات ان عادت من جديد الى الشرقية فى ذى القعدة ٩٢٣ (ديسمبر ١٥١٧) بسبب فتنة نشبت بين عرب عزالة والقبائل العربية الأخرى [١] وهكذا عادت الاضطرابات والفتن تشتعل بين قبائل العرب وتبع ذلك ارسال الحملات العسكرية لاخمادها .

واذا كان عبد الدايم بن بقر قد أعلن طاعته لخاير بك نائب السلطان فان حسن بن مرعى الذى كان معتقلا بالقلعة ثم غافل حراسه وتخلص من قيوده وتمكن من الفرار من سجنه [٢] سوف يدفع بالعرب الى الثورة على العثمانيين ، فقد استطاع عقب هربه من القلعة أن يحشد جموعا من العرب يصل عددهم الى مايقرب من عشرين ألفا احتمع بهم فى منطقة الجيزة لمناهضة العثمانيين . وقد واصل العرب بزعامة حسن بن مرعى مقاومتهم للحكم العثمانى حتى بعد أن تحول عبد الدايم عن نصرتهم وعلى الرغم من الحملة التى جردها الوالى العثمانى فى ذى القعدة ٩٢٣ (ديسمبر سنة ١٥١٧) لقتالهم لم يتمكن العثمانيون من التغلب على الثورة .[٣] على أن عبد الدايم بن بقر لم يلبث أن عاد الى صفوف الثوار بعد عام واحد من مصالحة خاير بك وأعلن الثورة على العثمانيين وانضم الى عرب الشرقية والغربية [٤] .

---

(١) نفسه ، حـ٩ ، ص ١١٢١

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢٠

(٣) نفسه ، ص ١٩٢٢ – أحمد بن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم / ص ٥٦

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٩ ، ص ١١٣٠

وقد بلغ خوف خاير بك نائب السلطان من خطر ثورة العرب بقيادة عبد الدايم أنه (أخذ في أسباب تحصين القلعة وسد فيها عدة أبواب وأبقى منها الأبواب الكبار على حكمها وقصد أن يسد بعض أبواب القاهرة ، وأظهر الخوف والفزع ودخلت رأسه الجداب من عبد الدايم بن بقر وكثرة العربان التي اجتمعت معه)[1] .

ولم يلبث عرب السوالم [2] ان اشتبكوا مع العثمانيين وقاس العثمانيون كثيرا في قتالهم مع عرب السوالم ولم يتمكنوا الا من بعض أفراد قلائل في حين فر الباقون الى الجبال [3] وترتب على ذلك امتداد الثورة الى الصعيد [4] .

ويتضح مما سبق أن ثورات العرب كانت تستهدف بوجه خاص مقاومة جور الحكام وأنه لو لم تكن هذه الثورات يساندها تأييد شعبي لما أكد ابن اياس أن (رأس نائب السلطان دخلت الجراب) خوفا من ثورات العرب بزعامة عبد الدايم .

والحقيقة أن الثورات العربية لم تكن سوى صدى لما كان يقع على الشعب من جور الحكام والمباشرين الذين كانوا على حد قول

---

(١) نفس المصدر

(٢) السوالم : بطن من لبيد من سالم بن منصور من العدنانية - كانت مساكنهم ببلاد برقة ، ودخلت مصر في ظل ظروف اقتصادية صعبة . (عمر كحالة ، معجم قبائل ، جـ٢ ، ص ٥٦٤

(٣) ابن اياس بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١١٤٢ .

(٤) بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ١١٤٣ - أحمد بن زنبل الرمالي ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٥٦

ابن اياس قد أصبحوا (كأنهم الملوك بمصر يتصرفون في أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد واستغرقوا في اللذات وعكفوا على شرب الخمور وسماع الزمور . ولم يتفكروا في عواقب الأمور) [1] .

كذلك لم يكن حراس العرب يحصلون على ماكانوا يحصلون عليه من رواتب نظير قيامهم بحراسة الطرق [2] وكثيرا ماكانت ثورات العرب ترتبط باضطرار الأحوال في البلاد على النحو الذي كان سائدا في عصر المماليك ويستدل على ذلك من أقوال ابن اياس في النص الثاني عن حوادث عام ٩٢٥ (١٥١٩) (أن الحجاج وصلوا الى عيون القصب وأنهم في غاية مايكون من الانكاد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك) [3]

ومعنى ذلك أن فتنة العربان صادفت ظروف الغلاء والوباء الذي ظهر في الجمال بالاضافة الى التوقف عن صرف مرتبات العربان الذين يتولون حراسة طرق القوافل . فلولا ظهور الوباء والغلاء ووقف صرف مرتبات أرباب الادراك من العربان لما قام العربان بالفتنة وقد لاحظنا من قبل أن جميع الاضطرابات التي تسبب فيها العرب انما كانت تقترن دائما بمشاكل اقتصادية باستثناء الثورة التي

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ١١٤٥

(٢) نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ١١٥٥

(٣) نفسه ، ص ١١٦٠

قام بهـا العـرب بزعامـة حصـن الديـن ثعلـب فـى بـدء قيـام الحكـم المملوكى . واذا كان خاير بك قـد وفـق الى تحسـين العلاقـات مـع العرب بفضل مساعيه الحميدة فان هذا التحسـين لم يطـل أمـده فلـم يلبث أن تعكر صفو العلاقات على أثر حملة الاعتقالات التـى قـامت بها السلطات العثمانية لزعماء العـرب وسـقوط عـدد منهـم ضحايـا الاراء المعكوسة كما حدث بالنسبة لحسن بـن مرعـى وأخيـه شـكر اللذين أوقع بهما كاشف الغربية فى مؤامـرة دبرهـا انتهـت بقتلهمـا معا فـى ربيـع الاول من عـام ٩٢٥ (مـارس ١٥١٩) انتقامـا مـن حسن بن مرعى الذى لم يحفـظ عهـدا كـان قـد قطعـه على نفسـه للسلطان طومان باى أنه لايشى به ثم أخلف وعده فكان كمـا قـال ابن اياس (المجازاة من جنس العمل)[1]

وفى نفس الشهر أوقع كاشف المنوفيـة بشـيخ ثـالث مـن مشـايخ العرب وهو الشيخ علـى الاسمر بـن أبـى الشـوارب فـى عـام ٩٢٥ (١٥١٩.[2] ولما خشى خاير بك نائب السلطان من رد الفعـل بيـن

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١١٦٤ - يذكر أحمد بن زنبل الرمالى فى روايتـه لـه ان حسن بن مرعى قابل والدته بعد أن أقسم اليمين على أن لايشى بالسلطان . فلما تبـين لها ضعـف عزيمته اذا احتج لها بعدم استطاعته مواجهة العثمانيين بعد أن دالت دولـة المماليك فحذرتـه مـن نقـض الايمان بعد توكيدها . ولكن لم يفد ذلـك شيئا . (أحمد بـن زنبـل الرمـالى ، تـاريخ السـلطان سـليم ص٩٥

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ١١٦٥

العرب قام باعتقال المملوك القاتل وامر بشنقه (فأرضى ملك الامراء خاير بك مشايخ العربان بشنق هذا المملوك)[1]

وقد أدت هذه السياسة الجديدة التى بدأ ينتهجها نائب السلطان مع العرب الى تحسين علاقات العرب مع الدولة العثمانية واشاعة الاستقرار فى البلاد .

ب- ثورة عرب السوالم فى سنة ٩٢٦ [2]

لم يكن عرب السوالم فى جملة القبائل العربية التى خضعت لنفوذ العثمانيين اذ أنهم واصلوا معارضتهم لهم فلما عجز اياس كاشف الشرقية عن اخضاعهم بالقوة لجأ الى اصطناع الحيلة ، فعمل على استمالة مشايخ عرب السوالم واستضافتهم عنده تمهيدا لاعتقالهم فما أن تم له ذلك حتى أبلغ نائب السلطان بخبرهم فأرسل النائب حملة عسكرية للقبض عليهم . ولم يكتف الحكام بذلك فقد دبروا فتنة بين عرب السوالم وبقية القبائل المجاورة لهم حاربين بذلك على

---

(١) نفس المصدر ، ص ١١٦٥

(٢) عرب السوالم من بنى سليم ، وبنى سليم من القبائل العربية التى استقرت فى مصر فى العصر الفاطمى ، وقد سبق الاشارة الى ذلك فى حينه ، ثم انتقلت من مصر مع هجرة بنى هلال الى أفريقية وانتشرت بعد ذلك سليم فى صحراء مصر الغربية وليبيا . ثم حدثت هجرات من ليبيا الى مصر تحت ضغط ظروف اقتصادية عسيرة . ومن القبائل التى قدمت من ليبيا الى مصر عرب السالم .وفى معجم قبائل العرب ان (السوالم : بطن من لبيد من سليم بن منصور من العدنانية .كانت مساكنهم ببلاد برقة).(عمر كحاله ، معجم قبائل العرب ، جـ٢ ، ص ٥٦٤)

ماجرى عليه حكام المماليك واستطاعوا بتلك الاساليب أن يقبضوا على مشايخ عرب السوالم[1] ويستبيحوا ممتلكاتهم .

ويؤكد ابن اياس أنه لولا أن عرب السوالم أخذوا بالحيلة (لما قدروا عليهم أبدا)[2] والواقع أن العرب لم يتمكن منهم أعداؤهم الا بالخديعة وبث الوقيعة بينهم . وقد حدث ذلك مرة عند قيام ابن الاحدب بثورته فى الصعيد فى عهد الصالح صلاح الدين وقد تمكن المماليك من الدس بين عرب عرك وعرب بنى هلال . وبذلك نجح المماليك فى ايقاع الهزيمة بالعرب . ثم قامت ثورة عرب السوالم بعد ذلك الاعتداء الذى وقع على مشايخهم واسقط فى ايدى الحكام فان نائب السلطان عندما (قدمت الاخبار من الشرقية بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصالحية ونهبوا مافيها فاحرقوها بما حولها من الضياع وحصل منهم الضرر الشامل)[3] .

يرجع ابن اياس سبب هذه الثورات الى سوء تدبير كاشف الشرقية الذى استعجل بقتل مشايخ عربان السوالم [4] .

---

(1) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١٢٨٢

(2) نفس المصدر ، ص ١١٨٣

(3) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٩ ، ص ١١٨٣

(4) نفس المصدر ، ص ١١٨٣

كما يعلل ثورات العرب ويبرزها بالمواقف المتخبطة للحكام وهى مواقف تتسم بصفة الاستعجال وقصر النظر [1] وكان من بين من وقع عليهم الاعتقال أيضا فى ثورة السوالم قبيلة العائد وكان قد قدم من فلسطين مع بعض العرب ونزل فى ضيافة عرب السوالم ونسب الى شيخ عرب العائد معاونته للسوالم [2] وثار عرب الشرقية وحاصروا الحاكم بها وثار عرب العائد أيضا ولما أحس نائب السلطان بخطورة ماوقع وان سياسة العنف ولدت العنف وان النتيجة وقوع الضرر الشامل وانتشار الفوضى فى البلاد عدل عن تلك السياسة وارسل الى كاشف الشرقية يأمره بالافراج عن جميع المعتقلين العرب حفظا للأمن فى البلاد[3] كما خلع على أخى نجم واستقر به شيخ العائد عوضا عن أخيه نجم .[4] وفعل نائب السلطان مثل ذلك مع عرب السوالم فعين عليهم مشايخهم محاولا بذلك استمالتهم . وقد خمدت الفتنة فى البلاد وساد الهدوء مرة أخرى[5]

---

(1) نفسه ، ص ١١٨٤

(2) نفسه

(3) نفسه

(4) نفسه

(5) نفسها

فى نهاية عام ٩٢٦(١٥٢٠) ظهرت الثورات العربيـة مـن جديـد فى الشرقية وبعض مناطق أخرى . وكان جان بردى الغـزالى نـائب الشام قد أعلن استقلاله بالشام وانضم اليـه جماعـة مـن عـرب جبـل نابلس وبنى عطاء وبنـى عطيـة وطوائـف عربيـة أخـرى كمـا انضـم اليهم الأكراد . ومن مصر انضم عرب السوالم الى بنى عطاء وبنـى عطية .

وفى بدايـة عـام ٩٢٧ (١٥٢١) وردت الاخبـار بتحـرك العـرب المناصرين لنائب الشـام ووصولهـم الى قطيـا متجهـين الى الصالحيـة . ولم يتمكن من صدهم طراباى بن قراجـا شـيخ عربـان جبـل نـابلس وكان نائب السلطان قـد استماله الى صفـه وطلـب منـه منـع جـان بردى من دخول مصر . ولما أرسل خاير بك نائب السـلطان حملـة عسكرية مـن العثمـانيين لمواجهـة تحـالف القبـائل العربيـة فـى مصـر والشام ضده لم تأت الحملة بفائدة وعاثت جنودها فسادا فـى تلـك البلاد فأعيدت الحملة ثانية الى مصر .[١]

وظل طريق القوافل بين القـاهرة والشـام مغلقـا نحـو أربعـة أشـهر بسبب الفتنة التى أثارها جان بردى الغـزالى ومحاولتـه دخـول مصـر. ثم قام جماعة من العربان من مؤيدى نـائب السـلطان بمهاجمـة نـائب

(١) نفس المصدر ، ص ١٢١٥

الشام ومنعوه من دخول القاهرة وهزموه وأرغموه على الانسحاب الى الشام .[1] وعلى اثر ذلك أعيد فتح طريق مصر والشام للقوافل.

لقد كان نائب السلطان العثمانى يدرك الدور الهام الذى يقوم به العرب فى استقرار الاحوال فى البلاد فكان يعمل دائما على كسب ثقتهم ففى عام ٩٢٨ (١٥٢٢) صدرت الاوامر السلطانية الى مشايخ العرب بأسمائهم فى أنحاء مصر كلها . ومن هؤلاء مشايخ عرب الصعيد وعلى رأسهم الامير على بن عمر وابن واصل الاحدب أمير هوارة ومن مشايخ عرب الوجه البحرى أحمد بن بقر أمير حذام شيخ عرب الشرقية وحسام الدين بن بغداد شيخ عرب الغربية واسماعيل بن أخى الجويلى شيخ عرب البحيرة [2] . وبعد ذلك قام نائب السلطان برحلة سياحية فى الشرقية والغربية وغيرها من أقاليم الوجه البحرى وهناك لقى ترحيبا مجيدا من عرب تلك الاقاليم .[3] ثم لم يلبث أن عادت الامور مرى أخرى الى الاضطراب نتيجة لتغير سياسة الحكام نحو الشعب . وقد علل ابن اياس الاسباب التى أدت الى ذلك مستشهدا بقول القائل :

---

(١) نفسه ، ص ١٢١٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٩ ، ص ١٢٤٩ - أحمد بن زنبل الرمالى تاريخ السلطان سليم ، ص ١١٤

(٣) ابن اياس بدائع الزهور ، حـ٩ ، ص ١٢٥٠ - د. محمود رزق سليم ، الاشرف كانصوه الغورى ، ص ١٦٩.

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها : : فكيف اذا الرعاة هى الذئاب[1]

وقد أصاب هذا المؤرخ العظيم بهذا الوصف الدقيق . فلم تكن ثورات العرب قط الا نتيجة لجور الحكام على الشعب وقد كان من أكبر نتائج ثورات العرب ومقاومة المماليك لها أن تم الاندماج بين العرب والمصريين . وبينما أصبح المماليك فى خبر كان ظلت ثورات العرب والاندماج العربى مع الشعب المصرى علما بارزا على طول الزمن يؤكد عروبة مصر .

([1]) نفس المصدر ، ص ١٢٥٩

الباب الرابع

حياة العرب الاجتماعية والحربية

أولا: حياة العرب فى السلم

(١)

التعمير السلمى وأهم الانشطة الاقتصادية

١- الزراعة

٢- حراسة الطرق

٣- تربية الخيول والابل والاغنام

٤- التجارة

(٢)

أزياء العرب

(٣)

دور العرب الثقافى من مصر

ثانيا:- حياة العرب فى الحروب

١- التحاق القبائل العربية بالجيش

٢- نظام القتال عند القبائل العربية فى مصر

٣- الاسلحة التى استخدمها العرب فى الحرب

٤- ألقاب قادة العرب .

حياة العرب الاجتماعية والحربية

أولا:- حياة العرب في السلم

التعمير السلمي وأهم الانشطة الاقتصادية

بدأ نشاط العرب الاقتصادى فى مصر عام ١٠٩هـ ، وذلك عندما نقلت قيس الى مصر فى خلافة هشام ونزلت بالحوف الشرقى[١] . ومن المعروف أن أرض الحوف كانت منطقة عبور للقوافل بين مصر والشام والحجاز ونزلتها القبائل القيسية من بنى عامر وهلال وسليم . ثم نزلت جذام بأرض الفرما واشتغلت بالتجارة [٢] ولكن عملها تجاوز ذلك الى الزراعة فأصبحت لهم مزارع فى العصر المملوكى .[٣] ولقد ازدادت اعداد العرب منذ بداية العصر العباسى بعد أن اسقط حقهم فى العطاء فى بداية عصر

---

(١) لم يكن بمصر أحد من قيس قبل ذلك الا من كان قد استقر زمن الفتح من فهم وعدوان وحدث أن وفد عبيد الله بن الحبحاب على هشام فسأله أن ينقل من قيس أبيات الى مصر فاذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحوف الشرقى ووزعهم فيه . وروى عن الهيثم بن عدى أنه نزل من قيس ببلبيس بيوت من مضر وبنى عامر وهوازن وبنى سليم قدموا من البادية وأمرهم ابن الحبحاب بزراعة الارض وشراء الخيول وتكاثروا بمضى الزمن حتى أصبحوا بعد وفاة مروان بن محمد ثلاثة آلاف أهل بيت من قيس (الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن حست ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٧٦ ، ٧٧ وراجع المقريزى ، البيان والاعراب ، ص ٦٧).

(٢) ياقوت الحموى ، معجم البلادان ، ص١٨٣

(٣) المقريزى ، البيان ص ٢١

المعتصم العباسى عام ٢١٨ هـ [١] فانتشروا فى جميع أنحاء مصر [٢] وتعددت أعمالهم فاشتغلت القبائل التى نزلت مناطق جنوب الصعيد والنوبة بالتعدين [٣] كما اشتغلت قريش بالزراعة وتربية الماشية. [٤] وكان بنو هلال وبنو كلاب من ربيعة من بين القبائل العربية التى ظلت تمارس الزراعة حتى عصر المماليك [٥] كذلك اشتغلت هوارة بالزراعة وصناعة السكر [٦] .

١- الزراعـــة :

امتد نشاط العرب الزراعى فى العصر موضوع الدراسة الى الاراضى البور والمناطق الصحراوية فأخذوا على عاتقهم اصلاحها بالزراعة والتعمير . فمثلا فأحمد ابن المنير الجذامى وكان من قضاة الاسكندرية فى عهد الملك الكامل محمد كان له الفضل فى تعمير احدى المناطق الخالية المهجورة فحفر فيها بئرا وابتنى بيتا ، ثم حذا

---

(١) أمر المعتصم باسقاط من فى الديوان من العرب بمصر وقطع أعطياتهم فنفذ كيدر بن عبد الله والى مصر ذلك .

(٢) المقريزى الخطط ، جـ١ ، ص ٨٠ ، جـ٢ ، ص ٢٦١–د. سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ص ٢٥١

(٣) اليعقوبى كتاب البلدان ، ص ٣٣٣

(٤) المقريزى، البيان ، ص٤٢

(٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٥

(٦) المقريزى ، البيان ، ص ٥٨

الناس حذوه وشرعوا فى البناء بجواره حتى امتد العمران وصار ذلك المكان بلدا عامرا [1]

وهذا مقداد بن شماس أحد أمراء العرب الذين جار عليهم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (فقد صادر ممتلكاته بالصعيد ثم عفا عنه وردِ اليه أمواله وممتلكاته ، وسمح له بالاقامة فى موضع قريب من الاسكندرية) يبذل قصارى جهده لتعمير هذا الموضع ، فتراه يهتم بزراعة الارض وانشاء المبانى واجراء السواقى واقامة الدواليب.[2] كذلك أنشأ الامير أبو بكر بن الاحدب العركى بلدة تقع بالقرب من مدينة طما وعمل بها قيسارية بالقرب من النيل[3]

وكان لامراء هوارة اقطاعات فى الصعيد منها اقطاع الامير عمر بن عبد العزيز والامير على ابن غريب فى مدينة جرجا وتبلغ مساحته ٣٤٥٦٣ فدانا بلغ ايرادها خمسة عشر ألف دينارا[4]

---

(١) لم تحدد المصادر المكان الذى نزل فيه ابن المنير ولكننا نرجح أنه يقع غربى الاسكندرية فى الموضع الذى أقيم فيه قبر ابن المنير وأنشىء عليه المسجد المعروف باسمه ويذكر الامام الشعرانى أن ابن المنير هو الذى أمر بحفر البئر والسقى منها على الطريق فى الموضع كانت محفورة فيه فى زمنه . وقد ألف الشعرانى كتابه هذا فى عام ٧٥٢ هـ بينما كانت وفاة ابن المنير فى عام ٦٨٣ هـ والمسافة الزمنية بينهما تزيد على نصف قرن مما يؤكد أن المكان المقصود فى قول الامام الشعرانى هو حى المنير الذى يقع به مسجده الكبير (عبد الوهاب الشعرانى ، الطبقات الكبرى ، جـ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق١ ، ص ١٢٩

(٣) ابن دقماق الانتصار لواسطة عقد الامصار ، جـ٥ ، قسم ثان ص ٢٤

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧

وبلغت مساحة (قلفاو) ثلاثة آلاف وستمائة وستة عشر فدانا كانت ملكيتها مشتركة بين نائب الوجه القبلى وشرف الدين موسى بن الامير اسماعيل بن مازن أمير هوارة ، وقد بلغ ايرادها سبعة آلاف دينار[1] وترتب على اشتغال العرب بالزراعة . أن كثرت لديهم المحاصيل الوفيرة ويتجلى عظم هذه المحاصيل المختزنة فى اهراءات فى الاوقات التى تشتد فيها القحط والمجاعات بوجه خاص كما حدث فى عهد السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين عام ٥٩٢ هـ عندما اشتدت الازمة بسبب توقف النيل عن الزيادة وقلة المختزن من الغلال مع ارتفاع ثمنه الامر الذى أدى الى اضطراب الاحوال الاقتصادية فى مصر[2] .

ويشير المقريزى الى ماكان يعانيه الاهالى من زيادة السعر وتفشى الجوع والموت حتى صارت الاقفاص التى يحمل فيها الطعام يحمل فيها الاموات ولا يقدر على النعوش الا بالنوبة ، وامتدت الايدى الى خطف الواح الخبز .. ويضرب من ينهب ويشج رأسه ويسأل دمه ولاينتهى ولا يرمى مافى يده مما خطفه)[3] .

---

(١) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٥ ، ص ٢٧ ، ٢٨ (فصل الاعمال الاخميمية)

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص ١٣٠

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص ١٣٠

ثم يذكر المقريزى ان الشريف بن ثعلب وكان من أغنياء عرب الصعيد (وبالذات بقرية دروت)[١] كان يرسل القمح فى شحنات متتابعة على مراكبه يبيعها فى شونه للناس مشاركة منه فى تخفيف حدة الازمة[٢] ولهذا السبب لم يتردد السلطان فى مكافأة ابن ثعلب فصدر الامر بالتوقيع له بخبز مبلغه فى السنة ستون ألف دينار . كما دفع له كوس[٣] وعلم بمعنى أنه أصبح ينعم برتبة أمير طبلخاناه تدق كوساتها على بابه .

ويذكر القلقشندى أن غلاء وقع فى العصر المملوكى ، فجعل الامير العربى زين الدولة طريف بن مكنون من بنى سويد من جذام وكان من أكرم العرب يستضيف كل يوم اثنى عشر ألفا وقدم لهم الطعام وكان يهشم لهم الثريد فى المراكب [٤] كذلك كان مهنا بن علوان من هلبا بن مالك من سويد من جذام جوادا كريما ويروى المقريزى أنه قدم عليه ضيوف أثناء فصل الشتاء ولم يكن لديه وقود لاعداد الطعام فأوقد أحمالا من بر كانت عنده .[٥]

---

(١) دروت احدى قرى الصعيد وتعرف أيضا باسم ديروط(ياقوت معجم البلدان ، حـ٢ ص٥٧٠

(٢) نفس المصدر.

(٣) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق١ ، ص ١٣٠ ، ١٣٢

(٤) المقريزى البيان ، ص ١٥ - القلقشندى ، صبح الاعشى حـ٤ ، ص ٧٠- أحمد لطفى السيد قبائل العرب فى مصر ، ص ٤٢

(٥) المقريزى ، البيان ، ص ٢٥

٢- حراسة الطرق:

اشتغل العرب من البدو والحضر فى الجاهلية والاسلام باعمال حراسة القوافل فكان دور البدو حراسة القوافل التى تمر بأراضيهم مقابل مبلغ من المال يدفع لهم أما العرب المتحضرون فكانوا يقومون بتأمين المتاجر وحراسة الاموال لقاء جعل معلوم كما كانوا يقومون بحراسة القوافل[1] . وفى مصر اشتغل العرب وخاصة قبيلة جذام - وكان لهم بطون كثيرة بمصر - بحراسة الطرق وحماية القوافل التى تعبر الصحارى من اللصوص وقطاع الطرق ، كما اشتغلوا مشايخ وخفراء فى البلاد ، ومن بطون جذام :-

- بنو عقبة وكانوا يتولون حراسة المنطقة مابين مصر والحجاز الى حدود غزة [2] - العائذ وكانوا يتولون حراسة الطريق مابين القاهرة الى العقبة[3] - بنو صبرة وكانوا يتولون حراسة منطقة سرياقوس احدى ضواحى القاهرة [4] - بنو كلاب وهم من بين القبائل القيسية من بنى عامر بن صعصعة قدموا الى مصر فى عام ١٠٩هـ وسكنوا بلبيس[5]. - ويذكر المقريزى ان جماعة من بنى

---

(١) عبد الرؤف عون ، الفن الحربى فى صدر الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٢ ، ٣٥

(٢) قلائد الجمان ، ميكروفيلم رقم ٣٨١.

(٣) المقريزى ، البيان ، ص ١٩ - القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ٣٢٣

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق ٣ ، ص ٧٦٨

(٥) المقريزى ، البيان ص ٦٨

كلاب نزلت اقليم الفيوم [1] ب ويذكر أبو عثمان النابلسى ان عرب الفيوم كانوا يتولون حراسة أهلها ولهم الاجرة على ذلك [2] ولم يقتصر دور العرب على أعمال الحراسة والخفر فقط وانما كانوا يكلفون أحيانا باتخاذ الاجراءات الكفيلة برد مااغتصب من الاموال أوالممتلكات بسبب اعتداءات قطاع الطرق من البدو المفسدين [3] - أو تسليمهم الى السلطان لتوقيع العقوبات عليهم لردعهم [4] .

وفى عهد السلطان الغورى أغدق ناظر الخاص الحراس العربيه بالهدايا من الملابس العربية مما كان له نتائج باهرة فى استتباب الامن [5] وفى العصر العثمانى تلقى العرب المنح والهدايا القيمة من السلطان. ويذكر ابن اياس (ان الخنكار ابن عثمان ارسل تقدمه حافلة الى الامير على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل اليه قفطان تماسيح باستمراره على عادته ورسم بأن التقدمة والقفطان تتوجه الى صحبة قاصده الى الصعيد فتضاعفت عظمة الامير على ابن عمر بسبب ذلك) [6]

---

(1) نفس المصدر ، ص ٢٨

(2) أبو عثمان النابلسى ، تاريخ الفيوم ، وبلاده ، ص ٢٧

(3) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٩ ، ص ٩٢٥

(4) نفس المصدر ، ص ٩٩١ ، ١١٩٣

(5) نفسه ، ص ١٥٥

(6) نفسه ، ص ١١٦٠

وكان للعرب دورهم الهام فى ارشاد القوافل [١] والوافدين الى مصر لزيارة معالمها ومرافقتهم الى قرب العاصمة ولكن لايتسنى لهم دخولها خوفا من مصادرة مواشيهم[٢] ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أن شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية شهد للعرب عامة وبنى عدى خاصة بالصلاح والتقوى وبأنهم أهل قتال مجاهدون [٣] وأجاز لعرب البادية قيامهم بتحصيل مبلغ من المال من القوافل المارة عبر الصحراء نظير حمايتهم لتلك القوافل بما فيها ومن فيها [٤]

٣- تربية الخيول والابل والاغنام :

أشتهر العرب في الجاهلية والاسلام بمهارتهم فى ركوب الخيل والفروسية وأسلوب الكر والفر الذى احادوه فى المعارك ولذلك اهتموا باقتناء الخيول وتربيتها وتعهدوا الخيل بالعناية والرعاية واهتموا بأصالتها وحرصوا على تتبع أنسابها[٥] ولذلك الفت الكتب في نسب الخيل[٦]. وكان للعرب عناية فائقة باقتناء الخيل العتاق دون غيرها وهى التى ترجع الى أصول عربية خالصة بمعنى أن الفرس العتيق معروف النسب وسمى بذلك لعتقه من العيوب وسلامته من

---

(١) المقريزى ، البيان ، ص ٢٦

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص٥٤

(٣) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ، ط القاهرة عام ١٣٣٢ هـ ص٢٧٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٦

(٥) كمال الدين الدميرى ، حياة الحيوان ، ط القاهرة ١٨٧٥م ، جـ٢ ، ص ٢٢٩

(٦) ابن الكلبى ، انساب فحول الخيل تحقيق أحمد زكى باشا القاهرة ١٩٤٩

الطعن فيه بالامور المنقصة.. ذكر الدميرى أن من الخيل مالا يبول ولا يرث مادام عليه راكبه.(١)

وفى العصر الاسلامى زاد اهتمام العرب بالخيل وكان لفرسان العرب دورهم فى المعارك وعليهم كان الاعتماد فى القتال وكان الفرس الوسيلة الرئيسية فى قتال العدو والنيل منه (٢) ومن هنا ورد اسم الخيل فى القرآن الكريم مرتبطا بالجهاد فى قوله تعالى :(واعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)(٣) . وفى الحديث ان (الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة). (٤) وبلغ من عناية المسلمين بالخيل انهم جعلوا للفرس نصيب صاحبه فكان للفارس سهم وسهمين لفرسه(٥) كما عنى المسلمون بتدريب خيولهم بالجرى واعدادها لحاجتها للطلب والكر . وقد حضر النبى صلى الله عليه وسلم سباقا بين الخيل وكان بينها فرس ، لابى بكر الصديق فاز أبو بكر الصديق فى هذا السباق .(٦) وعندما نتتبع تحركات العرب فى مصر زمن الفتوحات

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ابن خلدون المقدمة ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

(٣) سورة الانفال الاية ٦٠

(٤) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، نهاية الارب فى فنون الادب ، حـ٩ ، ص ٣٤٧

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٧٦ – عبد الرؤف عون ، الفن الحربى ص ١٢٢

(٦) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٩ ، حـ٣٧٠

نرى بوضوح مدى اهتمام العرب بالانتقال من الحاضرة الى (مرتبع الجند) سنويا فاذا حل الربيع واللبن كتب لكل قوم بربيعهم يطلقون خيولهم في حقول البرسيم ترعى حتى تسمن (١) . وكان عمرو بن العاص يخاطب جنوده في هذه المناسبة ويوصيهم بالاهتمام بخيلهم بارباعها وتسمينها وصونها واكرامها لانها وقاية لهم من أعدائهم وبها ينالون مغانمهم ويحملون أثقالهم وكانوا يدربون خيولهم عبرا لصحراء المجاورة لمرتبعهم . (حيث كان يتهيأ لهم الصيد وتأديب خيولهم وتدريبها) .(٢) ومن العرب من بالغ في العناية بحصانه الى الغاية . فلما عوتب في ذلك قال ان الحصان يدعوا الله كل سحر أن يكون عندى أحب الى من ولدى وأهلى ومالى (٣) .

وظل العرب في مصر يهتمون بخيلهم حتى العصر المملوكى . ونتج عن هذا الاهتمام باقتناء الخيول وترتيبها أن حظى العرب بهبات السلاطين وعطاياهم أمثال الظاهر بيبرس ومحمد بن قلاوون ففى رحلة للسلطان بيبرس الى الاسكندرية عرج الى بلدة تروجه(٤) وهناك حضر حفلا لسباق الخيل بين عرب تروجه وكان قد أمر باقامته ، فاجتمع ألف فارس من عرب تروجه وانضم اليهم جملة من

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٤٠

(٢) د. عبد الله البرى ، القبائل العربية فى مصر ص ٤٦

(٣) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٤٣

(٤) قرية بالقرب من الاسكندرية تتبع اقليم البحيرة (ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ١ ، ص١٢ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٩٨ ، هامش ٢

خيل العسكر وحدد السلطان مسافة السباق . ووقف في مكان مرتفع يراقب فرسان السباق . ثم حصل كل متسابق على نصيبه من الهدايا وقوامها الثياب الاطلسي والقبابي [1] وفيها المال[2] .

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون - وكان شغوفا بالخيل نعم كل من كان يقتني الخيل من العرب بعظيم رعايته . فكان ابن قلاوون يكرمهم ويبذل لهم الرغائب في خيولهم وكان يبث العيون عند طوائف العرب ليصل الى بغيته مما عندهم من الخيول الاصيلة . وكان العربي يجد في البحث عند البدو عن الخيل الفرس السابق أو الاصيل . ويذكر له أصله لعدة جدود حتى يأخذها بالثمن الذي يحدده صاحبه ، ويذكر ابن تغري بردي أنه بذلك تمكنت العربان من السلطان ونالوا المنزلة العظيمة والسعادات الكثيرة[3] . ومما يدل على عناية العرب باقتناء الخيل أن حاكم البحيرة صادر بسبب معارك ابن الاحدب ستمائة وأربعين فرسا كان يمتلكها عرب البحيرة وصادروا من عرب الصعيد ألف وثلاثمائة فرس[4] . ويستدل من المصادرات التي تعرضت لها ممتلكات العرب في عصر المماليك على عظم ثروة العرب الحيوانية في هذا العصر ، والامثلة

---

(1) القبابي في الاصل القميص أو الدرع (عبد الرؤف عون ، الفن الحربي ، ص ٥٥٢ ، القاهرة ١٣٠٦هـ

(2) المقريزي السلوك ، حـ٢ ق١ ، ص ٥٠٠

(3) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، حـ٩ ، ص ١٦٧

(4) المقريزي ، السلوك ، حـ٢ ق ٣ ، ص ٣٥ ، ٤٠

على ذلك كثيرة . من قبيل المثال نذكر قائمة لممتلكات صودرت فى عام ٧٠١ هـ وأخرى فى عام ٧٥٤ هـ . ففى المصادرة الاولى بلغ عددها مائة ألف رأس من الخيل والجمال والاغنام[١] وذلك خارجا عما آكل وذبح ونهب)[٢] وقائمة المصادرة الثانية تضم من الدواب المصادرة مايلى : ألفا وثلاثمائة فرس ألفا ، وخمسمائة جمل سبعمائة حمار وأغناما كثيرة (سوى مانهب العبيد وآكلوه)[٣] هذا قليل من كثير كان يمتلكه العرب فى مصر.

٤- التجارة :

كان أول من اشتغل بالتجارة من القبائل العربية فى مصر حذام وقيس وكانت حذام تنزل فى الفرما التى تعتبر المعبر الرئيسى للقوافل بين مصر والشام[٤] فنشطت تجارة النوى والشعير والعلف وكانوا يشتغلون بتجارة التمر الذى يجمعونه من غابات النخيل الممتدة فى ظاهر المدينة ويصدرونه الى سائر الافاق[٥] .

---

(١) الجمل : استخدم العرب الجمال فى نقل الخيام والامتعة الثقيلة والات الحصار كما كانوا يحملون عليها نساؤهم وأطفالهم ويجعلونها خلف صفوف المقاتلين شحنا لهممهم (عبد الرؤف عون الفن الحربى ، ص ١٢٢).

(٢) زترستين ، نصوص عربية من دولة المماليك بمصر ، ص ١٠٧

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ق٣ ، ص ٩١٣

(٤) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٨٧ - محمود عكوش ، مصر فى عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٣٧ .

(٥) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ص ١٨٣

كذلك نسب الى قبائل جذام وثعلبة تصدير الغلال الى الفرنج[٦] زمن الحروب الصليبية على الرغم من أن بعض المصادر تنفى عن جذام وثعلبة هذا الدور [١] . الا أن مانسب اليهم فى حد ذاته يشير بوضوح الى أن جذاما وثعلبة كانتا تشتغلان بالتجارة الخارجية .

أما قبائل قيس فقد اشتغلت منذ قدومها الى مصر[٢] ونزولها بأرض الحوف الشرقى عام ١٠٩ هـ زمن هشام بن عبد الملك بالزراعة وبتربية الخيول وبيعها وجنوا من وراء ذلك أرباحا كثيرة ، دفعت بالكثير من العائلات القيسية الى الهجرة من الحجاز الى مصر[٣] وكان كثير من أمراء العرب ومشايخهم - نتيجة لنشاطهم التجارى والزراعى وما الى ذلك - على درجة كبيرة من الثراء الى الحد الذى أطمع فيهم بعض الوزراء فى العصر المملوكى أمثال النشو وزير السلطان محمد بن قلاوون كما تعرضت ثروات العرب للاستنزاف نتيجة معارضتهم للحكم المملوكى . ورفعوا نسبة مايفرض عليهم من الغرامات أو الهدايا . فكان عليهم أن يقدموا مما

---

(١) المقريزى البيان ص٦ .

(٢) الكندى ، كتاب الولاة ، وكتاب القضاة ،ص ٧٧ ويذكر الكندى أن عبيد الله بن الحبحاب أمر القيسية بالزرع) وانه صرف اليهم أموال الصدقة من العشور فاشتروا بها ابلا ، ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فأخذ الرجل يشترى المهر فلا يمكث عنده الا شهرا حتى يركب دون ان يكلفهم ذلك شيئا لجودة مرعاهم وكان ذلك من أسباب اجتذاب مزيد من القيسية الى أرض الحوف (ص٧٧)

(٣) نفس المصدر - المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص ٨٠ - المقريزى ، البيان ،ص ٦٧

عندهم من الخيل والابل والحيوانات النادرة الى السلطان [1] كهدايا أو غرامات.

(٢)
أزياء العرب

لم يكن للناس فى العصرين الايوبى والمملوكى حرية ارتداء مايرغبون من الملابس فقد كان للسلطان حق التدخل فى تحديد الزى وقصر ارتداء أنواع معينة من الثياب على جماعة معينة من الناس .

ففى عهد السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر كتب الخليفة الناصر لدين الله العباسى ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها وكان على من يرغب فى الانتظام فى سلك طائفة الفتوة ورماة البندق التوجه الى بغداد حتى يلبسه الخليفة السراويل بنفسه . يقول المقريزى (فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه)[2] وكان كبار رجال الدولة وأمراؤها ورجال القضاء والفقه يرتدون السراويل[3] . ولم يكن ارتداء السراويل قاصرا على الرجال دون النساء بل كانت النساء ترتدين السراويل والقمصان . يذكر المقريزى أن شجرة الدر عثر على جثتها مطروحة فى حفرة وعليها

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق٢ ، ص ٣٨٨.

(٢) المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق١ ، ص ١٧٢

(٣) نفس المصدر

قميص وسروال[1] . .وكان السروال بالنسبة للمرأة من الملابس الخارجية ومن المعروف ان النساء كن يمكثن فى بيوتهن بدون سراويل[2] وكان العرب يلبسون القمصان ذات الاكمام الواسعة . ولبس فرسان العرب فى مصر الثياب الاطلسى والقبابى ففى احدى حفلات سباق الخيل فى اقليم دمنهور قدم السلطان بيبرس فى نهاية الحقل الجوائز والهدايا الثمينة للمتسابقين وكانوا مئات من فرسان العرب . وكان فى جملة ماهداه السلطان لهؤلاء الفرسان العرب ملابس من الثياب الاطلسى والقبابى .[3] وفى عهد السلطان محمد بن قلاوون لبس العرب الحرير الاطلسى والمعدنى بالطرز الزركش والشاشات المرقومة ولبسوا الخلع البابلى والاسكندرى [4] المطرز بالذهب . وصاغ السلطان لنسائهم العناتر بالاكر الذهب والاساور المرصعة بالجوهر واللولو وبعث لهن بالقماش السكندرى وعمل لهن البراقع الزركش ولم يكن لبسهم قبل ذلك الا الخشن من الثياب على عادة العرب[5]

---

(1) نفسه

(2) Ahmad ABD ARRAZIK: La femme au temps de mamlouks en Egypte. Le Cairo. 1973.P.2/2.

(3) نفسه المقريزى ، السلوك ، حـ1 ق1 ، ص ٥٠٠

(4) الارجح أن هذه التسمية نسبة الى اسم المدينة التى صنع بها هذا النسيج يذكر المقريزى ان الثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها . وتحمل الى اقطار الارض (الخطط ، حـ1 ، ص ١٦٣)

(5) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، حـ9 ، ص ١٦٦

أما اشراف العرب الذين ينتسبون الى بيت الرسول فقد لقوا ترحيبا كبيرا من الاشرف شعبان الذى أمرهم بلبس عمائم بها شطفات خضر تمييزا لهم عن غيرهم من سائر القوم وتعظيما لقدرهم ومما قيل فى هذه المناسبة :

للشيخ شهاب الدين بن جابر الاندلسى:

جعلوا لأبناء الرسول علامة ::: ان العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة فى كريم وجوههم ::: يغنى الشريف عن الطراز الاخضر(١)

وللشيخ شمس الدين بن المزين

أطراف تيجان أتت من سندس ::: خضر كأعلام على الاشراف

والاشرف السلطان خصصهم بها:: شرفا لتعرفهم من الاطراف(٢) وفى عهد الظاهر برقوق كان حاكم القاهرة يبعث بمماليكه يسيرون فى الاسواق يراقبون النساء فاذا وجدوا امرأة ترتدى قميصا ذا أكمام واسعة تزيد عن الحد المسموح به قطعوا لها

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٩٥

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص١٩٥

(٣) Ahmad Abd Arrazik : La femme au temps de mamelouks en Egypte, Le cairo.1973 P.212

أكمام القميص وكثيرا ماعوقبت النساء اللاتى كن يرتدين القمصان التى كانت تسمى (بهتلة) والتى كانت أكثر شيوعا بين النساء [1]

وكان بعض سلاطين المماليك أمثال محمد بن قلاوون يتزيون بزى العرب ، ويذكر المقريزى أن السلطان محمد بن قلاوون ظهر فى احدى رحلاته الى الحجاز وهو راكب ناقه وعليه بشت[2] من ملابس العرب بلثام وبيده حربه[3] وكان فرسان العرب يتلثمون فى كثير من الاحيان فأحمد بن زنبل الرمالى يذكر أن جان بردى الغزالى بعد أن شق عصا الطاعة وانضم الى العثمانيين وحارب طومان باى ، أراد أن يخدعه فتزيا بزى فارس عربى وتلثم مثلهم حتى صار من يراه يظن أنه فارس عربى ووقف فى ميدان القتال يطلب من المماليك المبارزة على الرغم من المظهر العربى الذى خدع به جان بردى الغزالى الجميع فان السلطان طومان باى أدرك أن لهجته غير عربية خالصة ولكنها بين العربية والرومية وطلب منه أن يكشف عن حقيقته . عندئذ اضطر الفارس المزيفالى أن يكشف عن شخصيته الحقيقية[4] وهذه الواقعة تدل على أن العرب فى مصر عرفوا اللثام

---

(٢) البشت : العباءة

(٣) المقريزى السلوك ، جـ٢ ق١ ، ص ١٢٢

(٤) أحمد بن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ، ص ٨٥، ٨٧

ولبسوه . ومن ملابس العرب التى عرفوا بها أيضا العقال والكوفية والعباءة[1] وهى خاصة بهم .

(٣)
دور العرب الثقافى فى مصر

كان لهجرة قبائل العرب من بنى هلال وسليم من مصر الى أفريقية فى العصر الفاطمى فضل تعريب أفريقية والمغرب كذلك كان لعلماء العرب فى مصر فى العصر الايوبى فضل نشر علوم اللغة العربية وثقافتها فى البلاد

وفى العصر المملوكى امتدت جهود علماء مصر من العرب الى خارجها وتشعبت الى مناطق متعددة من البلاد العربية فأدركت أفريقية والمغرب . ففى بداية العصر الايوبى عمل الناصر صلاح الدين على احياء المذهب السنى فأنشأ المدارس وعين لها المدرسين[2] وكان ذلك سببا فى ازدياد النشاط العلمى فى أنحاء البلاد ، وبلغ هذا النشاط ذروته فى العصر المملوكى فكثر عدد المدارس منذ عهد

---

(١) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ق١ ، ص ١٢٣ - د. أحمد الشرباصى شكيب أرسلان داعية العروبة والاسلام ص١٠٠، ٧ الجيزة ١٩٦٣

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ص ٥٨ - راجع د. أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها فى العصر الايوبى ط . القاهرة عام ١٩٦١ - وانظر جاستون فييت ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ترجمة الدكتور مصطفى العبادى ، بيروت ١٩٦٨ ص ٨٩ ومابليها

السلطان بيبرس حتى عهد السلطان الغورى[1] وخصص لهذه المدارس الاساتذة لتدريس العلوم الدينية . وتحفيظ القرآن . ومن أمثلة هذه المدارس : مدرسة السلطان حسن التى أنفق عليها مبالغ طائلة فجاء بناؤها شامخا ليس له مثيل فى الشرق كله[2] ثم عين لها المدرسون وخصص شيخ لكل مذهب من المذاهب الاربعة يدرسون لمائة من الطلبة غير مدرس للحديث ومقرئ لقراءة الحديث ومفتى من العلماء وكان للمدرسة مراقبين للحضور والانصراف وألحق بها مكتبة وخصص لها أمين كما الحق بها مكتبان لتحفيظ القرآن يقصدها أبناء الايتام وقرر لهم الكسوة والطعام وكان يصرف لهم ولأساتذتهم مكافآت عند اتمام حفظ القرآن [3] وكان يوقع الكشف الطبى على من بالمدرسة من الموظفين والطلبة اثنان من الاطباء احدهما باطنى والآخر للعيون [4]

ويصف ابن خلدون الدور الحضارى العظيم الذى تقوم به مصر فى العصر المملوكى فيقول (ولاأوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنايع)[5] . وكان

([1]) د. سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، ص ١٤٢ ط. القاهرة ١٩٦٣

([2]) د. حسن عبد الوهاب ، جامع السلطان حسن ، المكتبة الثقافية رقم ٥٦ ط . القاهرة ص٦٢ ، ص ٩

([3]) نفس المرجع ص٢٢

([4]) نفسه.

([5]) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٥٤٥

للعرب فى مصر اهتمام بعلوم الدين واللغة العربية بجانب اهتمامهم بغيرها من العلوم والفنون ، وقد نبغوا فى ذلك واتسع نشاطهم العلمى وتشعع منها ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله:(ووصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه احكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف مافى الصناعة المتكررة فى أكثر أبوابها وسماه بالمغنى فى الاعراب واشار الى نكت اعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها الى أن يقول فأتى من ذلك بشيئ عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه)[1] .

ومن العلماء العرب الذين اسهموا بنصيب وافر فى الحياة العلمية والدينية والاجتماعية فى مصر الايوبية العالم الصوفى عمر بن الفارض ٥٧٦/٦٣٢ (١١٨٠/١٢٣٤) وينسب الى بنى سعد يقول عنه ابن اياس(وكان الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله عنه فريد عصره فى علم التصوف ، وكان له نظم فائق فى معانى الغراميات لم يسبق اليه)[2] ومن أهم شعراء العرب فى عصر المماليك:١- شرف الدين محمد البوصيرى صاحب قصيدة البردة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٤٧

(٢) ابن اياس بدائع الزهور، حـ١ ، ص ٦٦

فى مدح الرسول ﷺ نال الحظوة من السلطان الظاهر بيبرس فولاه عدة مناصب هامة [1] ومن طريف مايروى عن شرف الدين أنه تنبأ للسلطان الاشرف خليل بأخذ عكا وكان قبل مسيرة السلطان لحصارها عام ٦٨٩هـ فانشد شرف الدين جماعة من أصحابه بهذه الابيات :

قد أخذ المسلمون عكا ::: واشبعوا الكافرين صكا

وساق سلطاننا اليهم ::: خيلا تدك الجبال دكا

واقسم الترك منذ سارت::: لن يتركوا للفرنج ملكا

وقد تحقق ماأخبر به شرف الدين فأخذ المسلمون عكا [2]

٢- جمال الدين بن محمد بن نباته الفارقى المصرى الجدامى ٦٨٦/٧٦٨ هـ يقول عنه ابن اياس أنه كان يخترع فى شعره المعنى الغريب الذى لم يسبق اليه فيأخذه عنه آخر وينسبه الى نفسه[3].

٣- القيم خلف الغبارى : كان زجالا يسجل الاحداث ويكتب فيها القصائد الطوال وكان من عادته أنه يختم القصيدة الزجلية بما يدل على انتشار صيته وعلو مكانته فى مصر والشام

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ط القاهرة ١٩٦٣ ص ١٤٤

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ص١٠٣،١٠٤

(٣) نفس المصدر، جـ٢ ، ص١٩٠

عاصر الاشرف شعبان وابنه المنصور على وقد أوردت نماذج من شعره فى هذا الباب الرابع فى وصفه التهكمى لاسلحة العرب[1] .

٤- شهاب الدين أحمد بن محمد بن خضر بن على السلمى المنصورى ٨٢٢:٨٨٧ هـ وكان شاعرا رقيقا ومنظم جيد ، وصفوا انتاجه الادبى فقالوا:

أخبرتنا ملوك القوافى ::: فى بديع المنظوم والمنثور

ماوجدنا خليفة فى المعانى ملكا فى البيان كالمنصور

وقال عنه ابن اياس: وكان شهاب الدين هذا جميل الهيئة نير الوجه متعففا عن الناس ولما بلغ خمسة وسبعين سنة من العمر قال:

بلغت من دنياى سنا به :::: وقعت فى السبعين والخمس

فالحمد لله الذى متعنى بالســـــن والضـــــــــرس

وبلغ الثمانين من العمر قال:

نحو الثمانين من العمر قد ::: قطعتها مثل عقود الجمان

وماأحوجت يوما يمينى الى عصا ولاسمعى الى ترجمان[2] . يروى ابن اياس أن أحد الشعراء تعرض فى عهد السلطان الغورى لنقد وكيل بيت المال . وألقى فيه قصيدة كلها هجاء لاذع فكان مصير

---

(١) نفسه ، ص٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٥١١

الشاعر توقيع العقاب عليه لولا تدخل جماعة كثيرة من الاهالى حالوا بين القاضى وبين هذا الشاعر وأرغموا القاضى على اصدار عفو عنه[1] . عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى العلوى الهاشمى ولد بقلقشندة عام ٨٩٨هـ . درس كتب الدين واللغة وحفظ كتاب المنهاج النبوى والفية ابن مالك وكثير غيرها وتتلمذ على يد أساتذة كان آخرهم الشيخ على الخواص ، فكان أول الطريق على التصوف . بدأ بمجالس العلم فى مدرسة أم خوند وفى هذه المدرسة ذاع صيته وانتشر فكره حتى صار زعيما شعبيا له كلمة وصوته مسموع [2] . ألف كتبا فى شتى أنواع العلوم فى الفقه والتصوف والطب واللغة[3] ومما روى عنه أنه كان صوفيا من الطراز الاول وكان كاتبا بارزا أصيلا فى الفقه وأصوله ومصلحا لايكاد الاسلام يعرف له نظير . بلغت كتبه السبعين عدا من بينها أربعة وعشرين كتابا تعتبر ابتكارا محضا لم يسبق اليه [4] .

ومن الفنون التى أدخلها العرب فى مصر السير الشعبية ومن أمثلة ذلك سيرة عنترة بن شداد وزمنها ممتدا منذ العصر الجاهلى حتى بداية عصر النبوة وتتعرض لمشكلة المساواه بين الاجناس وذات

---

(١) نفس المصدر ، جـ٧ ، ص ٧٥٤

(٢) محمود أحمد هاشم ، الامام الشعرانى ، ط القاهرة سنة ١٩٧١ ، ص ٣٧

(٣) نفس المرجع ص٥٠

(٤) نفسه ، ص ٥١

الهمة[1] وتجئ فى الترتيب الزمنى بعد سيرة عنترة وتتعرض لدور المرأة العربية فى المجتمع بعد ظهور الاسلام حتى عهد الخليفة الواثق فى أواخر الدولة العباسية [2] وسيرة الظاهر بيبرس وتتعرض لدور السلطان صلاح الدين ومن بعده السلطان الظاهر بيبرس فى قيادة الجيوش وادارة الحكم ووحدة الشعب العربى فى مصر والشام ودور الفارس العربى والكروالفر فى الحروب ضد الصليبيين والتتار والمغول فى مصر والشام . كتبت هذه السير للدفاع عن دور الشعب العربى فى الدفاع عن وطنه ضد الاعداء وتترابط هذه السير الشعبية بحيث نجد أن سيرة عنترة وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس تدور حوادثها جميعها حول صراع الامة العربية ضد أعدائها من الفرس والروم منذ العصر الجاهلى الى ظهور الاسلام وبين الامة العربية والفرنج أو المغول فى عصر دولتى الايوبيين والمماليك [3]

هذا الترابط فى السير الشعبية يؤكد الصلة التاريخية بين سيرة عنترة بن شداد وغيرها بسيرة الظاهر بيبرس فى مصر ويعطى دلالة واضحة لدور العرب الثقافى فى كتابة السير الشعبية فى مصر . يقول الدكتور عبد الحميد يونس ان الوطنية والقومية لاتتعادلان فى شئ تعادلهما فى ملاحم الادب الشعبى وقصصه الطويلة التى تحكى

---

(1) ذات الهمة : هى فاطمة بنت مظلوم ابن الصمصام بن جندبة بن الحارث من قبيلة بنى كلاب العربية (فاروق خورشيد ، أضواء على السيرة الشعبية ، ط القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٩

(2) فاروق خورشيد ، أضواء على السيرة الشعبية ص ٥٤ .

(3) فاروق خورشيد ، أضواء على السير الشعبية ، ص ٦٠ ، ٩٧

الفروسية ، كما عرفت واستقرت بخلائقها وسماتها فى هـذه البقعة من العالم والظاهر بيبرس هـو الشخصية التى احتفل بها الشعب العربى والاسلامى واضافها الى المثل التى استخلصها من تاريخه.(١)

ثانيا:- حياة العرب فى الحرب

ظل العرب منذ الفتح العربى يمثلون العنصر الرئيسى فى جيش مصر حتى عهد الخليفة المعتصم العباسى الذى أمر كيدر نصر بن عبد الله واليه على مصر باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم فى عـام ٢١٨هـ ونتج عن ذلك انتشار العرب فى أنحاء مصر واشتغالهم بالزراعة والتجارة والصناعة (٢) الا أنه على الرغم من ذلك استمر العنصر العربى ممثلا فى الجيش المصرى ، حتى أن عددهم بلغ فى عهد بن طولون سبعة آلاف (٣) .

١- التحاق القبائل العربية بالجيش:-

كان نظام الجيش منذ الفتح العربى يتم على أساس قبلى بمعنى أن كل قبيلة كان لها راية يقاتل أفرادها تحتها(٤) وظل تمثيل العرب فى الجيش يتم بنفس النظام القديم ، فكان الالتحاق بالجيش أساسه

---

(١) د.عبد الحميد يونس ، الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ، ط القاهرة ص ٧ المكتبة الثقافية رقم ٣

(٢) حسنابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، جـ١ ، ص ٥٢٩ - سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ص ٧٤ ، ط القاهرة ١٩٤٧

(٣) سيدة الكاشف ، أحمد بن طولون ، ص ١٢٦ ، ط القاهرة ١٩٦٥

(٤) عبد الله البرى ، القبائل العربية فى مصر ، ص ٢٢٨ ، ط القاهرة ١٩٦٧

القبيلة . وقد أورد غرس الدين خليل بن شاهين فى كتابه زبدة كشف الممالك أسماء القبائل العربية المقيدة فى جرائد الجيش المملوكى وعدد أفراد كل قبيلة على حدة وقد بلغ عدد جميعهم سبعة وعشرون ألفا مابين فارس وراجل[1] ذكر منهم عرب جذام والعائد وفزارة ومحارب وهوارة . وبلغ عدد قبائل العرب المقيدة فى الجيش المملوكى فى الاقاليم التابعة لمصر والشام - ثلاثمائة وأربعة عشر ألف محارب[2] وكان فرسان العرب يشتركون فى المعارك نظير اقطاعات يقطعها لهم السلاطين واشهر القبائل العربية التى حازت الاقطاعات مقابل خدماتها الحربية عرب بنى الغوث من بنى خزيمة وعرب فايد وخفاجة وهوارة ولخم[3] وكانت القبائل العربية وجماعات من الزعر[4] تستدعى للمشاركة فى الدفاع عن البلاد . فقد روى ان كرتباى الاحمر حاكم البحيرة عرض على السلطان الاشرف قايتباى وكان يجهز حملة عسكرية للدفاع عن شمال الشام - جماعة من الزعر قصد ان ينفق عليهم لكل واحد منهم ثلاثين

---

(1) غرس الدين خليل بن شاهين زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣

(2) على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، ط القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٧٠

(3) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٣٥.

(4) الزعر: هم المزارعون العرب الذين هاجروا الى المدن الكبرى هربا من المعاملة الوحشية التى عاملهم بها المماليك انتقاما لثوراتهم المتكررة ضد الحكم المملوكى (انظر المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ، ط القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٤ / ٤٥)

دينار وان يخرجوا صحبته ، وظل السلطان يراقب الموقف ويعد العدة لمواجهته بتحفظ واهتمام بالغين[1] .

وكان السلطان يقوم باستعراض عساكر الحملة بنفسه قبل رحيلها الى الشام ومن الجدير بالذكر أن عرب الشرقية شاركوا فى آخر حملة عسكرية للسلطان قايتباى وجهها لقتال العثمانيين عند الحدود الشمالية للبلاد الشامية [2] .

وبلغ جملة ماانفقه السلطان على هذه الحملة نحو نصف مليون دينار.[3] وبلغت الحملات الحربية فى عهده رقما قياسيا لم تبلغه البلاد من قبل.[4]

٢- نظام القتال عند القبائل العربية فى مصر

كان العرب يبنون خططهم الحربية على نوعين [5] أولهما القتال صفوفا متراصة فى مواجهة العدو ، مثل تقسيم الجيش الى مقدمه

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٥ ، ص ٥٤٣

(٢) نفس المصدر ، حـ٥ ، ص ٥٥٨

(٣) نفسه ، ص ٥٥٩

(٤) نفسه ، حـ٦ ، ص ٥٩٣

(٥) انظرابن خلدون ، المقدمة ، الفصل السابع والثلاثون فى الحروب ، ص ٢٧٣ ، ط القاهرة

ومؤخره وقلب وجناحين والتقدم زحفا الى أرض العدو . وفى القلب يكون القائد أو الملك .[1]

أما النوع الثانى وهو الكر والفر ، فان المقاتلين يجمعون ابلهم ونساءهم وأطفالهم خلفهم ويقاتلون دونهم ويجعلون ذلك سببا لشحذ عزائمهم للاستماتة فى القتال حتى الموت [2] وقد مارس العرب فى مصر الطريقتين فى حروبهم ضد أعدائهم [3] وعلى الاخص النوع الثانى فى حروبهم ضد المماليك .

([1]) عرف العرب نظم التعبئة الجديدة فقسموا الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقة(بن هشام نبى البر محمد المختار من سيرة ابن هشام ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، كتاب الشعب رقم ١٥ ، ص ٢٧٩ – عبد الرؤف عون ، الفن الحربى فى صدر الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦١ ، ص٤٦

([2]) كان العرب فى حروبهم يضربون المصاف وراءهم أى أنهم يتركون ابلهم ومواشيهم وعيالهم وأثقالهم من خلفهم حفزا لهمم المقاتلين وثباتهم فى قتال عدوهم (المختار من سيرة ابن هشام ، ص١٠١–محمود شيت خطاب ، عقبة بن نافع الفهرى ، ص ١٦٧ ، ط القاهرة ص ١٩٧١.

([3]) وتفصيل ذلك أنهم كانوا يقاتلون اما وهم كتائب فى جيش المماليك مثلما حدث أثناء معاركهم ضد التتار على أرضالشام فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عام ٦٨٠هـ اذ وصلت الاخبار الى مصر بقرب هجوم التتار على أرض الشام . عندئذ خرجت عساكر مصر وسائر العرب متجهة الى الشام وكانت التتار قد وصلت الى أطراف حلب وهناك التحم الجيش المملوكى مع جيش التتار وواجهت ميسرة التتار ميمنة المسلمين فصدمتها صدمة شديدة ثبتوا لها ثباتا شديدا وحملوا على ميسرة التتار ، وكان عيسى بن مهنا القائد العربى فى ميمنة الجيش فهاجم هو ومن معه من فرسان العرب من سائر مصر والشام فقتلوا من التتار مقتلة عظيمة وهزموهم (انظر المقريزى ، السلوك ، حـ١ ق٣ ص ٦٨٥ كذلك كان العرب يتقدمون الجيوش فى المعارك الحربية مثل معارك دمياط والمنصورة ويقومون بالادوار الفدائية ضد العدو قبل بدء القتال فيخطفون أفرادهم ويستولون على معداتهم وأسلحتهم ويفرون ويكرون حتى يقع الرعب فى معسكرهم وتنتشر الفوضى والاضطراب. بين صفوفهم . (انظر المقريزى ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥٦ – السلوك ، حـ١ ق١ص٢٠١– ٢٠٧)

يذكر المقريزى أن ابن الاحدب عندما عزم على قتال المماليك جمع ممتلكات العرب من الاموال والمواشى وجمع النساء والاطفال واقام ينتظر قدوم العسكر[1] . ولم يكن الاشتراك فى المعارك الحربية قاصرا على الرجال وانما كانت المرأة تشارك أيضا فيها . فكانت النساء الصالحات يسقين المحاربين فى وسط القتال ويعملن فى جر المجانيق[2]

٣- الاسلحة التى استخدمها العرب فى الحرب:-

مارس فرسان عرب مصر أسلوب الكر والفر فى حروبهم مع أعدائهم واشتهروا بالشجاعة والاقدام والضرب بالسيف والرشف بالسهام.[3] واستخدموا الترس[4] والنشاب والمقلاع والحجارة[5] وحاربوا مشاة وركبانا واستخدموا الخيول والجمال[6] فى حروبهم وعلى الرغم من شجاعة العرب وفروسيتهم الا أنهم لم يسلموا فى

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ، ق٣ ، ص ٩١١

(٢) لم تحدد المراجع من المقصود بالنساء الصالحات والارجح أنهن من نساء القبائل العربية اذ من المعروف ان نظام القتال عند العرب قد فرض عليهن البقاء قريبا من مكان المعركة لشحذ الهمم ورفع الروح المعنوية عند المقاتل العربى .

(٣) (انظر المقريزى ، البيان ، ص ٢٧ ، ٤٢ - أحمد لطفى السيد ، قبائل العرب ص ٤٣.

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق٣ ، ص ٩١٣ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٣، ص ٢٨٦

(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص ٣٥٠ هامش رقم ١ ابن اياس بدائع الزهور جـ٩ ، ص ١٠٨١

(٦) (انظر نتائج معارك ابن الاحدب بالصعيد وغنائم العرب التى استولى عليها المماليك بعد انتصارهم على ابن الاحدب ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص ٩١٣)

حالة هزيمتهم أمام المماليك من التعرض للنقد اللاذع بهم وبأسلحتهم . وقد وصف أحد الزجالين العرب السلاح الذى استخدمه بدر بن سلام فى معاركه ضد المماليك عام ٧٨١هـ (١٣٧٩)م بقوله::

جا ابن سلام معو رجال ::: كل حد شهوتو رغيف
ذا على رقبتو عقال ::: وذا فى رقبته شليف
وذا لو درع سيسبان ::: وذا لو درع خوص وليف
والقسى قس من نخيل ::: وخرائطهم الجعب
وصواريهم الجريد ::: وخودهم قصع خشب[١]

ولو أن ذلك الوصف الذى وصف به العرب كان حقيقيا لما انتصروا على المماليك فى العام التالى لهذه الحملة عندما اتحدوا فى حلف ضم جميع عرب اقليم البحيرة وواجهوا حملة عسكرية مكونة من خمسمائة مملوك يقودهم الآن الشعبانى أمير سلاح وتقاتلوا فقتل العرب جماعة كثيرة من المماليك السلطانية [٢] ولكن الوصف كان مبالغا فيه وقصد منه السخرية .

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٢١٧

(٢) نفس المصدر ص ٢١٩.

٤- ألقاب قادة العرب

من أمراء العرب من كان يحمل ألقابا عسكرية أمثال: مالك الموقعي وكان مقدما عند صلاح الدين وأخيه العادل أبي بكر [١] وشقير بن حرحي وعمرو بن عسيلة من ثعلبة بن سلامان من القحطانية وكانا مقدمين في بني زريق أمرا بالبوق والعلم[٢] ومن جذام فضل الله بن شمخ بن كمونة وابراهيم عالي وأمر كل منهما بالبوق والعلم[٣] . وفي عهد بني أيوب أيضا أمر جماعة من هلبا سويد من ثعلبة بالبوق والعلم منهم أبو راشد بن حبشي ودحيه ونابت أبنا هانئ بن حرط وبقيت مرة في بني هانئ ووراثية [٤] ومن طريف مايروى أن اخوين من قبيلة ثعلبة هما سلمي ودغش أمرهما المعز ايبك - أول سلاطين الدولة المملوكية - ببوق وعلم فأبى سلمي حتى يؤمر مفرج بن سالم بن راضي من هلبا بعجة من جذام وأمر[٥] ثم أمر بعدهما مزروع بن نجم كذلك في جماعة كثيرة من جذام وثعلبة أما دغش فغادر القاهرة وتوجه الى دمشق فأمره الملك الناصر يوسف ببوق وعلم .[٦] وكان السلطان الظاهر بيبرس سخيا

---

(١) المقريزي البيان والاعراب ، ص٦

(٢) ... القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ١٥٠

(٣) نفسه ، ص١٥

(٤) نفسه ، ص ٢٤

(٥) القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ١٧٦.

(٦) المقريزي ، البيان ، ص ٢٥ _ القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٧٠

فى عطائه للامراء والقادة العرب الذين يفدون من بلاد الشام قدم اليه جماعة من آل ربيعة من طىء من القحطانية فأكرم وفادتهم ومنحهم من الذهب العين والدراهم مئات الالوف ، والخلع الاطلسى والقبابى [1] من السكندرى والسكر المكرر والاشربة المختلفة بالقناطير المقنطرة ويقطع باسمهم المدن والبلاد.[2]

(١) القبابى نوع من الثياب الحرير مخطط بخطوط مختلفة (على مبارك الخطط التوفيقية ، جـ١٠ ، ص ٩٢

(٢) القلقشندى ، نهاية الارب ، ص ١٠٢، ١٠٣

(الخاتمة)

كان للعون العسكرى الكبير الذى قدمته القبائل العربية للنوريين ضد شاور وحلفائه الصليبيين أعظم الأثر فى تدعيم سياسة الوفاق الذى ساد العلاقات بين الدولة الايوبية وبين القبائل العربية فى مصر، فقد أدرك صلاح الدين بفطنته وثاقب رأيه وحدة حاسته السياسية ان عرب مصر اذا تضامنوا يشكلون قوة لايستهان بها .

والحقيقة أن القبائل العربية فى مصر رفضت مبدأ التعاون مع الصليبيين بقصد اضعاف النفوذ النورى وابعاده عن مصر اذ أن ذلك فى حقيقة الامر كان سيؤدى بالتأكيد الى وجود قوة صليبية فى مصر تعمل على تفكك الجبهة الاسلامية فى مصر والشام ثم السيطرة عليهما عسكريا.

وكان الكامل بن شاور يرى رأى القبائل العربية فى أن الحفاظ على جيش نور الدين قوة لمصر وأن اضعاف هذا الجيش اضعاف لمصر . وقد بلغ من وطنية الكامل بن شاور أنه فضل الاحتفاظ بقوة الجيش الشامى فى مصر وعدم مقاومتها حتى لاتضعف ولو أدى ذلك الى التضحية بشخصه وشخص أبيه وذلك حرصا على سلامة الجبهة الاسلامية فى مصر والشام والا فلن يكون أمام الصليبيين الا امتلاك مصر[1] .

---

(1) أبو شامة ، الروضتين فى اخبار الدولتين ، جـ1 ، ص 156 / 158

وهكذا يتضح دور القبائل العربية أمام صلاح الدين وعلى هذا الأساس رسم ابعاد سياسته مع العرب وهى سياسة قامت على قاعدة من الود والتقدير حتى أن بعض المصادر تنسب صلاح الدين الى المضريين ، فهو من قيس عيلان من مضر[1] .

ولهذا السبب اتسم عهد صلاح الدين وعهود خلفائه بالاستقرار الداخلى . وفى ظل هذا الاستقرار قام العرب بالدور الثقافى والدينى الذى كان عليهم القيام به طبقا لسياسة صلاح الدين التى قامت على أساس من نشر تعاليم السنة . واقتضى ذلك انشاء المدارس بقصد تعميم المذهب السنى فى مصر كلها . وظل العرب طوال هذا العصر يناصرون الدولة الايوبية و لم يقدموا قط على مناهضتها الا فى المرحلة الاولى من قيامها وذلك على اثر قيام بنى الكنز فى أسوان بثورتهم على العهد الجديد . ومن المعروف أن خلفاء صلاح الدين اقتدوا به فى تحديد علاقاتهم بالقبائل العربية يدل على ذلك المنشورات الصادرة من السلاطين الى الولاة عند قيامهم بتسلم مناصبهم الجديدة . وكان طبيعيا أن يقابل العرب الود بمثله ، لذلك رأيناهم لايترددون فى المساهمة فى الدفاع عن مصر من الأخطار الخارجية والمشاركة فى حركة الجهاد التى اعتمدها الأيوبيين ضد الصليبيين فى بلاد الشام طوال العصر الأيوبى

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ١٣

كان العرب عنصرا فعالا في الدفاع عن مصر وكثر عدد المتطوعة من العرب حتى بلغ عددهم في احدى معارك دمياط حدا يعجز عنه الحصر[1] وبلغ عدد متطوعة العرب من الاسكندرية وحدها ثمانية آلاف مقاتل[2] .

شغف العرب بحب القتال فكانوا اذا استنفروا للجهاد تدفقوا الى ميدان القتال مجاهدين للأعداء لايهمهم الموت أما في ظروف السلم فكانوا يقومون بخدمة الأهالي كلما تأزمت الاحوال الاقتصادية فحمل بعضهم الألقاب ومنحوا الهبات والعطايا تقديرا لخدماتهم الاجتماعية الجليلة . كما اشتغلوا بالتعميرفامتد العمران وساد البلاد جوا من الطمأنينة والاستقرار هيأ المجال أمام العرب للاستمرار في القيام بدورهم الحضاري .

وفي عصرالمماليك ازداد تفاعل العرب مع المصريين وقوى اندماجهم بهم على الرغم من مناهضتهم للمماليك ويرجع السبب في ذلك الى أن المعارضة العربية ضد الحكم المملوكي في مصر. كانت من القوة بحيث جمع لها الزعيم العربي حصن الدين ثعلب حشودا هائلة من جميع أنحاء مصر ودفع بهم الى قتال المماليك لاسقاط حكمهم باعتبارهم أرقاء دخلاء على البلاد والعرب أحق منهم بحكم مصر ولكن العرب خسروا المعركة مع المماليك وتشتتوا

---

(1) المقريزي ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥١

(2) المقريزي ، السلوك ، ص ١ ق ١ ، ص ٢٠٦ - المقريزي ، الخطط ، حـ١ ، ص ٣٥١.

فى البلاد ولما عادوا الى جمع شتاتهم مرة ثانية ظلوا على موقفهم المعارض من الحكم المملوكى . الا أنهم على الرغم من معارضتهم لحكم المماليك نجدهم يشاركون كمواطنين مصريين فى الجهاد ضد قوى المغول والفرنج ويبذلون أرواحهم رخيصة فداء لمصر والاسلام فى موقعتى عين جالوت ٦٥٨هـ وحمص ٦٨٠ هـ كما شاركوا فى موقعتى مرج راهط التى حدثت بين جيوش الناصر محمد بن قلاوون وجيوش المغول فى عام ٧٠٢ هـ.

وانتهت بوقوع مايقرب من ثلث جيش المغول أسرى فى أيدى المماليك[١] . كذلك نراهم ينصرون السلطان الناصر فرج ضد قوات المغول بقيادة تيمور لنك[٢] وقد ظلوا يساندون مصر ويدافعون عنها جنبا الى جنب مع المصريين وقوات المماليك حتى آخر معاركهم ضد العثمانيين . ولم يتردد العرب فى مساندة طومان باى ضد العثمانيين ، فاشتركوا فى خيالته بفرقة من الفرسان قوامها سبعة آلاف فارس[٣] .

ولم يقتصر دور العرب الدفاعى عن الحدود الشمالية . والشرقية لمصر اذ كان لهم دور رئيسى فى الدفاع عن حدود مصر الجنوبية[٤].

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٢١

(٢) نفس المصدر ، جـ٣ ، ص ٢٨٨

(٣) أحمد بن زنبل الرمالى ، تاريخ السلطان سليم ، ص٤١

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ٣ ق ١ ، ص ٧٣٧

كان من أهم نتائجه توقف هجمات النوبيين على الجنوب واستتباب الامن ثم انتشار العرب وتوغلهم فى أنحاء السودان وبسط نفوذهم فيها ومصاهرة ملوكها حتى بلغوا الغاية من ذلك .

وكذلك أثبتنا فى صفحات هذه الرسالة الأسباب التى كانت تدفع العرب الى الانتفاضة والثورة على السلطات المملوكية الحاكمة وأرجعناها كلها باستثناء ثورة حصن الدين ثعلب الى عوامل اقتصادية ، فثورة حصن الدين ثعلب قامت بعد اعلان قيام دولة المماليك على انقاض الدولة الايوبية فقام هذا الزعيم العربى يحاول اسقاط الدلة الجديدة . فهى ثورة سياسية هدفها اسقاط نظام حكم يرفضه العرب والمصريون .

أما الثورات التى قامت طوال عصر دولتى المماليك البحرية والبرجية (الجراكسة) فكانت جميعها تأتى عقب ظروف غير طبيعية مثل ظروف مجاعات أو انتشار وباء أو فرض غرامات وتحصيل ضرائب جائرة تفوق طاقة الاهالى مما كان يودى الى ارهاقهم اقتصاديا فتضطرب الاحوال وتنتشر القلاقل وتقوم الثورات التى كان يصعب حسمها الا بالقهر والاستبداد .

على أن هذه الثورات العربية وان كانت قد تسببت فى اشاعة جو من الفوضى والاضطراب فى الداخل كانت خيرا على مصر ، ويكفى أن نذكر أن من أبرز نتائجها : الاندماج التدريجى للعرب فى شعب مصر وقد تم ذلك عن طريق المصاهرة بين العرب

والمصريين الى حد أن أحد أقباط مصر وهو عبد الله بن نصر القبطى كان رئيسا لقبيلة جذام بالشرقية [1] وبفضل هذا الاندماج تمكنت الروابط الاجتماعية بين المصريين والعرب ، فساعد ذلك على تنمية علوم العربية والثقافة العربية ، كما ساعد على صون التراث الفكرى والروحى للعرب ، لاسيما فى أواخر عصر دولة المماليك .

ويلاحظ أيضا أنه ترتب على ثورات العرب على الاوضاع السياسية والاقتصادية فى مصر المملوكية من هجرة بعض قبائلهم الى السودان وكان ذلك من العوامل التى أدت الى اتساع مجال انتشار اللغة العربية وعلومها فى قلب القارة الافريقية وتلاقى هذا المد مع مد عربى آخر سبقه فى التاريخ واعنى به هجرة القبائل الهلالية فى النصف الثانى من العصر الفاطمى غربا الى المغرب الاسلامى بل والأندلس [2] .

وقد توصلت فى دراستى عن القبائل العربية فى مصر فى العصرين الايوبى والمملوكى الى ذكر بعض الحقائق المتعلقة بالنظامين الاجتماعى والحربى عند هذه القبائل ، فأمكننى أن استنتج من النصوص الواردة فى المصادر العربية بعض مظاهر حياتهم الاجتماعية

---

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٥ ، ص ٤٩٥

(٢) راجع ماورد فى هذا الشأن فى الرسالة المقدمة من السيد / مصطفى أبو ضيف للحصول على درجة الماجستير وعنوانها . القبائل العربية فى بلاد المغرب فى عصر دولتى الموحدين وبنى مرين ص ٣٦.

وماكانوا يقومون بأدائه من أعمال هذا الى الاشارة الى دورهم الثقافى فى مصر المملوكية .

كذلك توصلت الى حقائق تتعلق بنظامهم الحربى من حيث طريقة التحاقهم بالجيش وطريقة القتال وأنواع الاسلحة التى استخدموها فى القتال وهى حقائق لم ترد بطريقة مباشرة فى المصادر العربية وانما استطعنا أن نستنبطها من خلال النصوص التاريخية المتعلقة بالاحداث .

نقلا عن كتاب (الملابس المملوكية)
ل"ماير" ص ١٩٧

(١٣)(١) ثوب تحتانى(تحتانية)-تفضلا من دار الآثار العربية
"متحف الفن الاسلامى"

(١٣)-(٢) سروال - تفضلا من تحف السانكانتينير
Museede Cinquantenaire

نقلا عن كتاب الازياء الشعبية

سعد الخادم ص ٥٩

جلباب حريمى صناعة اعرابيات الشرقية(الزقازيق)

الفسطاط فى العصر الأيوبى

الصعيد الأوسط في العصر الأيوبي

الواحات فى العصر الأيوبى

الصعيد الأعلى والنوبة

دمياط فى العصر المملوكى

الواحات فى العصر المملوكى

الصعيد الأعلى والنوبة
فى العصر المملوكى

المصادر العربية المخطوطة

الباعونى(محمد بن يوسف) (ت٩١٠هـ = ١٥٠٤م)

الاشارة الوفية الى الخصوصيات الاشرفية مكتبة اسكندرية رقم ٣٧٦٠ج

ابن الجيعان (أحمد بن يحى ابن شاكر المصرى)

القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف، معهد أحياء المخطوطات العربية جامعة الدول العربية رقم ١٨٩٩

ابن منكلى (الأمير محمد)

التدبيرات السلطانية فى الفنون الحربية

بدون تاريخ مكتبة اسكندرية رقم ١١٤٧ب

القادرى (محمد بن على)

المواقف الشريفة فى تحقيق معنى الخليفة

مكتبة اسكندرية رقم ٣٨١٦ج بدون تاريخ

القلقشندى (أحمد بن عبد الله القلقشندى)(ت٨٢١هـ=١٤١٨م)

قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان معهد أحياء المخطوطات العربية ميكروفيلم رقم ٣٨١

الكرمى (مرعى بن يوسف بن أبى بكر)

نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين مكتبة اسكندرية ١٤١٦ج بدون تاريخ

النويرى (محمد بن قاسم السكندرى)

الالمام بما قضت به الأحكام المقضية فى وقعة اسكندرية نسخ مصورة من مخطوطات الهند بمكتبة كلية الاداب جامعة اسكندرية رقم ٧٣٨

المصادر العربية المحققة

ابن الأثير:على ابن محمد الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ=١٢٣٢م)

(الكامل فى التاريخ) ١٢ جزء (المكتبة التجارية)

ابن اياس:أبو البركات محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ = ١٥٢٣م)

"بدائع الزهور فى وقائع الدهور"٩أجزاء ط القاهرة١٩٦٠

"صفحات لم تنشر من بدائع الزهور(تحقيق محمد مصطفى

زيادة ام١٩٥١م.

ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت٧٢٨هـ=١٣٢٧م)

مجموعة الرسائل الكبرى ط القاهرة ١٣٢٢هـ

ابن ثعلب:(كمال الدين جعفر الادفوى)(ت٨٤٨هـ)

الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلا

الصعيد القاهرة ١٣٣٤هـ

ابن دقماق:ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى

(ت٨٠٩هـ=١٤٠٦م)

الانتصار بواسطة عقد الامصار

القاهرة١٣١٠هـ=١٨٩٢م ٤أجزاء

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على (٨٥٢هـ=١٤٤٩)

الدور الكامنـــة فى أعيـــان المائـــة الشـــامنة ،

ط الهند١٣٤٩هـ=١٩٣٠

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ=١٤٠٥)

مقدمة بن خلدون القاهرة المكتبة التجارية.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) .

ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الشافعى (ت٦٨١هـ=١٢٨٢) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان(القاهرة ١٢٨٢هـ .

ابن زنبل: أحمد الرمالى المحلى

تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه الغورى سلطان مصر وأعمالها،القاهرة١٢٧٨هـ

ابن شاهين: غرس الدين خليل (ت٨٧٣ هـ = ١٤٦٨)

(زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) تحقيق بول رافيس ٨٩٥

ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت٦٣٢هـ = ١٢٣٤م)

ابن الشوكانى: (محمد بن على)(ت١٢٥٠هـ=١٨٣٤)

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع جزءان

ابن طولون : (محمد بن على بن محمد)(٨٨٠-٩٥٣هـ)

مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان

تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢

ابن عبد الحكم : (عبد الرحمن)(ت٢٥٧هـ=٨٧٠)فتوح مصر

والمغرب ليدن ١٩٢٠م

ابن عذارى: أبو العباس أحمد بن محمد

البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، ط بيروت

ابن القطان : أبو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسى

(ت٦٢٨هـ=١٢٣٠م) نظام الجمان فى أخبار الزمان ،

تحقيق : محمود على مكى الرباط ١٩٦٤م.

ابن هشام: نبى البر محمد المختار من سيرة بن هشام ، تحقيق

ابراهيم الابيارى كتاب الشعب رقم ١٥.

أبو شامه: عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى

(ت٦٦٥هـ=١٢٦٨م) كتاب الروضتين فى أخبار

الدولتين النورية والصلاحية جزءان القاهرة ١٢٨٧م.

أبو عثمان: (النابلسى الصفدى)(ت ٦٤١ هـ)

تاريخ الفيوم وبلاده ط القاهرة

أبو الفدا: اسماعيل بن علی عماد الدين صاحب حماه
(ت٧٣٢هـ - ١٣٣١م) تاريخ أبى الفدا. جزءان
القاهرة ١٢٨٦.

أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
(ت٨٧٤هـ=١٤٦٥م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر
والقاهرة ، ط القاهرة ١٩٢٩ المنهل الصافى والمستوفى
بعد الوافى ، القاهرة ١٣٧٢هـ = ١٩٥٦)

الاسحاقى: محمد عبد المعطى بن أبى الفتح المنوفى .
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين
القاهرة ١٣٠٠هـ

البلاذرى: أبو الحسن أحمد بن يحى البغدادى (ت ٨٩٢هـ)
فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٠٠م

الحموى: ياقوت ، معجم البلدان (ت٦٢٦هـ=١٢٢٩م)

الدميرى: كمال الدين ، حياة الحيوان ، القاهرة ١٨٧٥م

السلاوى: أحمد بن خالد،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
(ت١٣١٥هـ=١٨٩٧م) ٤أجزاء القاهرة ، ١٨٨٣م

السيوطى: عبد الرحمن (ت ٩١١هـ - ١٥٠٥م)

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة جزءان القاهرة ١٣٢١هـ

الشعرانى: عبد الوهاب بن أحمد بن على العلوى الهاشمى .

الطبقات الكبرى ، جزءان ، القاهرة ١٣٠٥هـ

شقير : نعوم ، تاريخ السودان القديم والحديث ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٠٣م

عماد الدين الكاتب : أبو عبد الله محمد بن محمد الاصفهانى

الفتح القسى فى الفتح القدسى القاهرة ١٣٢١هـ

القلقشندى : أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٨٢١ هـ=١٤١٨م)

صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٤م.

نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب القاهرة ١٩٥٩

الكتبى : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ=١٣٦٢م)

فوات الوفيات ، جزءان ، ١٢٩٩هـ القاهرة

الكندى : محمد بن يوسف (ت٣٥٠هـ=٩٦١م)

كتاب الولاة والقضاه ، بيروت ١٩٠٨

المقريزى: أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢م)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء القاهرة
١٣٢٥ هـ السلوك بمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٨
البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب مع
دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل ، القاهرة
١٩٦١ تحقيق عبد المجيد عابدين اغاثة الامة بكشف الغمة
القاهرة ١٩٥٧م تحقيق الشيال ، مصطفى زيادة
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة ألفا طميين الخلفا،القاهرة ١٩٤٨

(المراجع العربية الحديثة)

أبو ضيف : (مصطفى)،القبائل العربية فى المغرب فى عصر دولتى الموحدين وبنى مرين(رسالة ماجستير ١٩٧٥ كليةالاداب جامعة الاسكندرية .

بتلر: (الفردج)، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣ .

البرى: (عبد الله خورشيد)، القبائل العربية فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة ط القاهرة ١٩٦٧م

حمدى: (حافظ أحمد)، الدولة الخوارزمية والمغول، ط القاهرة ١٩٤٩م

حمزة: (عبد اللطيف) القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى، القاهرة ١٩٦٢

الخادم: (سعد) الازياء الشعبية ، القاهرة ١٩٦١

خطاب: (محمود شيت) عقبة بن نافع الفهرى ، القاهرة ١٩٧١

خورشيد: (فاروق) ، أضواء على السير الشعبية يناير ١٩٦٤

زيادة: (محمد مصطفى) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، التاسع الهجرى، ط القاهرة ١٩٥٤م

سالم: (السيد عبد العزيز) المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة
والنشر ١٩٦٦ تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر
الاسلامى حتى العصر العثمانى ط الثانية ١٩٦٩ دارالمعارف
تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، بيروت ١٩٧١
تاريخ الدولة العربية - تاريخ الدول العربية منذ ظهور
الاسلام حتى سقوط الدولة الاموية ، الاسكندرية ١٩٧٤م
سليم : (محمود رزق) ، الاشرف قانصوه الغورى القاهرة ١٩٦٥
السيد: (أحمد لطفى) ، قبائل العرب فى مصر العليقات والجعافرة
وقبائل أخرى ، ط القاهرة ١٩٣٥
الشرباصى: (أحمد) شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام الجيزة
١٩٦٣
الشيال: (جمال الدين) مجل تاريخ دمياط ، والقاهرة ١٩٤٩م
الوثائق التاريخية لمصر الاسلامية ، ط دار المعارف ١٩٦٥
المجلد الأول : وثائق الخلافة الفاطمية وولاية العهد والوزارة
طرخان: ابراهيم ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة
عاشور: عبد الفتاح ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٢ الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٣

الناصرصلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٥.

العبادى : مختار ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس
ط الاسكندرية الناشر محمد أحمد.

عبد الوهاب: حسن ، جامع السلطان حسن ، المكتبة الثقافية
القاهرة ١٩٦٢ رقم ٥٦

العرينى: الباز ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ط القاهرة ١٩٦٠

عمار : عباس ، المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ١٩٤٦

عكوش: محمود ، مصر فى عهد الاسلام القاهرة ١٩٤١م

عون : عبد الرؤف ن الفن الحربى فى صدر الاسلام ، القاهرة
١٩٦١

فيصل: شكرى ، المجتمعات الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٢

الكاشف : سيدة اسماعيل ، مصر فى فجر الاسلام من الفتح
العربى الى قيام الدولة الطولونية القاهرة ١٩٤٧

كحاله : عمر رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ط ثانية
بيروت ١٩٦٨

ماجد: عبد المنعم ، موقف المصريين من المماليك فى العصور الوسطى حوليات كلية الاداب، جامعة عين شمس العدد ١٢عام ١٩٦٩

ماير: (ل.أ.) الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، القاهرة ١٩٧٢

مبارك: على باشا ، الخطط التوفيقية ط القاهرة ١٣٠٥

النجار: عبد الوهاب ، الخلفاء الراشدون، القاهرة ١٩٦٠

هاشم:محمود أحمد، الامام الشعرانى ،القاهرة ١٣٩١هـ=١٩٧٠م

يونس: عبد الحميد،الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى القاهرة١٩٥٦ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى المكتبة الثقافية رقم٣

المراجع الأجنبية

Abd arrazik (Ahmad) : La femme au temps de mamelouks en Egypte, le Caire 1973

Gibb(A.R).a) The Rise of saladin in kenneth n'setton (editor).

b) A history of crusades, philadelphia 1958

Lane poole : a) Saladin and fall of the kingdon.

Zerusalem, Beirut 1964.

b) The story of Cairo, London 1924 .

Margais (G.,) La berberia musulmane et l'orient au meyen age, paris 1964.

Oldenbourg (zoe) the crusades newyork, 1966.

Wiet, L'Egypte Ararbe Encys Isl. 1,11

((الفهرس))

الموضوع	الصفحة
المقدمـــــة :	١
الباب الاول: انتشـار العرب فى مصر وأهم أعمالهم	٢٧
الفصل الأول: القبائل العربية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى	٢٨
الفصل الثانى: اندماج العرب بأهل مصر	٦٣
الباب الثاني: القبائل العربية في خدمة الجيـــــش الايوبى والمملوكى	٧٧
الفصل الأول: دور العرب الحربى فى الدفاع عن حدود مصر زمن الايوبيين	٧٨
الفصل الثاني: دور العرب الحربي في الدفاع عن مصر زمن المماليك	٩٦
الباب الثالث: ثورات العرب فى مصر فى عصر المماليك	١١٩
الفصل الأول: موقف العرب من المماليك عند قيام دولة المماليك فى مصر	١٢٢

الموضوع	الصفحة
الفصل الثانى: ثورات العرب فى مصر على المماليك والأسباب والنتائج	١٣٩
الباب الرابع: حياة العرب الاجتماعية والحربية	٢١١
أولا: حياة العرب فى السلم	٢١٢
ثانيا: حياة العرب فى الحرب	٢٣٦
الخاتمة :	٢٤٤
الصور:	٢٥١
الخرائط:	٢٥٣
المصادر والمراجع العربية:	٢٦٥
المراجع الأجنبية :	٢٧٧